«سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ»

عصر الإنكا

مايكل أ. مالباس
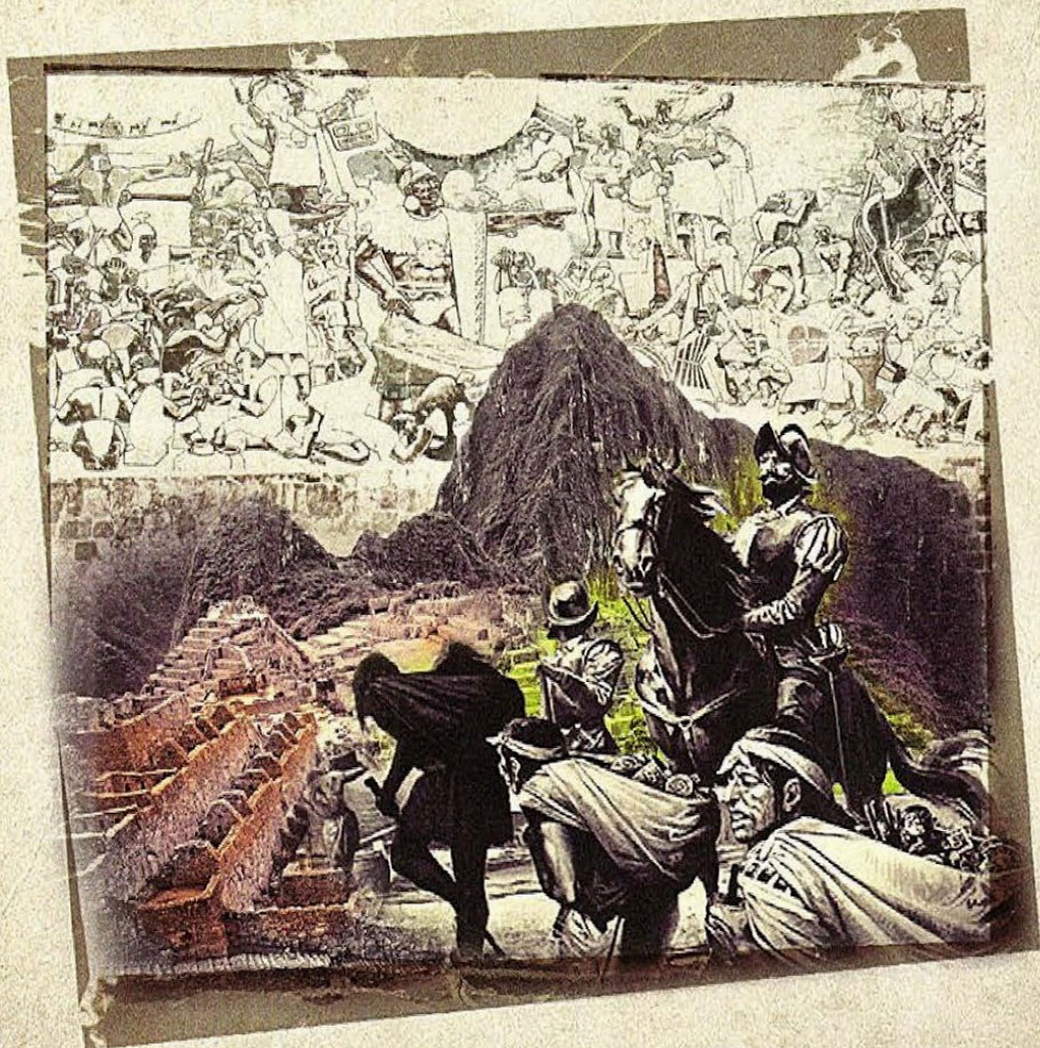
ترجمة: فالح حسن فزع

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م

عصر الإنكا
مايكل أ. مالباس

F3429 .M2612 2011
.Malpass, Michael Andrew
[Daily Life in the Inca Empire]
عصر الإنكا / تأليف مايكل أ. مالباس؛ ترجمة فالح حسن فزع.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 258 : 23.5×15.5سم. (سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ)
ترجمة كتاب: Daily Life in the Inca Empire
تدمك: 978-9948-01-862-9
1 - الإنكا (إمبراطورية) - تاريخ. 2 - الأنديز - الأحوال الاجتماعية.
3 - الإنكا (إمبراطورية) - الأحوال الاجتماعية.
أ-فزع، فالح حسن.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Michael A. Malpass
Daily life in the Inca Empire

www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

www.mdrek.com
read@mdrek.com
ص. ب: 333577 دبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 3807774 4 00971 فاكس: 3805977 4 00971

إلى سوزان كيسماير وسورين كيسماير، عرفاناً لحبهما وصبرهما
ودعمهما وموقفهما خلال مراحل إنجاز هذا العمل.

المحتويات

تقديم المؤلف للنسخة العربية الأولى

دراسة الحضارات موضوع مغر للناس في أنحاء العالم جميعاً. فكيف ولماذا انبثقت مجتمعات كبيرة قَدْرٍ من مجتمعات بسيطة؟ شأن يأسر اهتمام الناس سواء كانوا عاديين أم باحثين. وأول مكان قامت فيه حضارة شمّاء، بلاد ما بين النهرين، بمعنى الأرض الواقعة بين نهري دجلة والفرات، يستحق نظراً خاصاً في فهمنا لعملية التطور الثقافي في تلك المنطقة. وبداع من وجود سجلات تاريخية ترجع إلى آلاف خمسة من السنين، فهناك كنز ثمين من معلومات مدونة يمكن أن تؤثر في مسألة فهم أصول الحضارة في تلك المنطقة، واستكملت هذه الثروة من المعلومات المكتوبة ووسعت بفعل حجم الأعمال الأركيولوجية التي أجريت في هذه المنطقة. لذا ليس مستغرباً أن يكون المعروف عن تطور الحضارة في هذه المنطقة أكثر مما هو معروف عن أية حضارة أخرى تقريباً.

لكن ماذا نعرف حقاً عن مجتمعات سومر أو عيلام، أو حتى دلمون، هذا المجتمع الخليجي الكبير، الذي تشير إليه نصوص مبكرة؟ تركز أكثر الكتابات المبكرة على المعاملات الاقتصادية بين أفراد أو مدن في تلك المنطقة. وبهذا النحو، هناك كمية كبيرة من المعلومات التي تتعلق بأنواع الأغذية والموارد التي كانت تنقل بين أرجاء هذه الدول المبكرة. وفي حين أن الأجدى نفعاً للباحثين يتمثل بمحاولة فهم المظاهر الاقتصادية في هذه المجتمعات المبكرة، تراهم يعطون نظرة محدودة الحيز عن مجمل مظاهر ثقافاتها. فلم يحدث إلا في وقت لاحق أن بدأ تسجيل حكايات ملوك كبار وتوثيق أعمالهم، مثل شريعة حمورابي. وفي حين كانت هذه المعلومات، وأخرى لحقتها، أكثر عوناً في فهم التاريخ السياسي لهذه الحضارات العظيمة المبكرة، لا يزال هناك غياب لمعلومات عن العديد من المظاهر المجتمعية. فماذا كانت طبيعة حياة الحرفيين فيها؟ وكيف كان عمال الحكومة يمضون يومهم في مكان عملهم، أو في بيوتهم؟

لقد كان حقل الأركيولوجيا حاسماً في إشباع العديد من مجالات التاريخ، التي لم تشتمل عليها المدونات التقليدية المبكرة. ففي حين أن الكثير من العمل الأركيولوجي المبكر في الشرق الأدنى كان يركز على معابد وقصور، شرع أركيولوجيون قبل عقود عدة يركزون على مجريات حياة العمال اليومية والمواطنين في حضارات مبكرة. فدراسات

من قبيل عمل بوستغيت Postgate عن «بلاد ما بين النهرين المبكرة: الاقتصاد والمجتمع في فجر التاريخ،» (1994)، أسهمت في توسيع المعرفة بجميع جوانب الحياة في هذه المجتمعات العظيمة الخالية.

لِمَ أن وصفا تاماً يمكننا وضعه عن حضارات قديمة يعد أمراً مهماً؟ أسباب كثيرة لذلك. إذ كي نفهم لِمَ أن مجتمعنا الموجود الآن بهذا الشكل الذي هو فيه، وليس في شكل آخر، علينا النظر إلى الماضي. ففهم منطقة الخليج يتطلب فهم الأحداث التاريخية التي صاغت ظهورها، حديثة وقديمة على حد سواء. وإذا أردنا شرح الوضع السياسي الراهن في هذه المنطقة، علينا أن نفهم التطورات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية التي شهدتها في القرون السابقة: ظهور الإسلام واتساعه، وغزو الصليبيين المسيحيين في القرن الحادي عشر، وتطور أنظمة الحكم الإسلامية المختلفة حتى مجيء البريطانيين وغيرهم في القرن التاسع عشر، وظهور الدول الحديثة في القرن العشرين.

ثمة سبب آخر لدراسة تطور الحضارة يتمثل برؤية العلاقات بين العوامل المختلفة التي أدت إلى قيام حضارة ما. وهل كانت العوامل البيئية سبباً لظهور جوانب معينة فيها؟ هل ثمة جفاف مديد أسهم في نشوء بيروقراطية معينة للسيطرة على الري؟ أكان الصراع سبباً في بروز نظام ملكي؟ هل أسهمت المعابد المبكرة في حركة التجارة مع مناطق أخرى؟ إن دراسة الحضارات المبكرة تتيح للباحث الحديث فهم تعقيدات العوامل التي أدت إلى قيام الدولة بشكليها القديم والحديث. وتبعاً لذلك، تتيح مقارنة تطور الدول في مناطق مختلفة، للمرء أن يتحقق مما إذا كانت هناك عمليات ثقافية مشتركة أدت إلى قيام مؤسسات اجتماعية مشتركة، ومما إذا كانت بعض العوامل أكثر أهمية من غيرها لصعود حضارة ما.

لعل فهم سبب انهيار مجتمعات معينة له أهمية سبب تطورها. فبوسع المرء أن يقارن، على وجه الخصوص، العوامل والعمليات التي تؤدي إلى التفكك المجتمعي مع العوامل والعمليات القائمة في يومنا هذا. وبينما بمقدور المرء أن يحاجج بأن العالم الحديث مختلف عن عالم الماضي إلى درجة أنه لا يمكن العثور إلاّ على القليل فيه مما يمكن عده متصلاً بدراسة تطور مجتمع قديم أو انهياره، إلا انه قد يكون من الأجدر مقابلة أوجه التشابه والاختلاف بينهما وتقويمها. إذ يلاحظ باحثون أن حضارة المايا Maya القديمة قد أفرطت في استغلال

بيئتها الهشة، ما أدى ربما إلى انهيار بعض من كبريات مدنها. وهذا الأمر بدوره قد أسهم في تنشيط دوامة الحرب التي قادت إلى انهيار مدن أخرى في تلك الحضارة. وفي بلاد ما بين النهرين، تسبب الإفراط في استعمال الري بتملّح الحقول وتدني الناتج الزراعي الذي أسهم في إضعاف الحضارة السومرية، ما جعلها عرضة للغزو. ولا تزال مثل هذه السيرورات قائمة في يومنا الراهن. إذ أن تدمير الغابات الاستوائية المطيرة يجر تغيرات دائمة على التربة تؤدي إلى انخفاض مستوى الإنتاجية، على غرار حضارة المايا. ذلك أن تغير المناخ العالمي يمكن أن يؤدي إلى التقليل من هطول الأمطار، وتدني مناسيب الري، والعجز عن إزالة الأملاح من الحقول في المناطق القاحلة.

من المهم أيضاً إعادة قراءة النصوص القديمة وإعادة تقويمها، في ضوء ظهور بيانات جديدة وسبل جديدة لتفسير بيانات قديمة. إذ أن معاينة وترجمة نصوص جديدة يمكن أن تقودان إلى التوصل إلى فهم أفضل للعالم القديم. فالخطوط العريضة الأساس لحضارة الإنكا قد تحددت بتوصيفات إخباريين إسبان مبكرين للإمبراطورية، والتي تضم كلا من وجهة نظر الإسبان الخاصة عن الإمبراطورية، وتوصيفات الرواة الإنكيين أنفسهم عنها. لكن مع ظهور وثائق إضافية عنها، زادت معرفتنا بها. خذ على سبيل المثال أن قراءة متأنية لروايات إسبانية مبكرة عن المنطقة القريبة من بحيرة تيتيكاكا، بيّنت كيف أن الإنكيين استعملوا نظاماً عشرياً في الضرائب، ما يدعم الوصف الذي قدمه أولئك الإخباريون (جوليان Julien 1983). إلا أن وثيقة مهمة تعود للقرن السادس عشر، عُثر عليها في أحد الأرشيفات، أدت إلى العثور على مدونة كاملة من المعلومات عن تلك الجماعة الإثنية التي عاشت في جنوب الأنديز (بيز Pease 1977).

لقد أعاد باحثون في العقود الأخيرة تقويم ما إذا كانت تلك الروايات دقيقة، أو تحديد مواطن التحيز فيها. ولطالما لاحظ مؤرخون أن أي نص يمكن أن ينطوي على مواطن تحيز، سواء كان عن وعي أم بغير وعي، وأنه من المهم إجراء تقويم دقيق لمواطن التحيز تلك. فقد كان الإسبان يصفون نهج حياة الإنكيين الذي كان غريباً عنهم أيما غرابة، مستعملين عبارات وسياقات مألوفة بالإسبانية وثقافتها. على سبيل المثال، كان الإسبان يصفون حكم الإنكيين على انه يجري من خلال ملك واحد، مقارنة إلى حد كبير بالممالك الأوروبية التي كانوا يعرفونها في زمانهم. بيد أن بعض الباحثين يشيرون إلى أن

الإنكيين كانوا يتوافرون على قيادة حكم مزدوجة، استناداً إلى نظامهم الاجتماعي القائم على الشعب. وعليه، فمن الأهمية بمكان إعادة تقويم الأفكار القديمة الشائعة عن طبيعة الحضارات القديمة، على أساس مناهج تفكير جديدة وأطر تأويلية جديدة.

لقد كانت الأركيولوجيا حاسمة في بعض من عملية إعادة التقويم هذه. ففي حين أن النظرة التقليدية عن إمبراطورية الإنكا، التي عرض لها هذا الكتاب، تنص على أن الإنكيين بدأوا توسعهم خارج عاصمتهم في حوالي العام 1428 بعد الميلاد، إلا أن ما ظهر من تواريخ جديدة عن احتلالات الإنكيين للأجزاء الجنوبية من امبراطوريتهم، تشير إلى أنهم كانوا قد توسعوا أصلا قبل بضعة عقود من ذلك التاريخ. وهاك مثال آخر: إن الإخباريين الحوليين الإسبان يشيرون إلى أن الإنكيين حكموا كل مناطقهم المفتوحة بالمنوال نفسه، بيد أن دراسات جديدة أُجريت عن مناطق فتحوها تبرهن على اعتمادهم طرق حكم متنوعة تنوعاً كبيراً لتلك المناطق (مالباس Malpass 1993؛ مالباس والكونيني Malpass and Alconini 2010).

يمثل هذا الكتاب مقاربة تطبيقية في دراسة حضارة قديمة. وهذا منهج لاستكشاف تعقيدات دراسة الحضارات، بالاستعانة بنصوص وآثار على حد سواء. وجاء تنظيم هذا الكتاب ليكون وسيلة لإدخال القارئ إلى مظاهر ثقافة الإنكا المختلفة. وعلى النقيض من العديد من النصوص التقليدية الخاصة بالشرق الأدنى، ينصب التركيز هنا على إعادة بناء أكبر قدر ممكن من أسلوب الحياة القديمة لدى أهل تلك الثقافة، وليس على المظاهر السياسية والاقتصادية والدينية وحسب. ويحاول هذا الكتاب أيضاً تقديم معلومات عن الإنكيين بوصفهم حكام إمبراطورية واسعة فضلاً عن معلومات عن رعاياهم. لذا فالفصل 6 يشكل انطلاقة من نوع ما، من أكثر النصوص تقليدية عن مجتمعات قديمة. وما محاولة المؤلف هذه إلا لتصوير ما كانت عليه طبيعة حياة أناس عاشوا فعلاً في إمبراطورية الإنكا. ويحث الكاتب قارئه على أن يقرر بنفسه ما إذا كانت إعادة بناء أسلوب الحياة هذه دقيقة أم لا. أما ما تبقى من هذا النص فمأخوذ عن روايات إخباريين حوليين إسبان عن الإمبراطورية، ومراجعات تقويمية أجراها باحثون عن تلك الوثائق، وأعمال أركيولوجية.

هذا الكتاب واحد من سلسلة تسمى «الحياة اليومية عبر التاريخ،» تبنتها دار نشر

غرينوود. وتتخذ كتب هذه السلسلة جميعاً البنية الأساس نفسها التي يتكون منها هذا الكتاب، وتركز على ثقافات مختلفة، قديمة وحديثة على حد سواء. إذ باستعمال البنية نفسها، بوسع القارئ أن يقيم مقارنة بين المجتمعات المختلفة في المظاهر الثقافية نفسها، من النظم السياسية إلى الحياة المنزلية والأدب. وبهذا الصدد نشير الى أن من نتاجات هذه السلسلة ذات الأهمية الخاصة لقراء الشرق الأدنى كتاب «الحياة اليومية في بلاد ما بين النهرين القديمة (نعمت نجاة Nemet—Nejat 1998) الذي يركز على الحضارة السومرية.

نأمل أن تكون المعلومات التي يقدمها هذا الكتاب بمثابة حافز لدراسة مستفيضة عن حضارة بلدان الخليج، وتكون أيضاً بمثابة تقديم لحضارة تختلف تماماً عن الحضارات التي قامت في الشرق الأدنى.

ولا يفوت الكاتب أن يحيي الجهود التي يبذلها مشروع «كلمة» في تقديم نصوص من مناطق مختلفة إلى العالم العربي. وبالنظر إلى المهمة الشاقة المتمثلة في ترجمة الأفكار والمفاهيم من الإنكليزية ولغات أخرى إلى العربية، فلا بد أن تستحق جهود القائمين على «كلمة» الثناء لإتاحة مثل هذه الوثائق لقرائهم.

مايكل أ. مالباس

الولايات المتحدة

مارس/آذار 2010

مصادر استعانت بها المقدمة:

Julien, Catherine

1983 Hatuncolla: A View of Inca Rule from the Lake Titicaca Region. Series Publications in Anthropology vol. 15. Berkeley, CA: University of California Press.

Malpass, Michael

1993 Provincial Inca. Ethnohistorical and Archaeological Assessment of the Impact of the Inca State. Iowa City, IA: University of Iowa Press.

Malpass, Michael and Sonia Alconini

2010 The Distant Provinces in the Inka Empire: Toward a Deeper Understanding of Inka Provincialism. Iowa City, IA: University of Iowa Press.

Nemet-Nejat, Karen Rhea

1998 Daily Life in Ancient Mesopotamia. Westport, CT: Greenwood Press.

Pease, Franklin (editor(

1977 Collaguas I. Lima, Peru: Pontificia Universidad Catolica del Peru Fondo Editorial

Postgate, Nicholas

1994 Early Mesopotamia: Economy and Society at the Dawn of History. New York: Routledge.

استهلال الطبعة الإنجليزية الثانية

تولدت، منذ صدور نسخة هذا الكتاب الأولى في العام 1996، معلومات جديدة تستدعي وضع نسخة أحدث. أقول «تولّدت» لأن غالبية المعلومات التي نقيم عليها فهمنا للإنكيين في كتب مثل هذا الذي بين يدي القارئ، تُستَقى من نصوص كُتّاب إسبان مبكرين (انظر المدخل). وإذ لم يكتشف من مصادر المعلومات الوثائقية الجديدة عن الإنكيين سوى القليل نسبياً منذ صدور نسخة هذا الكتاب الأولى، فلا مجال هنا إلا لإيراد ذلك القليل الجديد. على أن المعلومات الأركيولوجية عن الإنكيين قد توسعت بنحو كبير، وتوافرت أيضاً معلومات جديدة أخرى عنهم، من قبيل توجهاتهم الفلكية والتصورات التي تحملها روايات إخبارييهم عنهم.

لقد أقام الإنكيون إمبراطورية في نصف الكرة الأرضية الغربي قبل مجيء الأوروبيين إليها في القرن السادس عشر. فقد فتح الإنكيون الكثير من مناطق غرب أمريكا الجنوبية في مدة قصيرة من الزمن، لربما في أقل من قرن واحد، وسادوا على طائفة كثيرة متنوعة من ثقافات تبتدئ من مجتمعات فلاحية صغيرة حتى مجتمعات حضرية كبيرة. أما كيف سيطر الإنكيون على هذه المنطقة فهو موضوع هذا الكتاب. بيد أن الإنكيين كانوا أكثر من كونهم جيوشاً فاتحين وقادة عسكريين؛ إذ كان بين ظهرانيهم أناس من مشارب الحياة على اختلافها. لكن جُل الكتب التي وضعت عنهم تركز بنحو نمطي على الطبقة الحاكمة وإنجازاتها. لذا سيسعى هذا الكتاب، كما نسخته الأولى، إلى النظر في ما وراء الطبقة الحاكمة، ووصف نهج حياة غيرهم من الناس الذين عاشوا في إمبراطورية الإنكا. كما سيصف طبيعة حياة طبقة الإنكيين الحاكمة في عاصمتهم كوزكو Cuzco، ونمط حياة رعاياهم الذين غزوهم. ذلك أن هذا التمييز يتيح للقارئ فهم كيف كان المجتمع الإنكي فريداً ونمطياً في الوقت عينه وسط مجتمعاتهم الأنديزية وقتذاك. كما يتيح ذلك للقارئ أن يرى كيف تمكن الإنكيون من أن يعالجوا ببراعة مظاهر حياة رعاياهم المتنوعة ويكيّفونها لغاياتهم الخاصة.

هذا الكتاب جزء من سلسلة «الحياة اليومية عبر التاريخ Daily Life Through History»، التي تتمتع بجمهور عريض أكبر مما تحظى به النصوص العلمية التقليدية. ففي معرض

وصفه لهذه السلسلة، يقول الناشر دار غرينوود Greenwood Press إن «كل كتاب من كتب هذه السلسلة يوفر استقصاء عن عصور تاريخية ملتبسة بمستوى يتاح لفهم الطلبة وعموم القراء.» والغاية من ذلك إعادة احياء التاريخ الاجتماعي في عين القارئ العادي، وهذا ما يسوّغ كتابة فصل عن إعادة بناء طريقة الحياة (الفصل 6). والغاية من ذلك أيضاً توفير مقدمة علمية رصينة، إلا إنها عامة، لثقافة تغطي أنماط المعلومات نفسها في كل كتاب من كتب السلسلة. وهذا ما يتيح للمعلمين تناول كتب مختلفة من السلسلة كي يقارنوا المظاهر نفسها مع بعضها في تلك الثقافات. لذا فإن غالبية الوصف التفصيلي لمظاهر الحياة المختلفة في ثقافة الإنكا المتاحة في نصوص أخرى (مثل الكتاب الرائع الذي وضعه تيرنس دالتروي Terence D'Altroy، 2002 قد اختزلت إلى ما هو جوهري أساس فيها.

ثمة ميزة جديدة تحملها هذه الطبعة وتتمثل بالحواشي. فبعض من هذه الحواشي ترجمة مباشرة لروايات إخباريين إسبان مبكرين، الأمر الذي يجعل وصف معلومة النص نابضاً. وحواش أخرى تنطوي على تفاصيل أكثر عن مسألة بعينها مثل المعلومة الحديثة جداً عن *quipus*[1]. لقد وُضعَت الحواشي كلها بهدف إعطاء القارئ معلومات مزيدة عن ثقافة الإنكيين الغنية وما سبق لنا أن عرفناه عنها. وهناك ميزة أخرى جديدة في هذا الكتاب تتمثل بوضع باب «إقامة صلة بما مضى» في ختام كل فصل. إذ ترمي الأسئلة والأنشطة التي ينطوي عليها هذا الباب إلى توليد نقاش عن العلاقة بين الإنكيين ومجتمع اليوم، وحث القارئ على التفكير في كيف يمكن لمعرفتنا عن الإنكيين أن تغني حيواتنا نحن. وأخيراً، أُضيف باب «مركز مصادر» في نهاية البيبلوغرافيا من أجل تيسير العثور على معلومات إضافية عن الإنكيين من قبيل الأشرطة المصوّرة videos، والأقراص الليزيرية CDs، والمصادر المطروحة على شبكة الإنترنت.

وقد أضيف فصل جديد تماماً في هذه النسخة عن ماتشو بيتشو Machu Picchu بُغية

---

(1) كيبو Quipu أو خيبو khipu (ويطلق عليها أحياناً الشبكة الناطقة talking knots) أدوات تسجيل كانت تستخدم في إمبراطورية الإنكا وأسلافها في منطقة الأنديز. وتتألف «كيبو» عادة من غزول ملونة وخيوط مجدولة أو خيوط من صوف اللاما llama أو من وبر الألباكا alpaca. وتتكون أيضاً من حبال قطنية ترمز إلى قيم عددية وقيم أخرى مشفرة تُعقد على قاعدة نظام عشري افتراضي. ويمكن أن يتكون الكيبو من بضعة خيوط أو تزيد عن 2,000 خيط (م).

تقديم وصف تفصيلي لاستيطان الإنكيين. فمع أن ماتشو بيتشو مدينة إنكية تقليدية من نواح عدة، إلا أنها مميزة من نواح أخرى بسبب غرضها الفريد. وبفضل صدور ثلاثة كتب عن هذا الموقع الشهير، صرنا نعرف عن سكانه وممارساتهم فيه أكثر مما كنا نعلم في العام 1996. فضلاً عن ذلك، إن عملية إعادة بناء نمط حياة عائلة إنكية وعائلة من مجموعة مفتوحة (الفصل 6) جيء بهما إلى ماتشو بيتشو، لنقل القارئ إلى صخور تلك المنطقة ومبانيها ليعيش في مساكن أولئك الناس القدماء.

وبالنظر إلى تنظيم الكتاب، يصف المدخل مصادر المعلومات الأساس عن الإنكيين، مبيناً كيف أن القصور الذي يعتور بعض هذه المعلومات يؤثر في ما يعرف عنهم. ويوفر المدخل أيضاً نظرة عامة عن الإنكيين وإمبراطوريتهم، وطبيعة حضارتهم، وكيف تطورت هذه الإمبراطورية، ومَنْ هم أبرز شخصياتهم. بالإضافة إلى ذلك، يورد المدخل ثبتاً حولياً بتاريخ الإنكيين. والجديد في هذا الكتاب أيضاً وجود نقاش للمصادر الأولية في مقابل المصادر الثانوية والمحاججات الحديثة في ما إذا كان التأريخ الصارم المقدّم في ترتيب حولي أمراً دقيقاً أم كان ينبغي توسيعه.

يقدِّم الفصل الأول المنطقة بالنحو الذي كانت عليه في عهد إمبراطورية الإنكا. إذ يصف القسم الأول منه جغرافية الإمبراطورية، مستعرضاً نطاق الظروف البيئية فيها. ويناقش القسم الثاني التطورات الثقافية السابقة على الإنكيين. وتضع هذه المعلومات الإنكيين في منظور تاريخي يوضح كيف أنهم كانوا في الوقت عينه يتوافرون على ثقافة مشابهة ومتفردة عما سبقتهم من ثقافات. ويُجدي هذا الفصل في فهم الأسس الثقافية التي نهض عليها تطور الإنكيين. وما يجعل هذا الفصل أكثر راهنية هو المعلومات الحديثة التي أتت بها الاستكشافات الأركيولوجية التي تحققت منذ نشر النسخة الأولى من الكتاب.

ويفحص الفصل الثاني التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، في إمبراطورية الإنكا، وكذلك إنجازاتها التقنية التي يذيع صيتهم بها. ويوفر الفصل الثالث معلومات شخصية أكثر تفصيلاً عن حياة الأفراد اليومية فيها. إذ يقدم التمايز هنا بين حياة الإنكيين الخاصة وحياة تابعيهم تناقضاً ملفتاً. كما أضيفت معلومات جديدة من أبحاث حديثة طوّرت هذه الفصول وحدّثتها.

وقد دُمِجَ الفصلان الرابع والخامس في هذه النسخة لأن الدين والعلم والتقويم كلها شؤون متضافرة في ما بينها بنحو يتعذر فكّه في الثقافة الإنكية. وبداع من أن الدين يتغلغل في حياة الإنكيين اليومية بنحو كبير، فإن النقاش فيه يعالج بتفصيل موسّع كيف ترابطت هذه المظاهر الثلاثة مع بعضها البعض.

الفصل الخامس فصل جديد عن ماتشو بيتشو، التي نوقشت في فصل سابق. أما الفصل السادس فيعرض لعملية البناء التي أجراها المؤلف ليوم من حياة عائلة إنكية وعائلة من خَدَمِهم من إحدى المجموعات التي غزوها، من الذين عاشوا في ماتشو بيتشو. وعملية البناء هذه محاولة لإعطاء حس بما يحتمل أن تكون عليه الحياة اليومية في إمبراطورية الإنكا. بالطبع، ما بوسع أحد أبداً أن يعرف كيف كانت مشاعر أناسِ الأزمان الماضية، إلا أن اشتراك الناس بأحاسيس عامة، من قبيل الحب للعائلة والوطن، يمكّن المرء من تصوّر سلوك الأفراد في الظروف التي يعيشون فيها. فالأنشطة المتنوعة والأفكار المقدّمة في عمليتي البناء هاتين تصوّر، وبسردية كبيرة، المعلومات المعروضة في فصول سابقة. ففي الدروس التي ألقيها، أجد أن الطلاب يستمتعون بالحديث عما كان يشعر به فعلاً ناس الأزمان السالفة، وعليه فإن هذا الفصل يوفر لكل من المعلمين الذين يستخدمون هذا الكتاب والقارئ العام، الفرصة في أن يقرروا تقريراً نقدياً ما إذا كانت عملية بناء يوم من الحياة اليومية تبدو معقولة.

ويقوم الفصل السابع بمسح لإسهامات الإنكيين في مجتمع الأنديز المعاصر وبقية العالم. وهنا يبدأ النقاش بالفتح الإسباني للإمبراطورية، ويتواصل مروراً بالعهد الكولونيالي لتبيان كيف أن مجتمع الأنديز الحديث نتاج يجد جذوره في حقب تسبق مجيء الإسبان والتأثيرات الأوروبية. وسيرى القارئ أن بعضاً من طريقة حياة الإنكا لا زالت موجودة حتى يومنا هذا في الريف الأنديزي، وكذلك كيف تغيرت. وقد أضيفت تعليقات في هذه النسخة عن كيفية ازدياد نسبة التغير التي طرأت على مجتمعات الأنديز منذ صدور النسخة الأولى.

ويتعرض الفصل الثامن للأزمة الحالية المتمثلة بتخريب مواقع أركيولوجية في مناطق من العالم. إذ أن غالبية ما هو معروف عن الإنكيين ـ وكل ما هو معروف عن غالبية الثقافات التي سبقتهم ـ قد عُرفَت من خلال الأركيولوجيا. ويقدم هذا الفصل مقترحات

عن كيفية تخطي هذه الأزمة وما يمكن للأفراد أن يفعلوه للمساعدة في تجاوزها.

أما التغير الأخير الذي شهدته هذه الطبعة فهو اختصار عدد الرسوم التوضيحية. وقد أُجري ذلك بغاية الحفاظ على الخصيصة الرفيعة للمعلومة المكتوبة المقدّمة، فيما أبقي على تلك التخطيطات التي تعكس المضمون فعلاً أو توفر أمثلة يتعذر وصفها بسهولة.

ومن أجل تيسير المهمة على القارئ، تضمن الكتاب مسرداً بتعابير إنكية ومصطلحات أركيولوجية، جاء قبل البيبليوغرافيا والفهرس. وتتضمن البيبليوغرافيا قائمة مصادر موجودة على الإنترنت، وأخرى غير مطبوعة («مركز المصادر»)، التي قد تعين القارئ على العثور على معلومات إضافية، بخاصة البصرية منها، عن الإنكيين وثقافات أخرى. وأُخذ بالحسبان أن مواقع إنترنت عدة تظهر وتزول، لذا فإن المواقع المذكورة هنا عند وقت صدور الكتاب قد تُزال لاحقاً. على أن المواقع المختارة تحتوي على معلومات جيدة و(نأمل) أنها ستصمد أمام اختبار الزمن.

تنحو الدراسات الإنكية اليوم، عند كتابة مصطلحات الإنكا، إلى استخدام صيغ الكيتشوا Quechua التقليدية (والكيتشوا لغة الإنكيين والكثير من البيروفيين حالياً) بدلاً عن الصيغ التي صارت إسبانية. على سبيل المثال، عند استخدام صيغ الكيتشوا، تكتب كلمة إنكا *Inca* بشكل *Inka*، وكلمة كيبو *quipu* تصير *khipu*. ويمكن ملاحظة هذه المقارنة في قائمة الملوك المذكورين على وفق التسلسل التاريخي. إلاّ أنه بداع من إمكانية تعرّف القارئ العادي إلى الصيغ الإسبانية، فقد عُمل بها في بقية الكتاب.

وبنحو مماثل، هناك ميل جديد في الأدبيات الأركيولوجية لاستبدال اصطلاحات B.C.E (قبل العصر المسيحي) بـ B.C (قبل المسيح) وC.E (العصر المسيحي) بـ A.D (بعد الميلاد *Anno Domini*، «في عصر سيدنا»). والمسوغ الرئيس لهذا المنحى هو تخفيف الارتباط بالمنظومة الاصطلاحية المسيحية. وبداع من الاعتياد الواسع على استخدام ق.م/ ب. م، فقد اعتمد هذان الاصطلاحان هنا.

بقي لنا القول إن الكتب نتاجات تعاون بين أفراد، ولا يختلف هذا الكتاب عنها. فمع أن المؤلف وضع هذا النص المكتوب، بيد أن آخرين عديدين شاركوا فيه بمناح مختلفة. ففضلاً عن أولئك الذين وفروا التخطيطات، قدّم بريان بوير، وهو مرجع في مجال دراسة الإنكا عموماً وبأركيولوجيا منطقة كوزكو Cuzco بخاصة، إيضاحاً نافعاً في ما

يتعلق بمظاهر الإنكا الاجتماعية وتنظيمها السياسي في النسخة الأولى من هذا الكتاب، وتضمنتها هذه النسخة. لذا فإن أي تفكير مشوّش يتحمله المؤلف بأكمله. ووضع مارك هاين الخرائط، ووفّر فريد ايستابروك صوراً رائعة عن التخطيطات كلها. وحصل المؤلف على منحة بحثية صيفية من جامعة ايثاكا التي أتاحت الوقت المطلوب والدعم المالي لإتمام مخطوط الكتاب في صيف 2008. كما ساهمت ماريا غمبيرت وفريق العمل الكفء في مجموعة غرينوود للنشر، وكذلك فريق العمل في إبيكس كوفانتاج، في إنجاز هذا الكتاب، وكانوا كلهم متفهمين لبطء المؤلف والمشكلات التي واجهها في أثناء رحلته. وقد حفّزت عين ماريا الناقدة على إجراء تعديلات نافعة على مسوّدة نسخة هذا العمل الأولى، ما أعان على تحسين هذه النسخة الثانية بنحو كبير. وكانت ماريا تبعث أيضاً، على مدى وقت العمل في الكتاب، بكل ما تجده من معلومات مفيدة، أُدمجت في هذا الكتاب، عن الإنكيين.

مسرد تاريخي لإمبراطورية الإنكا

تقتصر المعرفة بتاريخ الإنكيين على ما يتناقله التراث الشفاهي، ومردُّ ذلك إلى غياب سجلات تاريخية لديهم. ولهذا السبب، من العسير تقويم حقيقة الحكايات التاريخية التي وصلت إلى الإسبان من طريق الإنكيين أنفسهم. علاوة على هذا، كثيراً ما تتعارض روايات إسبانية عدة عن تاريخ الإنكيين مع بعضها بعضاً في نقاط معينة. وسيطرح هذا الأمر للنقاش بتفصيل أوسع في مقدمة هذا الكتاب،ومن المشكوك فيه ومعرفة المدى الذي أحسن فيه الإسبان فهم تصورات الإنكيين عن الزمن والتاريخ. مع ذلك، هناك مَسرد يضم 13 ملكاً أجمعت عليهم عموماً جُلّ المصادر الإسبانية المذكورة. ونورد في ما يأتي مسرداً بملوكهم، صِيغَ على أساس تعاقبهم على الحكم، إلى جانب كتابة أسمائهم بلغة الكيتشوا، المستخدمة غالباً في نصوص حديثة (كما في دالتروي، مثلاً D'Altroy 2002).

1. مانكو كاباك Manqo Qhapaq (Manco Capac)
2. ذنتشي روكا Zinchi Roc'a (Sinchi Roca)
3. لوك يوبانكي Lloq'e Yupanki (Lioque Yupanqui)
4. مايتا كاباك Mayta Qhapaq (Mayta Capac)
5. كاباك يوبانكي Qhapaq Yupanki (Capac Yupanqui)
6. إنكا روكا Inka Roq'a(Inca Roca)
7. ياوار واكاك Yawar Waqaq(Yahuar Huacac)
8. فيراكوتشا إنكا Viraqocha Inka(Viracocha Inca)
9. باتشاكوتي إنكا يوبانكي Pachakuti Inka Yupanki (Pachacuti Inca Yupanqui)
10. توبا إنكا يوبانكي Thupa Inka Yupanki (Topa Inca Yupanqui)
11. وينا كوباك Wayna Qhapaq (Huayna Capac)
12–13. واسكار (Waskhar) وأتاولبا (Atawallpa) أعقبا كلاهما وينا كاباك، وكلاهما ادّعيا المُلك. وهزم أتاولبا واسكار في حرب أهلية، لكنه لم يضف شيئاً إلى الإمبراطورية أبداً بسبب من أسره بيد الإسبان. وسيناقش هذا الأمر في المسرد التاريخي.

ويبقى طول عهود حكم أولئك الملوك غير مثبت، حتى في ما يخص الأربعة الأخيرين، على قرب زمانهم تاريخياً. فالحقيقة أن من غير الواضح ما إذا كان الملوك الأوائل حقيقيين، أم أنهم أسطوريون. ويناقش المدخل هذه المسألة بشيء من التفصيل.

وقد أكدت الأركيولوجيا أن بالإمكان التثبت من الإنكيين بأدواتهم التي يستخدمونها (أي شيء يصنعه البشر أو يحوّرونه) كما في وقت مبكر من العام 1200 ب. م بجوار كوزكو. ومن المحتمل أن يكون الملوك الأوائل، هذا إن وجدوا حقاً وفعلاً، زعماء محليّين قصروا أنشطتهم العسكرية على المنطقة المحيطة بكوزكو، ابتداء من حوالي العام 1200 ب. م. وابتدأ أول توسع للإنكيين خارج موطنهم في وقت معين من العام 1438 ب.م تقريباً. وفي ما يأتي الترتيب الزمني التقليدي لأكبر الأحداث التي أسهمت في تنامي إمبراطورية الإنكا.

في وقت مبكر من العام 1200	يهزم الإنكيون المقيمون حول كوزكو الجماعات المجاورة لهم أو يتحالفون معها، ويضمون بعضاً منها إلى مجتمعهم.
في العام 1400	يتحالف الإنكيون مع لوباكا **Lupaca**، المجتمع القوي الذي يعيش على مقربة من بحيرة تيتيكاكا.
قبل العام 1438	تهاجم قبيلة تشانكا **Chanka** الإنكيين من الشمال. ويفر من كوزكو ثامن ملوكها، فيراكوتشا إنكا، ومعه ابنه الذي اختاره لوراثته، إنكا أوركون. بعدها يقود ابن آخر له، هو إنكا يوبانكي، الإنكيين إلى النصر على تشانكا. ويتخذ له لقباً إضافياً هو باتشاكوتي، وينازع إنكا أوركون على المُلك.
قبل الأعوام 1438–1463	يغزو الإنكيون منطقة المرتفعات الواقعة بين بحيرة تيتيكاكا في الجنوب وبحيرة خونين في الشمال في عهد الملك باتشاكوتي إنكا يوبانكي.

قبل العام 1463	باتشاكوتي يبقى ملكاً لكنه يسلم السيطرة على الجيوش إلى ابنه ووريثه الذي اختاره توبا إنكا. ويوسّع الأخير الإمبراطورية إلى الشمال، حتى المنطقة التي تعرف اليوم باسم كيتو **Quitto**، في الإكوادور، ومن بينها المناطق الساحلية كلها والمرتفعات الواقعة في شمال بيرو ووسطها. وينسحب باتشاكوتي إلى كوزكو لينظم إمبراطوريته.
قبل العام 1471	يصبح توبا إنكا ملكاً بعد موت أبيه. وعلى مدى السنوات 22 اللاحقة، يوسع من حدود مملكته الجنوبية إلى جنوب شيلي ووسطها، ومن بينها مناطق واسعة من المرتفعات التي تقع اليوم ضمن حدود بوليفيا وشمال غرب الأرجنتين. ويغزو أيضاً جنوب ساحل بيرو.
قبل العام 1493	وينا كاباك يصبح ملكاً، وبين العام 1493 والعام 1525 ب. م، يكمل توسيع الإمبراطورية إلى التخوم التي تظهر على الخريطة الواردة في هذا الكتاب. ويدفع بالحدود الشمالية، بخاصة، إلى الحدود الكولومبية الإكوادورية الحالية ويلحق منطقة غابات شرق بيرو بالقرب من كاخاماركا.
قبل 1527	يموت وينا كاباك فجأة، ويتنازع على المملكة خصمان من بعده، هما واسكار وأتاوالبا، فتندلع حرب أهلية تدوم خمسة أعوام.
في العام 1532	جيوش أتاوالبا تهزم جيوش واسكار، فيصير الأول ملكاً مطلقاً. ويصل الإسبان إلى ساحل بيرو الشمالي ويأسرون أتاوالبا في كاخاماركا.

ويطلبون فدية عنه، ثم يقتلونه. وينصبون محله ملكاً يجعلونه ألعوبة بأيديهم.

في العام 1537 إخماد التمرد الأخطر على الإسبان، بقيادة مانكو إنكا، فتنتهي بذلك أخطر مقاومة ضد السيطرة الإسبانية.

مدخل

مَنْ كان الإنكيون؟ ما الذي مكنهم من بناء تلك الإمبراطورية الشاسعة التي كانت قائمة في القرن السادس عشر عندما وصل الأوروبيون إلى أمريكا الجنوبية؟ أية إمبراطورية كانت؟ ما الذي يميز إمبراطورية الإنكا عن الثقافات الأخرى والحضارات؟ تقع هذه الأسئلة تحت بؤرة الفصل الحالي. لكن أين عثرنا على الإجابات عن هذه الأسئلة؟ إن نقاشاً لمراجع المعلومات الأساس عن ذلك سوف يبين كيف أن معرفتنا بشأن الإنكيين معرفة محدودة، وكيف لهذا أن يؤدي بنا إلى ظنون عن مظاهر حياتهم وإمبراطوريتهم.

مصادر المعلومات

هناك مصدران أساسيان يتيحان لنا إعادة بناء طريقة حياة الإنكيين: الوثائق التاريخية والأركيولوجيا. وكلاهما يوفران أنواع معلومات متمايزة. إلا أن كليهما ينطويان على عيوب كثيرة، لذا ينبغي تقويم المعلومات التي يوفرانهما بحذر. وثمة مصدر ثالث للمعلومات يتمثل بشعب الأنديز المعاصر. ففي بعض الحالات، يظهر أنهم يمارسون طريقة عيش ليست ببعيدة عن تلك التي مارسها أسلافهم الإنكيون، وغيرهم من الأقوام التي سبقتهم.

الوثائق التاريخية

لا يتوافر الإنكيون على نظام كتابي خاص بهم. لذا، فإن المعلومات التاريخية المتاحة للباحثين عن الإنكيين جاءت من الإسبان الأوائل الذين كتبوا وثائق عنهم. وتتضمن تلك الوثائق روايات عن الفتح الإسباني للإنكيين نقلها جنود من الجيش الإسباني، ومدونات وضعها مسؤولون إسبان سعوا لتنظيم الشعب المفتوح لأغراض جباية الضرائب منه، كمدونات الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والوثائق القضائية التي تتعلق بدعاوى محاكم قدمها أفراد إنكيون خلال العهد الاستعماري، ورسائل من كتاب إسبان، ومن أهل البلد

الأصليين مثل ثيذا دي ليون Cieza de León[1] وغوامان بوما Guaman Poma[2]. وبعض تلك المدونات لا تقدر بثمن لأنها توفّر معلومات مباشرة عن إمبراطورية الإنكا كما رآها كتّاب إسبان. وبعضها الآخر مهم لأنه كتب بيد إنكيين أو أبنائهم الذين خلفوهم مباشرة، وبهذا أورثوا وجهة النظر الإنكية الحالية. زد على ذلك، توفر المدونات التاريخية معلومات ثرية عن كيف عاش الإنكيون فعلاً، وكيف انتظمت إمبراطوريتهم.

أما من حيث مصادر المعلومات المكتوبة، فبالإمكان التمييز بين مصادر أولية ومصادر ثانوية. فالمصادر الأولية روايات مباشرة عن الإنكيين من قبيل مدونة الفتح ومعاينات أوائل الحكام الإسبان، ورجال الدين، وآخرين غيرهم. ولعل أشهر المصادر الأولية عن الإنكيين هو كتاب «أخبار بيرو» لثيزا دي ليون، الذي نُشر أولاً بين العامين 1551 و1553 (ثيزا دي ليون 1967، 1984، 1987). وقد قضى ثيزا ثلاث سنوات متنقلاً في أصقاع الإمبراطورية السابقة واصفا ما يراه فيها، يسأل أهل المنطقة الأصليين عن حياتهم، ويلتقي بمَنْ بقي من الإنكيين بعد الفتح.

وأما المصادر الثانوية فقد استقت معلوماتها من الأولية، وجمعت المعلومات وصنفتها من وثائق مختلفة أخرى. فمنها ما وضعه كُتّاب إسبان متقدمون استخدموا أعمال كُتّاب آخرين متقدمين عليهم. والمثال عن ذلك كتاب الأب برنابه كوبو Bernabé Cobo «دين الإنكيين وأعرافهم»، الذي نشرت نسخته الإنكليزية في العام 1990. وكان كوبو قسّا إسبانيا جاء إلى بيرو في العام 1599. وكتابه هذا جزء من عمل أكبر بكثير يحمل عنوان *Historia del Neuvo Mundo* (تاريخ العالم الجديد)، نُشر في إسبانيا في العام 1653. وباب الديانة فيه من أفضل المصادر عن ديانة الإنكا لأنه يستخدم مصادر متقدّمة مفقودة. والتفاصيل فيه فريدة من نوعها، فهي تعطي وقائع عدة عن ديانة الإنكا لا سيما تلك التي

---

(1) بيدرو ثيزا دي ليون Pedro Cieza de León (ليرينا، إسبانيا قبل العام 1520– إشبيلية، إسبانيا 1554) جندي وإخباري إسباني من بيرو. يشتهر بخاصة بكتابه عن تاريخ بيرو ووصفها «أخبار بيرو Crónicas del Perú». وقد وضع كتابه هذا في أربعة أجزاء، لم ينشر منها في حياته سوى الأول منها، أما الأجزاء المتبقية فلم تحظ بالنشر إلا في القرنين 19 و20 (م).

(2) فيليب غوامان بوما دي أيالا Felipe Guaman Poma de Ayala (قبل 1535– بعد 1616)، ويعرف أيضاً بـ «غواما بوما» أو «اوامان بوما Huaman Poma»، بيروفي الأصل، صُدِمَ بالمعاملة التي لقيتها شعوب الأنديز من جانب الإسبان بعد الفتح. ويشتهر غواما بوما اليوم بتاريخه المصوَّر «اوائل الأخبار الجديدة والحكم الرشيد El Primer Nueva Corónica y Buen Gobierno» (م).

لم يلحظها غيره من الكتّاب. وهناك رواية أخرى مختلفة النمط مصدرها كتاب فيليب غوامان بوما دي إيالا «أولى الأخبار الجديدة والحكم الرشيد». فقد كان هذا الكتاب في حقيقته رسالة وضعها في 1100 صفحة وجهها إلى ملك إسبانيا بين العامين 1584 و1651، يحتج فيها على المعاملة التي يلاقيها أهل الأنديز على يد الإسبان. ويعود أصل غوامان بوما إلى مدينة أوانوكو Huánuco[1] الواقعة في المرتفعات الشمالية، وهو ابن لأم إنكية وأب إسباني. وبما انه لم يعش قبل العهد الإسباني، فقد استند إلى روايات ذكرها له أفراد من عائلته. لذا لم يقدم تفاصيل فريدة عن حياة الإنكيين وحسب، بل ضمنها 398 رسماً تخطيطياً يوضح بها معلوماته تلك. وقد أُقتبست غالبية الرسوم التوضيحية المستخدمة في هذا الكتاب من مؤلّف بوما ذاك.

ثمة لون آخر من المصادر الثانوية يأتي به باحثون حديثون درسوا العديد من الوثائق الإسبانية عن الإنكيين. وأبرز مثال على تلك هو كتاب جون هـ. رَوْ «ثقافة الإنكا في عهد الفتح الإسباني»، المنشور في العام 1946. فهذه الدراسة الكلاسيكية، وهي وصف شامل للإنكيين، تفيد من مصادر إسبانية مبكرة عديدة (وهي جميعها بالإسبانية)، ومن بينها كوبو. ولا يوفر رَوْ رواية بارعة وحسب، بل يعرض بوضوح للعوائق التي تطرحها مصادره ومواطن الالتباسات فيها. وتبقى هذه الدراسة هي الأفضل في ما يخص مظاهر ثقافة الإنكا العديدة. على أن الكثير من المعلومات الجديدة قد أُتيحت حدَّ أنها تدعو إلى تعديل أو تغيير ما كان معروفاً في العام 1946. هذا فضلاً عن أن مؤلفات حديثة عن الإنكيين، مثل كتاب دالتروي (2002) «الإنكيون»، قد أضافت لمعرفتنا عنهم.

تنطوي كل من المصادر الأولية والثانوية على معوقات معينة، لذا فلا فضل بالضرورة لإحداها على الأخرى (مالباس Malpass 1993a: 6—7). فأولاً، كان الكتّاب الإسبان يصفون الأنشطة والمؤسسات الإنكية، التي كانت مختلفة جداً عما لديهم، من خلال أنشطتهم هم، وغالباً ما كانوا يصفون الثقافة الإنكية بتعابير مجتمعهم الإسباني. وما التمعن في مَسرد الملوك الذي وضعه إنكيون إلاّ مثال يوضح هذا الأمر. إذ تشير مصادر إسبانية إلى 13 ملكاً، كما وردوا في التسلسل التاريخي، حكموا بالتعاقب. وقد حصل الإسبان

(1) مدينة في وسط بيرو، وهي عاصمة منطقة وانوكو ومقاطعة وانوكو حالياً. وقد أسس مدينة وانوكو الفاتح الإسباني غوميث دي الفارادو في العام 1539، بمدينة ياروبلكا الإنكية (م).

على أسمائهم من رواة إنكيين. بيد أن إحدى المدارس الفكرية في دراسات الإنكا تذهب إلى أن تلك الأسماء لم تكن لأشخاص حقيقيين، إنما هي بالأحرى ألقاب حملها أشخاص مختلفون (زويدما 1983Zuidema). عليه، لربما كان عدد الملوك الفعليين أدنى مما ذكروا، ولعل العديد من الألقاب قد حملها أشخاص معينون في وقت واحد. كما عمد كتاب إسبان متقدمون، وهم الذين لم يألفوا نظاماً كهذا، ببساطة إلى ترجمة هذا النظام إلى شيء «كانوا يألفونه» هم، ألا وهو نظام تعاقب الملوك. وبالنظر إلى أن إمبراطورية الإنكا قد شهدت توسعاً خلال عهود آخر ملوكها، أو نتيجة أفعال أشخاص شغلوا تلك المناصب، فإن هذه المسألة ليست ذات شأن في فهم الإنكيين. لكن هذا المثال يبين أن التحيز وعدم الدقة ربما دخلا بلا قصد على الأخبار المبكرة التي وضعها كتاب إسبان عن الإنكيين. زد على ذلك، أن الكتّاب المتقدمين غالباً ما كانوا ينسخون المعلومات عن بعضهم بعضاً ـ لذا فقد كان مرجحاً أن تمر معلومات خاطئة على من تلاهم من الباحثين فيقبلونها على أنها حقيقة (رَوْ 1946 Rowe: 193).

ثانياً، كان أحياناً لدى كتاب إسبان وإنكيون على حد سواء دواعٍ ليتعمدوا التدليس. فمثلاً كان بمقدور شخص من السكان الأصليين، في مسعى منه لاستعادة مقامه في عيون الإسبان، القول إنه كان في السابق أكثر أهمية في الإمبراطورية الإنكية مما عليه الآن، مثلما كان المسؤولون الإسبان يكذبون أحياناً عندما يجدون أن هذا يخدم أغراضهم. فمثلاً، ربما تعمد أحد الإسبان عدم الإبلاغ عن إنتاجية منطقة معينة تقع تحت سلطته بغاية أن يتمكن من بيع منتجات إضافية وأخذ أموالها لنفسه، بدلاً عن تسليمها إلى التاج البريطاني.

ثالثاً، ينبغي الالتفات إلى أن مصادر معلومات الإسبان الرئيسة تمثلت بالإنكيين أنفسهم، وهؤلاء غالباً ما كانوا من أفراد طبقة الإنكيين الحاكمة. لذا فإن ما دوّن كان وجهات نظر إنكيين عن تاريخهم هم وإمبراطوريتهم. من هنا تسأل بعض المراجع الحديثة عما إذا حدثت وقائع تاريخ الإنكيين بالنحو الذي ذكروه (بوير 1992Bauer ؛ أورتن 1990Urton ؛ زويدما 1982؛ 1990Zuidema). كما كان ممكناً أن يتأثر كاتب إسباني بعصبية الطبقة الحاكمة التي ينتمي إليها رواته. فقد أقام خوان دي بيتانذوث Juan de

Betanzos[1] الكثير من القسم الأول من مؤلَّفه «قصة الإنكيين» على ما أخبره أقارب زوجته، وهم كلهم ينتمون إلى جماعة الملك باتشاكوتي (دالتروي D'Altroy 2002: 11–12). وعليه ليس مستغرباً أن تشير روايته إلى أن أكثر انتصارات الإنكيين الكبيرة قد تحققت على يد ذلك الملك، فيما ترى مصادر أخرى أن بعض انتصاراته ربما حققها ملك آخر غيره. من هنا يصعب نبش الحقيقة في وثائق إنكية وإسبانية. وعلى الرغم من أن بعض تاريخ بعض ملوكهم يعد قطعاً أسطورة أكثر منه حقيقة ـ إذ يقال إنهم نشأوا في كهوف فبالإمكان إعادة بناء رواية عامة عن تاريخ آخر أربعة ملوك إنكيين للحصول على نظرة متزنة حول ما حدث فعلاً. وسيجد القارئ مثل إعادة بناء الرواية هذه، في القسم الآتي من هذا الكتاب.

ثمة مشكلة رابعة تتصل بطبيعة الفتوحات الإنكية وكيفية ضبط الروايات المنقولة عن تلك الفتوحات ـ سواء رواها إسبان أم إنكيون استند الإسبان إليهم. فلا شك في أن في صالح الإنكيين أن يظنوا أنفسهم عادلين وأبطالاً لا يضارعون. إلاّ أنه بداع من الافتقار إلى روايات من الشعوب التي فتحها الإنكيون عن تفاعلات الأخيرين معهم، فلا يُعلم مدى الحقيقة في ما روته الطبقة الحاكمة عن الفتح الإنكي وتأثيره في الشعب الذي فتحوه.

وأخيراً، هناك نوع من الغموض يكتنف التدوين التاريخي في ما يتصل بالأماكن والأسماء. فالعديد من الكتّاب الإسبان أوردوا ثبتاً بالأماكن التي زاروها في الإمبراطورية، ومنها مقاطعات ومدن. بيد أن كتّاباً آخرين مشوا على خطى سابقيهم في الدروب نفسها أحياناً ورووا ثبتاً مختلفاً عن تلك الأماكن. فضلاً عن هذا، يصعب التثبت بدقة من مواقع مدن ونقاط مرجعية جغرافية أخرى بسبب من اتساع تنقلات الناس في مناطق مختلفة

(1) كتب خوان دي بيتانزوت أحد أكثر المصادر أهمية عن فتح الحضارة الإنكية، «قصة الإنكيين». وأقام روايته عن الإنكيين على شهادة زوجته، التي كانت متزوجة قبله بالملك الإنكي أتاوالبا Atahualpa، كما أجرى مقابلات مع إنكيين شاركوا في «معركة كاخاماركا» أو كانوا في معسكر أتاوالبا. ويرى بعض المهتمين أن «قصة الإنكيين» يعد كتاباً فريداً من نوعه لأنه جاء من منظور أنديزي. إذ بسبب غياب مصادر إنكية مدونة، يرى مهتمون أن هذا الكتاب هو الوحيد نسبياً الذي يوفر لنا نظرة على الحضارة الإنكية قبل الفتح، وتوسع مملكة كوزكو على يد يوبانكي، والسياسات الإمبراطورية الضخمة التي انتهجها واينا كاباك. هذا ويعطي أيضاً نظرة على الحرب الأهلية بين واسكار واتاوالبا قبيل مجيء فرانشيسكو بيذارو (فاتح إمبراطورية الإنكا ومؤسس ليما، عاصمة بيرو الحالية). ومن أبرز المآخذ على الكتاب أنه قام على وجهة نظر زوجة أتاوالبا السابقة، التي تعدُّ مصدراً متحاملاً على واسكار(م).

على مدى القرون الخمسة الماضية. وهذه المشكلات تصعّب على باحثين حديثين التحقق من المعلومات الواردة في المدونات التاريخية.

لهذه الأسباب كلها، يتوجب تقويم المدونة التاريخية تقويماً حذراً من أجل تحديد ما إذا كانت صحيحة، والتحقق من مواقع الأحداث الماضية. وإحدى المقاربات في التعامل مع هذا تتمثل في مقابلة المعلومات المستقاة من عدد من المؤلفين. ومقاربة أخرى تتمثل في إجراء بحث أركيولوجي. وهناك كتاب حديثون، مثل رَوْ ودالتروي اللذين ذكرناهما في ما سبق، يحاولون تقييم صحة مصادر تاريخية من خلال إجراء تحليل دقيق، واستعانة بالبحث الأركيولوجي. وبغض النظر عن المشكلات التي تطرحها الوثائق التاريخية، إلاّ أنها توفر ثروة من المعلومات الاستثنائية عن الإنكيين.

الأركيولوجيا

مصدر المعلومات الرئيس الثاني عن الإنكيين هو الأركيولوجيا، التي هي جملة من التقنيات والإجراءات الرامية إلى إعادة بناء ثقافات ماضية استناداً إلى ما بقي منها. ويستخرج الأركيولوجيون بعناية أدوات مجتمعات ماضية وبقايا أغذيتهم وبيوتهم، ومظاهر أخرى تخصهم، ثم يستخدمون أنماط تحليل عدة لتقويم تلك البقايا وتفسيرها. وتختلف هذه المعلومات اختلافاً أساسياً عن نمط تلك المعلومات التي تأتي بها الوثائق التاريخية، بسبب توفيرها تفاصيل عن استعمالات مواقع مختلفة، وأدواتها، والناس الذين استعملوها، وكيف قامت مدنهم، وأين كان أهل تلك المدن يمارسون انشطتهم المتنوعة.

إلاّ أن للأركيولوجيا مشكلاتها أيضاً. فأولاً، لا تخلّف أنشطة المجتمع كلها أشياءً يمكن اكتشافها في ما بعد. فمثلاً، الأديان واللغات وأشكال الزفاف، لا تترك وراءها بالضرورة أية بقايا. وثانياً، إن «ما» يبقى من أشياء الأنشطة الاجتماعية أو هياكلها، تجنح الطبيعة إلى تدمير الكثير من موادها التي لا تتحمل طول البقاء في مرور الزمن. إذ يندر العثور على أشياء من خشب، أو من عظام، أو من قماش، أو أنسجة حيوانية، لأنها تتفسخ (وفي حالة بيرو وشيلي، يحفظ الساحل الجاف حالياً العديد من تلك الأشياء، الأمر الذي يتيح للأركيولوجيين استعادتها بنحو أكثر بكثير مما في مناطق أخرى من العالم. وعلى النقيض من ذلك، تدمر عمليات الطبيعة كثيراً من الأشياء في الهضاب الرطبة.) ثالثاً،

يدمر البشر أنفسهم بقايا ثقافات ماضية، عمداً فعلوا ذلك أم عَرَضاً. لذا يركز الفصل الأخير من الكتاب على هذه المشكلة.

على أن مناقشة سبل عمل الأركيولوجيين وتفسير بياناتهم أمر يقع وراء نطاق هذا الكتاب. وهناك كتب تعليمية ممتازة عدة تختص بالتقنيات الأركيولوجية توفر مثل تلك المعلومات.

إيجازاً، إن استعمال كل من المدونات التاريخية والأركيولوجيا يمكننا من أن نحظى بتشكيل صورة تامة عن الإنكيين أكثر مما يوفرها لنا مصدر واحد منفرد منهما. فبوسع الأركيولوجيا أن تتحقق من الروايات التاريخية وتغنيها، وبإمكان الوثائق توفير معلومات لا تُرى في السجل الأركيولوجي. إليك مثال عن هذا: تشير مدونات تاريخية إلى أن مجموعة معينة من سكان أنداماركا Andamarca، وهي منطقة تقع وسط بيرو، خدموا كأناس رسميين يحملون ملك الإنكا في محفَّة وهذه هي الخدمة الوحيدة التي كانوا يقدمونها إلى الإمبراطورية. لكن لعل الأركيولوجيين لن يتمكنوا البتة من الحفر للتثبّت من هذه المعلومة، أو تأكيد طبيعة عمل الأنداماركانيين بوصفهم حَمَلة محفّة الملك، إلاّ أن البحث الأركيولوجي قد أشار إلى أن الأنداماراكانيين كانوا ينتجون أغذية إلى الإمبراطورية، وهي حقيقة لم تَرد في الوثائق التاريخية (شرايبر Schreiber 1993).

لا يتوافر من الوثائق التاريخية عن الناس الذين عاشوا قبل الإنكيين، للأسف، سوى القليل. لذلك، فإن كل معلوماتنا عن ثقافات مبكرة لابد من أن نستقيها من الأركيولوجيا. بيد أن بالدراسة المتأنية وتفسير ما تكشف عنه الأركيولوجيا، نستدل على الكثير من وجود تلك المجتمعات.

شعب الأنديز اليوم

ومصدر أخير للمعلومات عن ماضي الإنكا هو دراسة شعب الأنديز اليوم. ففيما تزايدت نسبة التغير في العقود الأخيرة، يظهر أن مناطق نائية عدة لم يطلها من التغير إلاّ القليل منذ عهود الإنكا. فعلى سبيل المثال، لا زالت الزراعة التقليدية تستعمل الكثير من الأدوات نفسها التي كان الإنكيون يستعملونها، من قبيل الحراثة بالأقدام. وهكذا تفيد طرق الحياة التقليدية كنماذج للمقارنة بالمدونات التاريخية والأركيولوجية. مع ذلك،

ينبغي أن نضع في حسباننا حدوث تغير كثير منذ عهود الإنكا، لذا يتوجب أن تُعقَد المقارنات بحذر وعين نقدية متفحصة.

الإنكيون

يمكن توثيق الإنكيين أركيولوجياً كمجموعة اجتماعية متميِّزة منذ العام 1200 ب. م. ويتضح أنهم كانوا واحدة من مجموعات إثنية صغيرة كثيرة عاشت في المرتفعات الجنوبية في بيرو على مدى غالبية تاريخهم. وفي الحقيقة، وكما سيناقش هذا الأمر بتفصيل أوسع في الفصل الأول، لم يكونوا أكبر المجموعات السياسية أو أشدها قوة في منطقة الأنديز في جُلّ زمان وجودهم. وطبقاً لما يرى رَوْ (1946) وآخرون، ابتدأت فتوحاتهم للدول المجاورة لهم في حوالي العام 1438 ب. م.، كنتيجة لغزو أراضيهم على يد مجتمع منافس لهم. فكان هذا هو حافز الشروع في تطور إمبراطورية الإنكا، التي دامت باقية حتى فُتِحوا على أيدي الإسبان في العام 1532 ب. م.

بيد أنه، ينبغي الالتفات إلى أن هذا الرأي لا يحظى بالقبول العام، نتيجة ما أسفر عنه البحث الأركيولوجي في الجزء الجنوبي من إمبراطورية الإنكا. إذ يبدو أن تواريخ الكاربون المشع[1] لأدوات تعود للإنكيين في مواقع عدة، تسبق الزمن الذي يقول إخباريون إنه شهد اكتمال فتح المنطقة (دالتروي، وليامز، ولوراندي D'Altroy، Williams، and Lorandi 2007). وحتى مع عدم دقة تأريخ الكاربون المشع الدقة التي تضع الاحتلال الإنكي قبل ذلك التاريخ بنحو لا لبس فيه، فإن عدداً من المواقع ونطاق التواريخ العام تذهب إلى القول إن ضم هذه المنطقة حدث في وقت أسبق مما تقول به إعادة البناء التقليدية. غير أن تباين التواريخ ربما يتحدث عن حدوث غزو قبل 50 عاماً تقريباً من ذلك التاريخ، وهذا ما لا يقلل كثيراً السرعة التي بها فتح الإنكيون المنطقة. ومن شأن هذا الأمر أن يدعم التحوطات، التي ذُكرت في ما سبق، من مدى دقة الروايات الإسبانية، بخاصة أن الإنكيين لم يكونوا يعدون الزمن بوحدات السنوات، كما نفعل نحن.

لِمَ وسّع الإنكيون سلطتهم بالقدر الذي فعلوا؟ فقد كان بإمكانهم أيضاً أن يصدّوا

(1) Radiocarbon نظير الكاربون المشع، بخاصة كاربون ـ 14 المستخدم في عملية «تأريخ الكاربون،» أي العملية التي من خلالها يُعرف عمر الكائنات بعد موتها، وبهذه العملية عُرفت حقب سحيقة عاشت فيها حيوانات وأقوام (م).

الغزاة (إنْ وجدوا في الحقيقة) ويبقوا مجتمعاً صغيراً. أما السؤال عن كيفية بناء الإنكيين إمبراطوريتهم ودواعي ذلك، فهذا ما ستجري معالجته هنا.

يُعرَف القليل عن ملوك الإنكيين الثمانية الأوائل؛ فقد عاشوا في أزمان بعيدة حتى إن الروايات المتوافرة عن عهود حكمهم غير مثبتة سواء من جانب الإسبان أو من باحثين لاحقين. إذ يختلف الإخباريون إلى حد بعيد في ما حققه أوائل الملوك من صنائع وفتوح، إلاّ أن السجلات الأركيولوجية ترى أنهم كلهم كانوا حكاماً محليين، تقتصر سلطاتهم على المنطقة المحيطة بكوزكو (بوير 1992؛ بوير وكوفي Bauer 1992; Bauer and Covey 2002). وتفيد أسطورة أصل الإنكيين بأن مؤسسيهم جاءوا من مدينة تقع جنوب كوزكو تدعى باكاريكتامبو Pacariqtambo. فمن هناك، خرج أربعة إخوة وأربع أخوات من كهف. وكان أبرز الرجال الأربعة مانكو كاباك، وهو الذي صار أول ملك عليهم. وجاء الناس الآخرون من كهفين قريبين، فجمعهم الإنكيون الثمانية سوية وراحوا يبحثون عن مكان يقيمون فيه. ولما وصلوا إلى موقع كوزكو، طردوا الشعب الذي كان يعيش هناك وأسسوا عاصمتهم. وتحدّر الملوك اللاحقون من مانكو كاباك؛ وتحدر الإنكيون الآخرون من الناس الذين جُمعوا في باكاريكتامبو (تُناقش هذه الأسطورة بتفصيل أكبر في الفصل الرابع) وهناك روايات شفاهية دونها الإسبان عن صنائع آخر ثلاثة ملوك حكموا قبل أتاوالبا، الذين يبدو أنهم مسؤولون بنحو كبير عن توسع الإمبراطورية، مقبولة بوجه عام وتعدّ أكثر اتساقاً بشأن تطور الإمبراطورية (مع أنها لا تخلو من تناقضات!).

قد يكون الملوك الأوائل أشخاصاً حقيقيين، لكن مآثرهم ضُخّمت بغاية استقطاب الإعجاب ولكي تكون أكثر وقعاً. وبالحال نفسه، يحتمل أن يكون الملوك الأوائل أسطوريون، أُختِلقوا لتعليل أصل الإنكيين ولعل ذلك لتسويغ مقاماتهم كملوك (أورتون Urton 1990 : chap). ففي الأعوام 1300 وفي وقت مبكر من الأعوام 1400، اتسعت دائرة الصراع الحربي بين الجماعات الإثنية المتنافسة على الأنديز. وفي منتصف القرن الخامس عشر، تحالف الإنكيون، أو فتحوا العديد من المجتمعات المستقلة سابقاً، التي كانت تعيش متاخمة لهم. وهذا ما جعل منهم قوة سياسية يحسب لها حسابها.

مثّل مجتمعان قويان ـ اللوباكا Lupaca والكولا Colla ـ يعيشان إلى الجنوب من الإنكيين في المنطقة المحيطة ببحيرة تيتيكاكا Titicaca، تهديداً رئيساً للإنكيين، لذا كان كل منهما

يرغب بالفوز بالتحالف مع الإنكيين. وبعد معركة كبيرة، أوقع اللوباكا الهزيمة بالكولا، الذين عقدوا بعدها معاهدة مع الإنكيين، من أجل تأمين الحدود الجنوبية من أراضي الأخيرين.

على أية حال، هُزِم جيران الإنكيين الشماليون السابقون، الكيتشوا Quechua، على يد منافس آخر هم التشانكا Chanca، الذين أخذوا يخططون لمهاجمة الإنكيين. وانتظر التشانكا حتى يشيخ حاكم الإنكيين، فيراكوتشا إنكا Viracocha Inca، فهاجموا الإنكيين، فدفعوهم إلى العاصمة كوزكو. وهرب فيراكوتشا ووريثه المعيَّن، إنكا أوركون، من المدينة، ظناً منهما بعدم إمكانية إنقاذها. بيد أن آخرين، ومن بينهم ابن آخر من أبناء فيراكوتشا، هو إنكا يوبانكي، بقوا يدافعون عن المدينة. وتولى يوبانكي القيادة وأرسل طالباً المساعدة من حلفاء الإنكيين. ولمّا هاجم التشانكا المدينة، واجهوا مقاومة. وفي نقطة حاسمة من المعركة، يقال إن يوبانكي صاح صيحة داعياً الجميع إلى الخروج لصد المهاجمين حتى إن الصخور في الحقول صارت رجالاً لنجدته. وجمعت هذه الصخور بعناية بعد المعركة ووضعت في أماكن شريفة بوصفها أشياء مقدسة.

وبعد معركة كوزكو تلك، نازع يوبانكي أخاه إنكا أوركون وأباه على العرش واتخذ لنفسه لقب «باتشاكوتي»، ويعني «الزلزال» أو «الطوفان» بلغة الإنكا. وقد جعلت هزيمة التشانكا من الإنكيين مجموعة أقوى بكثير من السابق، حتى إنهم فرضوا على التشانكا الخدمة في جيشهم. وعلى مدى 25 سنة اللاحقة أو نحو ذلك، وسّعت جيوش باتشاكوتي من رقعة الإمبراطورية كثيراً إلى الشمال حتى وصلت إلى المنطقة المحيطة ببحيرة خونين Junín، شرقي مدينة ليما Lima اليوم. كما غزا منافسي الإنكيين السابقين، اللوباكا والكولا، الذين صاروا يخشون على أمنهم نتيجة تعاظم قوة الإنكيين.

بعد حملات بحيرة تيتيكاكا العسكرية، أي زهاء العام 1463 ب. م.، سلّم باتشاكوتي قيادة جيوش الإنكا إلى ابنه ووريثه، توبا إنكا، وتفرغ لتنظيم الإمبراطورية وإعادة تنظيم كوزكو، عاصمة الإنكا. وانطلق توبا إنكا، يساعده قادة والده المحنكون، في سلسلة من الحروب الناجحة في الهضاب وسّعت من الإمبراطورية إلى المنطقة التي تقع فيها كيتو Quito اليوم. وفي أثناء إحدى تلك الحملات، أو لعلّ في أكثر من واحدة، تحقق فتح سواحل بيرو الوسطى والشمالية، ومن بينها مجتمع تشيمو Chimu القوي وغيره (دالتروي

.(70—65 :2002 D'Altroy

سلّم باتشاكوتي المملكة رسمياً، في وقت ما من العام 1471 ب. م.، إلى توبا إنكا، الذي استهل حكمه بمهاجمة مجموعات تعيش في الجانب الشرقي من الأنديز، في المنطقة الواقعة في غابات الأمازون الاستوائية. وانقطعت هذه الحملة فجأة باندلاع تمرد نفذه اللوباكا والكولا، حيث كانوا قد سمعوا أن الإنكيين هزموا على يد مجموعات الغابات الاستوائية وأصابهم الضعف. وأثبت توبا إنكا لهم خطأ توهمهم هذا بإيقاع هزيمة نكراء بهم وبحلفائهم، موسّعاً بذلك إمبراطورية الإنكا إلى بوليفيا. بعدها اندفع قدماً في شمال غرب الأرجنتين وغزا شيلي من الشرق. وتوقف عند ضفاف نهر مول، إلى الجنوب من وسط شيلي، على ما يبدو بسبب عدم قدرته أو عدم رغبته بقتال المجموعات الأروكانية Araucanian[1] الشرسة التي كانت تعيش في أعماق الجنوب.

توفي توبا إنكا نحو العام 1493 ب. م. فخلفه ابنه واينا كاباك. وقضى هذا الملك جُلّ عهد حكمه في كيتو Quito وزاد كثيراً من أهمية تلك المدينة للإنكيين. ووسّع أيضاً من الإمبراطورية بعض الشيء إلى الشمال وغزا مجموعات عدة على جوانب الأنديز شرقي بوليفيا (دالتروي 2002: 76). وهكذا بلغت إمبراطورية الإنكا أوج اتساعها نحو العام 1525 ب. م.، ولربما تحقق هذا في 87 عاماً فقط بعد انطلاق باتشاكوتي في فتوحاته.

ما الذي مكن الإنكيين من إقامة اكبر إمبراطورية في العالم الجديد؟ يتفق غالبية الباحثين على أن ذلك كان بفعل اقتران براعة التنظيم العسكري بإدارة الشعوب المفتوحة إدارة فاعلة. فقد كان لدى الإنكيين قادة عسكريون محنّكون استطاعوا دائماً أن يذيقوا أعداءهم طعم الهزيمة المرّ. فضلاً عن ذلك، وفي أعقاب هزيمة التشانكا، تشكل لدى الإنكيين ببساطة جيش أكبر من أي جيش مناوئ لهم. ففي منطقة يتحدّد فيها ربح المعارك أو خسارتها بقتال بالسواعد، فإن توافر جنود كُثر

(1) أطلق عليهم الأسبان أروكانوس araucanos (بالإنكليزية Araucanian)؛ هم سكان وسط شيلي وجنوبها وجنوب الأرجنتين، الأصليون. وتعد هذه المجتمعات الحالية هذه الكنية انتقاصاً منهم وازدراء لهم؛ لذا يستخدم محلها مابوتش (The Mapuche (Mäpfuchieu. ويشكل المابوتش اليوم نحو 4٪ من سكان شيلي، ويتركزون في منطقة أروكانيا. وعلى النقيض من المعتقد الشعبي، كما تقول بعض الموسوعات، فإن الكلمة الكيتشوية «awqa»، التي نعني «متمرد؛ عدو»، يحتمل أن أصلها لا يعود إلى كلمة araucano: إذ يرجح أن الأخيرة مشتقة من اسم مكان rag ko (بالإسبانية Arauco) ويعني «الماء الموحل،» وهي مدينة تقع في مقاطعة Arauco، في شيلي (م).

خريطة تاوانتينسويو، إمبراطورية الإنكا

لدى جانب معين كان مفتاح نصر مضمون له.

بالأهمية نفسها كانت إدارة المناطق المفتوحة. إذ أن غزو مجموعة من الناس بالتفوق العسكري شيء؛ وشيء مختلف تماماً ضمهم بطريقة بها قامت إمبراطورية وراحت تسير على ما يرام. فقد كان الإنكيون قادرين على دمج المجموعات المفتوحة في إمبراطوريتهم بنحو فاعل من خلال تقليل حجم التغيرات التي يدخلونها على حياتهم، فيما يرفعون إنتاجيتهم إلى أقصى حد. أما كيف استطاعوا تحقيق ذلك، فهو موضوع مناقشة الفصل الثاني.

مفتاح آخر لنجاح الإنكيين تمثل بسياستهم في تحويل الناس إلى ما يوائم حاجات الدولة. فقد هجّر الإنكيون قرى بأكملها، ونقلوا أهلها في بعض الأحيان إلى مسافات بعيدة. فهناك أخبار عن نقل إكوادوريين إلى بوليفيا. وقد مكنت هذه السياسة الإنكيين من زيادة حجم الغلال في مناطق كانت متدنية الإنتاجية. كما أن لهذه السياسية فوائدها في الإبقاء على المتمردين تحت السيطرة.

على الرغم من أن المهارات العسكرية والإدارية، التي توافر عليها الإنكيون، تفسِّر «كيف» تمكن الإنكيون من بناء إمبراطوريتهم، إلا أنها لا تفسِّر «لماذا» فتح الإنكيون منطقة شاسعة كهذه. فلم يكن ضرورياً للإنكيين، كما ذُكر آنفاً، مواصلة غزو جماعات أخرى بعد صدِّهم هجوم التشانكا، وكان بوسعهم الرجوع إلى حدودهم الأصلية واستئناف حياتهم كما كانت عليه من قبل. ولم يعط أي أحد سبباً لفتوحات الإنكيين تلك يحظى بقبول عام بوصفه صحيحاً. فمن المرجح أن عوامل عدة كانت مهمة لتحقيق ذلك. وكان من أكثرها أهمية التشديد الكبير على أن يكون المرء في مجتمع الإنكا شخصاً محارباً. فشغل الفتيان الشاغل في مجتمعهم هو تطوير خصائص تنفعهم أحسن النفع في أن يكونوا محاربين.

لكن لماذا كان هذا التشديد على أن يكون المرء محارباً؟ لا شك أن هذا الأمر كان بتأثير العهود التي تطورت فيها ثقافة الإنكا. إذ تتميز الحقبة التي سبقت توسع الإنكيين بوصفها زمن صراع بين الأنديزيين. فالحرب والغزوات كانت شائعة بين تلك المجتمعات، بل حتى بين مدن متنافسة. ومن شأن مثل هكذا ظروف أن تدفع نحو نشوء محاربين بوصفهم جزءاً مهماً من المجتمع لحمايته كما من أجل فتوحاته.

ويحتمل وجود عامل آخر تمثل بطموحات ملوك الإنكا السياسية. إذ من المحتمل أن باتشاكوتي تملكته فكرة حكم العالم المعروف عنده، لذا واصل توسيع الإمبراطورية لمغانم شخصية. ولعل اتخاذه كنية «باتشاكوتي» تدعم ما يذهب إليه هذا الرأي. وأورثت تطلعاته إلى ابنه ووريثه، توبا إنكا، ومن ثم إلى حفيده واينا كاباك.

ثمة احتمال آخر يقول به جفري كونراد Geoffrey Conrad وآرثر ديميريست Arthur Demarst (1984)، الأول باحث إنديزي والثاني متخصص في الأركيولوجيا المكسيكية. إذ يريان أن معتقدات الإنكيين الدينية، مقترنة بعوامل بيئية، هي التي قادتهم إلى الفتوحات. فقد كان الإنكيون يمارسون نمط حكم وراثياً بموجبه يترك الملك أرضه وثروته لأخلافه، ما خلا وريثه؛ وكان على الملك الجديد أن يجد بنفسه مصادر ثروة لنفسه. وكان هذا الأمر مستنداً إلى ديانتهم: إذ يعتقد الإنكيون أن ملوكهم لا يقضون أبداً، بل هم حكام إلهيون، لذا فإن أراضيهم وثروتهم تبقى تحت سلطتهم الشخصية إلى أبد الدهر. فعندما استولى الملوك المتلاحقون على الأرض القريبة من كوزكو، كان على من جاء بعدهم أن يجد لنفسه أرضاً أبعد منها وأبعد، حتى غدى فتح شعوب أخرى ضرورياً لحيازة ارض جديدة. وصارت الفتوحات وسائل للحصول على ثروة إضافية، تبقى وقفاً على عائلة الملك الذي يأت بها. ولعل الضغط، الذي يقع على الملك الجديد ليحصل على ما حصل عليه أبوه لعائلته، يتطلب المزيد من الفتوحات والمضي فيها بعيداً. وعلى الرغم مما ينطوي عليه هذا الاحتمال من إثارة، إلاّ انه لا يفسِّر لماذا وانيا كاباك، ثاني عشر ملوكهم، فتح أرضاً بتلك المساحة المحدودة.

على هذا، فلا مجال على الأرجح لمعرفة السبب اليقين لتوسيع الإنكيين من رقعة إمبراطوريتهم بالقدر الذي فعلوه. ومن المرجح أن عوامل عدة أخرى لعبت دوراً في ذلك التوسع. إذ لربما قادت الأزمة المبكرة، التي سبقت هجوم التشانكا، إلى التوسع الأول كنتيجة لإدراك الحاجة إلى إيقاع الهزيمة بالتشانكا هزيمة تامة قدر المستطاع. كذلك يحتمل أن يكون باتشاكوتي وتوبا إنكا مجرد رجلين طموحين متعطشين للسلطة. وبداع من انتفاع غالبية أفراد مجتمع الإنكا مادياً من الفتوحات، من السهل تصور مدى مساندة المجتمع الإنكي ذلك المضي بالفتوحات. وما من شك أن سدنة ديانتهم، قساوسة ديانة الإنكا وقسيساتها، كانوا داعمين لذلك التوجه: فهم أكثر المنتفعين من الثروة التي تأتي إلى

كوزكو من المناطق المفتوحة. عليه ربما كانت ديانة الإنكا، ورعاتها، تسوّغ بروز الإنكيين قوةً أنديزية عظمى.

بصرف النظر عن دواعي الفتوحات الإنكية، فما يسترعي انتباهاً خاصاً هو كيف ضموا الكثير من الناس إلى إمبراطوريتهم. فعلى الرغم من صعوبة حصر أرقام دقيقة لعدد السكان آنذاك؛ إلاّ أن رقم عشرة ملايين لا يُعدُّ رقما غير معقول (كوك Cook 1981). من ناحية ثانية، يعكس هذا العدد الرعايا كلهم في الإمبراطورية. يحتمل أن عدد الإنكيين أنفسهم، وهم المجموعة التي يعود أصلها إلى جوار كوزكو، كان زهاء 40,000 شخص. وما تمكن هذه المجموعة من إخضاع الملايين إلاّ مصداق على فاعلية الإنكيين العسكرية وقدرتهم على تنظيم رعاياهم والسيطرة عليهم.

إنجازات الإنكا

ما المميِّز في حضارة الإنكا؟ لا شك أن آثارهم العمرانية إحدى المآثر التي ذاع صيتهم بها، فلعلهم يشتهرون بوصفهم بناة صخور بارعين، تمكنوا من تشييد بنايات من صخور ضخمة يرصفونها مع بعضها بدقة لا تدع مجالاً لتمرير نصل سكين بين شقوقها، وهذا حتى بعد انقضاء ما يزيد عن 400 عام وما تخللها من زلازل؛ وما كان الإنكيون يستخدمون الإسمنت أو المِلاط!

هناك أعمال هندسية بارعة تشكل جزءاً من تراث الإنكا. ومنها مقدرتهم على إقامة نظم انتشارية[1] للحقول الزراعية التي تشبه سلالم تصعد على أكتاف الجبال مما يسمح بإنتاج كميات هائلة من الغذاء ليعيلوا أنفسهم والناس العاملين لهم. وشقّ الإنكيون قنوات ري طويلة ليضمنوا توافر مياه تكفي محاصيلهم. وهناك حقول كثيرة يستخدمها المزارعون الأنديزيون اليوم، أقيمت في الأصل بيد شعوب مفتوحة وتحت إشراف الإنكيين، وحقول أخرى غيرها لم تعمّر وباتت مهجورة حالياً. ومن الجدير بالملاحظة أن الحقول المهجورة في منطقة الأنديز البيروفية اليوم، تعد أوسع مساحة من الحقول المُستغلّة (دينيفان 1987)، مما يشير إلى أن السكان كانوا أكثر عدداً في عهد الإنكيين. وهذا لا ريب مثار إعجاب بقدرات الإنكيين على إنتاج كميات غذاء كبيرة.

(1) Extensive: نظام زراعي يتمثل باستغلال أكبر مساحة من الأرض وبأقل جهد أو كلفة (م).

من الروائع الهندسية الأخرى بروز نظام طرق متسع: إذ شقّوا طرقاً في ما يزيد عن 25,000 ميل. وعلى الرغم من أن تلك الطرق لم تكن معبَّدة على النحو الذي عليه طرق اليوم، إلاّ أنها كانت معدَّة بعناية تناسب تضاريس المنطقة التي تمر بها. ففي مناطق المستنقعات، كانوا يقيمون الطرق على اليابسة، وفي المناطق الصحراوية، يرصفون جوانبها بصخور. وإلى جانب الطرق، كانت هناك مراكز توقف وخانات تقدِّم للمسافرين ما يحتاجون إليه. وأقاموا جسوراً على الأنهار، وبنوا سلالم لارتقاء منحدرات التلال.

كان الإنكيون معروفين أيضاً بصناعة الأواني الفخارية. فقد كانت أوانيهم مميزة شكلاً وتصميماً. ولعل قدر الطعام الإنكي الأكثر نموذجية هو أريبالو aryballo، الذي هو وعاء مسنن القاعدة طويل، يتسع تدريجياً حتى فتحته (انظر الشكل في الصفحة 60). وكانوا يزخرفون تلك القدور عموماً بأشكال مثلثة وأخرى تشبه أشكال الريش. وثمة نوع آخر من الأواني الفخارية تحتوي على صفائح وأوعية يقدمون بها السوائل. ويعزى اتساق تصاميم الفخاريات الإنكية إلى حقيقة أن الإنكيين كانوا يصممون أوانيهم (ومبانيهم أيضاً) ويستعملونها، كرمز للرفعة على رعاياهم. وعليه كانت المصنوعات اليدوية والمباني كنايات عن سلطة إمبراطورية لكل من يراها (بورغر Burger 2007). وقد كانت أشكال تلك المصنوعات وتصاميمها موحدة النمط، لأنها كانت تُنتَج في مراكز صناعية خاصة أُقيمت لهذا الغرض تحديداً، وتُصنع بأيدي حرفيين مَهَرة. كما هناك حرف أخرى، من قبيل القماش والمعادن، منتظمة الشبَه أيضاً.

تقول روايات إسبانية مبكرة إن الإسبان عندما رأوا كوزكو أول مرة في 1533 ب. م، وجدوها مدينة صادمة بإثارة، تسكنها آلاف عدة من الناس. ذلك أن في عهد باتشاكوتي، أُعيد تصميم بنية المدينة، وعُدِّل النهران اللذان كانا يمران فيها. وقيل إن غايته من ذلك جعل كوزكو أنموذجاً لإمبراطورية الإنكا. وكان الإنكيون يعيشون في المدينة بنحو لائق، فيما غير الإنكيين، ومنهم أناس من شتى بقاع الإمبراطورية، من الذين أُستقدموا للعاصمة للعمل في خدمة الإنكيين، كانوا يعيشون في مستوطنات منفصلة عن بعضها خارج مركز المدينة. وبُنيت بلدات ومدن أخرى جديدة تحت توجيه الإنكيين، ابتداءً من مراكز كبيرة مثل أوانوكو بامبا Huánuco Pampa إلى بلدات مثل ماتشو بيتشو Machu Picchu.

لعل أكثر تراث الإنكيين بقاءً هو حجم التغير الذي جلبوه على الجماعات التي فتحوها.

وكان هدف الإنكيين بناء إمبراطورية موحدة، لتسوية الخلافات السياسية والاجتماعية الكبيرة التي كانت قائمة بين الجماعات الاجتماعية قبل التوسّع الإنكي. إذ لكي يحققوا ذلك، عمدوا إلى نقل أفراد وقرى بأكملها إلى ما حول الإمبراطورية، فحطموا بذلك مجتمعات كبيرة وشكّلوا أخرى صغيرة في وحدات إدارية متساوية الحجم. وادخلوا لغة الكيتشوا على رعاياهم، وبقيت حتى يومنا هذا بوصفها لغة من بين لغتين أصليتين مازال الناس ينطقون بهما في المنطقة التي كانت في ما سبق إمبراطورية الإنكا. وكما ذكر الباحث القدير في المجال الإنكي جون روْ (1946: 329—30)، فإن الشعور بثقافة واحدة لدى ملايين الأنديزيين اليوم ما هو إلاّ نتيجة لسياسات الإنكيين أكثر من كونه حاصل سياسات الإسبان. وفي الواقع، لم يكن الإسبان في الغالب سوى متابعين لسياسات الإنكا. لذا يصعب القول إن الإنكيين لم يعودوا موجودين، كما سنناقش ذلك في الفصل السابع، ذلك أن الثقافة الإنكية اليوم أكثر حيوية ـ على أن شكل تلك الثقافة اليوم تحوير لشكلها السابق. وما هذا الإرث إلاّ ثناء كبير على أثر الإنكيين في الجزء الغربي من أمريكا الجنوبية.

إقامة صلة بما مضى

1. ضربت العالم على حين غرّة كارثة أتت على الناس أجمع. ثم على مدى قرون، ابتدأت الحياة تعود لبقايا المدن والبلدات والقرى. وبعد خمسمئة عام، جاءت مخلوقات من كوكب بعيد ونزلت على الأرض لتنظر ما إذا عليها حياة بشرية. فهل بالوسع إعادة بناء نهج حياتنا تماماً إن نزلت المخلوقات:
في مدينة نيويورك؟ ــــ أو في عاصمة دولتك؟ ــــ أو في بلدة صغيرة ببلدك؟
أستتمكن تلك المخلوقات من إعادة البناء تلك إنْ هي تعلّمت قراءة لغتنا وعثرت على مكتبة لم يطاولها الخراب؟
2. أية حضارات أخرى، ماضية كانت أم حاضرة، يمكن مقارنتها بما فعله الإنكيون في مدة زمنية قصيرة كهذه؟ وأين مواطن الشبه بين ما أنجزه أبناء تلك الحضارة وما فعله الإنكيون وحققوه؟
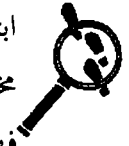
الفصل الأول

لمحة تاريخية
تاوانتنسويو: أرض المناطق الأربع

لمّا سار الفاتحون الإسبان، يقودهم فرانشيسكو بيزارو Francisco Pizarro[1]، إلى كاخاماركا Cajamarca في 1532 ب.م، واجهوا إمبراطورية أوسع مما عرفوا في العالم الجديد[2]. كان الإنكيون يسمون إمبراطوريتهم «تاوانتنسويو Tahuantinsuyu»، التي تعني بلغتهم الكيتشوية الأصلية «أرض المناطق الأربع». كانت تلك الإمبراطورية تمتد على مساحة 3,000 كيلومتر (1,800 ميل) من حوالي الحدود الكولومبية الإكوادورية حالياً، حتى أواسط شيلي، ومن المحيط الهادئ حتى مرتفعات الأنديز. وكانت هذه المنطقة تضم فعلياً كل أنماط البيئة ابتداء من أشد صحارى العالم جفافاً إلى الغابات الاستوائية الرطبة، ومن مستوى البحر إلى أعلى من مستواه بـ 7000 متر (23,100 قدم). ولفهم الإنكيين ونمط حياتهم، يتوجب أولاً فهم طبيعة الأرض، التي كانوا يسيطرون عليها والتحديات التي كانت تتجلى فيها.

كانت تاوانتنسويو محاطة بثلاثة أوساط بيئية: المنطقة الساحلية الغربية القاحلة، ومرتفعات الأنديز، وسفوح الأنديز الشرقية. ولكل بيئة مناخ وموارد طبيعية مختلفة،

---

(1) فاتح إمبراطورية الإنكا، ومؤسس مدينة ليما، عاصمة بيرو. ولد في تروخيلو، بإسبانيا في 1478. تقول مصادر بيروفية إنه ابن غير شرعي لغونذالو بيزارو دي رودريغيذ دي أغويلار، قائد قوات المشاة الملكية الإسبانية، وامرأة عادية من عامة الناس تدعى فرانشيسكا غونذاليز ماتيوس. اول حملة له كانت على جزر الهند الغربية، التي تعرف اليوم باسم هاييتي في 13 فبراير 1502، وأقام فيها مع شقيق والده، ومنها انطلق بحملته الأولى لفتح إمبراطورية الإنكا، ففشل، ولم يحصل على الدعم اللازم لإعادة الغزو، فعمد إلى مقابلة ملك اسبانيا، وبغياب هذا الأخير حصل على الموافقة من الملكة. واجه مقاومة شديدة من الإنكيين، إلا انه رتب لقاء مع ملك الإنكيين أتاوالبا، فغدر به وأسره وأعدم مرافقيه. طالب بفدية قدرها ملء غرفة ذهباً وغرفتين فضة، وعلى الرغم من تلبية طلبه، قتل الملك الإنكي في 26 يوليو 1533(م)

(2) هي تسمية بلدان أمريكا اللاتينية وأستراليا، ظهرت في القرن الخامس عشر. فقد كانت بلدان أمريكا اللاتينية جديدة على الأوروبيين، الذين كانوا يظنون أن العالم يتكون من أوروبا وآسيا وأفريقيا فحسب (التي تعرف كلها باسم العالم القديم). ولا ينبغي خلط تسمية «العالم الجديد» بتسمية «العالم الحديث،» التي تشير عموماً إلى حقبة تاريخية، وليس إلى مساحة أرض كبيرة (م).

وكذلك نباتات وجماعات حيوانية متميزة. وقد تكيف ناس تلك المناطق، قبل الإنكيين بزمن طويل، مع هذه الأوساط البيئية وتعلموا كيف يستغلون الموارد التي تدرّها كل بيئة. وتمثّل أحد التحديات، التي واجهت الإنكيين، بدمج الجماعات المتنوعة التي كانت تعيش في هذه الأوساط البيئية في إمبراطورية موحّدة.

الساحل القاحل

يعدّ ساحل أمريكا الجنوبية الغربي، الذي يمتد من حدود بيرو والإكوادور الحالية تقريباً حتى وسط شيلي، منطقة صحراوية شديدة الجفاف. ويعود سبب هذا الجفاف إلى الظروف الاستثنائية التي تحول دون هطول الإمطار. فخلال فصل الصيف في النصف الجنوبي (من نوفمبر إلى مارس) ترتفع درجات الحرارة على الساحل، ويهب الهواء الرطب، الذي يأتي الشاطئ من البحر، على منخفضات الجبال الغربية. وفي هذا الفصل يكون المناخ الساحلي صحواً وحاراً، على الرغم من أنه قد يكون غائماً على المناطق الجبلية. وفي الشتاء (من مايو إلى سبتمبر) يبقى الساحل بارداً، لذا تتكثف الرطوبة الهابّة على الشاطئ في مستوى البحر تقريباً وتشكّل ضباباً كثيفاً سميكاً. وبسبب من قرب شمال بيرو إلى خط الاستواء، فإن مناخها أكثر حرارة، لذا يرتفع ضباب الشتاء، مع أنه قد يتبدد خلال النهار، وبعد المغيب، يتشكل من جديد، جاعلاً الليالي رطبة ومضببة. وبعيداً إلى الجنوب، وبسبب بقاء الجو بارداً خلال النهار، تسير الغيوم ببطء. عليه في وضع مناخي كهذا، لا تسقط الأمطار فعلياً في أي وقت من السنة. وتشير دراسات إلى أن المناخ في أغلب مناطق الساحل كان هو نفسه على الأقل على مدى العشرة آلاف سنة الماضية. على أن هناك دلائل على أن المناخ في شمال بيرو كان كثير الأمطار قبل خمسة آلاف عام مضت (ساندويس وال. Sandweiss et al. 1996).

ولّد الجفاف الشديد في الساحل الغربي تشكّل صحراء، وفي الحقيقة يعد جزء الساحل الممتد إلى جنوب بيرو، من أشد صحارى العالم جفافاً (ليتو وليتو Lettau and Lettau 1978). وبخلاف صحارى أخرى في مناطق من العالم (مثلاً في جنوب غرب الولايات المتحدة)، ليس في هذه الصحراء حتى رطوبة كافية تساعد على ظهور نباتات الصبّار. مع ذلك، هناك بضع مناطق بمحاذاة الساحل حيث تسمح الظروف غير المعتادة

بوجود رطوبة كافية مع حلول ضباب الشتاء لظهور بعض النباتات. وتنتشر هذه المناطق، أو الهضاب lomas، وتتسع كلما تقدم المرء جنوباً، ما يجعلها تتماثل مع المناخ كثيف الضباب.

تتقطع الصحراء الساحلية في مناطق معينة بأنهار تجري من خواصر الأنديز. وتتباعد الأنهار في بيرو عن بعضها بمسافة 40 كيلومتراً (24 ميلاً) تقريباً، لكنها تتباعد كثيراً في جنوب بيرو وشماله عنه في شمال شيلي. وتضيق مساحة الصحراء الساحلية في وسط بيرو أكثر من ضيقها في جنوب بيرو وشيلي، لأن الأنديز أقرب إلى المحيط الهادئ من جهة الشمال، وتزيد بعداً عن الساحل كلما توغل المرء جنوباً.

حيث تجري الأنهار من الجبال، كانت الوديان تساعد على نمو غابات كثيفة بمحاذاة جوانبها قبل دخول الزراعة إلى المنطقة. وبعد دخول الزراعة قبل زهاء 5,000 عام (3000 ق.م)، ابتدأ السكان يقطعون الغابات البكر. وأصبح الري وسيلة مهمة في استخدام أراض واسعة للزراعة، التي بدأت قبل زهاء 3800 عام مضت (1800 ق.م). وتعد الأودية الساحلية الآن كلها أرضاً مزروعة فعلياً بنحو واسع، لذا لم يبق من الغابات المبكرة سوى القليل.

والأنهار مهمة أيضاً كمصادر رئيسة للماء العذب لسكان الساحل. فعلى الرغم من ظهور الينابيع أحياناً في الصحراء، إلاّ أنها نادرة نسبياً. وعلى هذا فإن إقامة الإنسان الدائمة في المنطقة الساحلية كانت تقتصر على وديان الأنهار حتى أدخل الإسبان المضخات (1532 ب.م). وحتى يومنا هذا، يعيش قلة من سكان الساحل بعيداً عن أنهار الوديان - باستثناء المدن الكبيرة (مثلاً: ليما وأوركويبا)، حيث يوفّر الماء بوساطة أنابيب.

تصبح أنهار الوديان في الجزء الشمالي من بيرو كبيرة وعريضة، موفرة مياه السقي لمناطق واسعة، أما في الجزء الجنوبي من البلاد فتضيق وتصغر بشدة فلا تتيح ماء سقي إلاّ لأراض قليلة. لذا لا عجب أن تكون ثقافات ما قبل التاريخ التي قامت في الساحل الشمالي أوسع وأكثر تطوراً من تلك التي كانت في الساحل الجنوبي؛ إذ تكثر زراعة المحاصيل الغذائية في تلك المنطقة.

لكن ما يفتقد إليه الساحل من ناتج الأرض الزراعية تعوضه موارد الصيد. فمياه الساحل الباردة تعيل أعداداً هائلة من الأسماك، والقواقع، والثدييات البحرية، وطيور

الصحراء البيروفية الساحلية

البحر. وفي الواقع يعد المحيط القريب من بيرو أحد أغنى مناطق الصيد في العالم. وصار مصدر الغذاء هذا، في عهد مبكر، مهماً في قيام الاستيطان الدائم.

مرتفعات الأنديز

تعد جبال الأنديز ثاني أكبر نمط بيئي في تاوانتنسويو. إذ تتميز هذه البيئة بقمم جبال عالية ووديان عميقة. وتمتد الأنديز على مسافة أمريكا الجنوبية، من كولومبيا إلى الشمال من تيرا ديل فويغو Tierra del Fuego عند طرف القارة الجنوبي. وتضيق مساحتها نسبياً عند شمال بيرو والإكوادور، مُشكّلة سلسلتين متوازيتين تقريباً. وعند جنوب بيرو، وشمال شيلي، وبوليفيا، تبلغ الأنديز أوسع مداها حيث يصل عرض مساحتها إلى 640

كيلومتراً (400 ميل). ثم تضيق الجبال في شيلي حتى تصبح سلسلة واحدة.

وغالباً ما يتجاوز الارتفاع بين القمم وبطون الوديان في الأنديز 3000 متر (10000 قدم). وبسبب من هذه المسافة العمودية الهائلة، هناك تنوع كبير في درجات الحرارة وسقوط الأمطار، في بطون الوديان عنه في قمم الجبال. وعموماً، كلما صعد المرء إلى الأعلى، يصير الجو أكثر برودة ورطوبة؛ وبالعكس، عندما ينزل إلى واد، تزداد حرارة الهواء وجفافه. لذا تجد مناطق مختلفة من الزروع والحيوانات، تتوافق مع تباين نسب الأمطار ودرجات الحرارة. فهناك في غالبية الوديان ثلاث مناطق رئيسة، يطلق عليها بتسمياتهم الكيتشوية «يونغا yunga»، وكيتشوا quechua، وبونا Puna (برش Brush 1977: 9–10). ومنطقة يونغا هي الأوطأ، وتمتد على مسافة 1500 متر (5000 قدم)، وهي حارة وجافة. وتشتمل النباتات فيها على الصبّار، وبعض أشجار الفاكهة، والشجيرات الشوكية. ومع توافر السقي، يمكن لنباتات أخرى أن تنمو في هذه المنطقة؛ وتتضمن غالبية المزروعات الغذائية.

أما منطقة الكيتشوا، التي تغطي مسافة بين 1,500 و3,500 متر (5,000 – 11,500 قدم)، فكانت مثمرة زراعياً على الدوام. فهذه المنطقة أعلى من اليونغا وأدنى من البونا، وعليه فهي تتوسط درجات الحرارة وهطول الأمطار. وتوفر هذه المنطقة مناخاً جيداً لزراعة الحنطة والفاصولياء والقرع والفواكه ومحاصيل محلية أصلية من قبيل الكينوا quinoa، وهي حبوب غنية بالبروتين. ويُرجح أن غالبية هذه المنطقة كانت مغطاة بغابات قبل دخول الزراعة (برش Bursh 1977: 5)، ومع مجيء الزراعة، قطعت أكثر الغابات الأصلية وتحوّلت أراضيها إلى حقول زراعية. والحقيقة أن غالبية الأشجار التي يراها المرء اليوم في الأنديز هي من نوع الأوكاليبتوس، التي جُلبت من أستراليا في مطلع القرن التاسع عشر. وتمتد منطقة البونا فوق منطقة الكيتشوا (أعلى من 3,500 متر) وهي منطقة تعلو على الاستعمال البشري. فهي تتميز بانخفاض درجات الحرارة وارتفاع نسب الأمطار. والمنطقة نموذجياً فوق نطاق زراعة الأشجار، وتنمو فيها الأعشاب. ويمكن استعمال الأجزاء المنخفضة فقط من هذه المنطقة للزراعة؛ ولا تنمو فيها إلاّ المحاصيل شديدة الاحتمال، والمقاومة للانجماد من قبيل البطاطا، والأوكا، والأولوكو Ullucu، التي هي مزروعات درنية محلية معروفة في مرتفعات أمريكا الجنوبية. كما أن هذه المنطقة تعد ممتازة للرعي. وكانت البونا

تقليدياً مركز اهتمام إنتاج الغذاء (برش Brush 1977:8).

يستعمل الجزء العلوي من البونا مرعى لرعاة الحيوانات في الأنديز. ويأخذ الفلاحون في الوقت الحاضر غالبية أبقارهم وأغنامهم إليها، لكن قبل إدخال هذه الحيوانات على أيدي الإسبان، كانت حيوانات اللاما والألباكا ترعى فيها. واللاما أضخم قليلاً، لذا فهي تستعمل كحيوانات حمل تنقل على ظهورها البضائع على مدرجات أرض الأنديز. والألباكا أصغر حجماً وتُربى لأصوافها الناعمة، التي تستعمل لصناعة ملابس دافئة.

وعلى خلاف المزارعين في الولايات المتحدة، الذين يزرعون أنواعا قليلة من أي نبات، تشدد الزراعة في الأنديز على التنوع، إذ تزرع مئات الأنواع من الذرة والبطاطا، وهما أكثر الزروع شيوعاً في بيرو. على سبيل المثال، هناك أنواع من الذرة قصيرة الكوز قليلة الحب نسبياً، فيما هناك أنواع طويلة كثيرة الحب ـ مثل التي تنمو في الولايات المتحدة. وللذرة عندهم ألوان مختلفة عدة، من الصفراء إلى البيضاء حتى الأرجوانية. والأمر نفسه بالنسبة للبطاطا والمحاصيل الدرنية الأخرى التي تنمو في منطقتي الكيتشوا العالية أو البونا المنخفضة.

لا ينبت هذا التنوع الزراعي ببساطة كما يبدو عليه الأمر، بل يخضع لتكييف مع اختلاف ظروف هطول الأمطار، ودرجات الحرارة، ومقاومة الأوبئة. ولعل لكل منها استعمالاً مختلفاً أيضاً، مثل الخَبْز أو الطهي. ففي المناطق المنخفضة في منطقة الكيتشوا، قد يعمد الفلاح إلى زراعة نوع من الذرة يتحمل الجفاف، وفي المناطق الأعلى، ربما يزرع نوعاً ثانياً من الذرة يقاوم الانجماد. وفي حقول زراعية أخرى، ربما تزرع أنواع أخرى تقاوم الأوبئة المختلفة. وبزراعة أنواع مختلفة فيها ميزات مختلفة، يزيد المزارعون إنتاج الغذاء من خلال تقليل الهدر في العوامل الطبيعية.

وعلى الرغم من ميزات المناطق الثلاث الموصوفة آنفاً، إلاّ أن من المهم الالتفات إلى أن المناخ متغير بنحو كبير من عام لعام في المرتفعات. ففي بعض السنوات، قد ينزل مطر غزير، مما يجعل الزراعة يسيرة كثيراً في غياب الري. وفي سنوات أخرى، يقلُّ المطر، فيصعّب الزراعة أو يجعلها محالة من دون ري. والأمر نفسه يصحّ على درجات الحرارة. فقد يظهر الصقيع في وقت مبكر من السنة أو يتأخر، معرّضاً المحاصيل للخطر. ولهذا السبب، وضع الفلاحون الأنديزيون استراتيجيات للتعامل مع التقلبات البيئية. فبالإضافة

إلى زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل، يعمدون إلى حراثة حقول على ارتفاعات مختلفة ويزرعون جملة من المحاصيل في كل منها. وعليه، إذا تعرّض أحد الحقول إلى موجة جليد مبكرة أو تضرر بسبب البَرَد، ربما يضمنون بذلك نجاة البقية.

يستغل الفلاحون أيضاً المناطق الثلاث كلها بطرق مختلفة، على أساس توزيع المناطق (برش Bursh 1977: 10—16). ففي وديان كثيرة، هناك مسافة عمودية واسعة إلى حد ما من باطن الوادي إلى قمة الجبل في المناطق الثلاث كلها تجعلها قريبة من بعضها بعضاً. وفي مثل هذه الظروف، يقيم الناس قراهم في الجزء العلوي من منطقة الكيتشوا ليكونوا قريبين من حقولهم فيها، وفي الأجزاء المنخفضة من منطقة البونا. وقد تكون لديهم حقول في منطقة اليونغا. والمسافة إلى الحقول في مناطق أخرى قد تعني المشي من ساعة إلى ساعات عدة. إذ من أجل أن يحصدوا أو يزرعوا في حقول بعيدة، يبني الفلاحون أكواخاً صغيرة ليقيموا فيها الأيام التي يتطلبها إتمام عملهم هناك.

وفي بعض أجزاء الأنديز، تعزل المناطق المختلفة عن بعضها بمسافات واسعة لتستخدمها قرية واحدة استخداماً فعّالاً. ففي هذه المناطق جرت صياغة نمط استخدام مناطقي بوساطته يتخصص الناس بمحاصيل المنطقة الرئيسة، سواء كانت الكيتشوا أم البونا. وتتاح لهم أيضاً حقول في مناطق أخرى، قد يتركها أهل القرية الأصلية لأيام عدة. إذ يتوجهون ثلاث أو أربع مرات في السنة إلى تلك الحقول البعيدة ليزرعوا محاصيل منطقتها ويحصدوها (برش Bursh 1977: 13؛ مورا Murra 1972).

وفي تنويع على هذا النمط الأخير، رأى الأنثروبولوجي جون مورا (1975) John Murra أن بعض المجموعات في الماضي كانت ترسل فعلاً أفراداً منها للعيش لمدة تطول أو تقصر في المناطق المنخفضة، وإنتاج غذاء تلك المناطق. على ذلك، عوضاً عن الانتقال مرات عدة في السنة إلى منطقة اليونغا، يقيم بعض أفراد مجموعة ما هناك. وقد يجري تبادل المحاصيل بين أفراد معينين في مناطق مختلفة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأفراد قد يقيمون بنحو دائم في جزء مختلف، إلاّ أن عدّهم أفراداً ينتمون لمجتمعهم الأصلي يبقى قائماً.

بيد أن هناك وسيلة أخرى يستغل بها الناس منطقة مرتفعات الأنديز في مناطق حيث لا تكون الجبال شديدة الانحدار (برش Bursh 1977: 13—15). ففي هذه الأجزاء، يعيش

الناس في المناطق المختلفة كلها لكنهم يركزون في معظم الأحيان حصرياً على منتجات منطقة واحدة. ثم يتبادلون المنتجات مع مجموعة تعيش في المناطق الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا النظام موجود أصلا في شرق الأنديز ووسطها، إلاّ أن من الممكن العثور على تنويع آخر عليه في جنوب شرق بيرو وشمال غرب بوليفيا. وهذه المساحة، التي تضم بحيرة تيتيكاكا، يطلق عليها التيبلانو[1]، أو «السهل العالي المسطّح» وهي منطقة شاسعة تقع كلها في منطقة البونا. وهنا يزرع الناس منتجات البونا، ثم يتاجرون بها مع أناس يعيشون في مناطق أخرى تقع إلى الشرق والغرب مقابل الغذاء المنتج في تلك المناطق. وتستخدم قوافل اللاما لحمل الغلال من البونا، وأحياناً إلى ساحل المحيط الهادئ البعيد، ثم تعود حاملة منتجات منطقتي اليونغا والكيتشوا. وتستغرق هذه الرحلة الانكفائية[2] شهرين. ويرجح أن هذا النمط قديم وتطور على مدى زمن طويل قبل عهد الإنكيين.

بقي سبيل واحد أخير تستعمله بعض المجموعات للتعامل مع التنوع البيئي، ويتمثل بانتقال قرى بأكملها من منطقة إلى أخرى. وهذه العملية، التي تسمى بالتعبير الإنكي ميتيما mitimas، كانت تستعمل لزيادة كميات الغذاء المنتج في منطقة معينة من خلال نقل مجموعات كاملة من الناس إليها. وهذا مختلف عن النموذج الذي وصف في ما سبق لأن الناس عادة ما كانوا ينقلون على خلاف إرادتهم نتيجة لممارسة مجموعة مهيمنة نمطاً سياسياً. وسيقال الكثير عن عمليات الميتيما في الفصل الثاني.

سفوح التلال الشرقية

البيئة الكبيرة الثالثة التي تشتمل عليها تاوانتنسويو تتمثل بالمنطقة التي تتناقص فيها مرتفعات الأنديز باتجاه الشرق. ففي بيرو الحديثة والإكوادور، تهبط الأنديز في المنخفضات الأمازونية حتى تصير غابات مطرية استوائية واسعة. وهنا تسمى التلال السفحية سيخا دي لا مونتانيا ceja de la montaña، او سيخا فقط، اختصاراً. ففي بوليفيا والأرجنتين، تنحدر الأنديز إلى مسطّح، مساحات منخفضة ممتدة يطلق عليها لانوس دي موخوس

(1) التيبلانو Altiplano (اصطلاح إسباني يستعمل للإشارة إلى السهل العالي)، إذ أن غرب ووسط أمريكا الجنوبية، حيث تبلغ جبال الأنديز أعرض مساحة فيها، تعد أوسع منطقة فيها أعلى هضبة في الأرض، خارج التبت، في الصين (م).

(2) رحلة من مكان معين إلى آخر ثم العودة إلى مكان الانطلاق، وعادة ما تكون بالطريق نفسه (المترجم).

Lanos de Mojos وغران تشاكو Gran Chaco، تجف في الشتاء وتفيض في الصيف. وفي نهاية المطاف، في الأرجنتين، تهبط الأنديز في أراض معشوشبة تدعى بامباس pampas تشبه السهول الكبرى Great Plains في الولايات المتحدة.

كان الإنكيون شعبا جبلياً، متكيفاً كلياً مع مناخ مناطق المرتفعات ومنتجاتها. وعندما حاولوا توسيع إمبراطوريتهم إلى المناطق الشرقية المنخفضة، لم يحققوا نجاحات كبيرة، بخاصة عندما اجتاحوا غابات الأمازون المطرية الاستوائية. فالحرارة والرطوبة والأشجار الكثيفة، وتكتيكات العصابات التي استعملتها المجموعات التي كانت تعيش هناك، كلها جعلت من حرب الإنكا عليهم غير فاعلة. لذلك كان توسع تاوانتنسويو ضئيلاً جداً في هذه المنطقة.

بيد أن منطقة السيخا في شرق بيرو كان لها أهمية اقتصادية للإنكيين. ففي هذه البيئة عالية المناسيب المطرية ودرجات الحرارة، هناك بعض الحيوانات والمزروعات الاستوائية ـ مثل نبات الكوكا ـ النفيسة لدى الإنكيين. إذ يستعمل شعب الأنديز اليوم الكوكا بنحو واسع للمضغ (مثل التبغ إلى حد كبير)، كما أن للكوكا دلالة طقسية كبيرة لدى الإنكيين. ذلك أن مضغ الكوكا يقلل الشعور بالبرد والتعب والعطش؛ لذا كانت تساعد الفلاحين في عملهم المجهد بحقولهم في المرتفعات. ولا زالت الكوكا اليوم تستعمل بنحو واسع لهذه الأغراض (حنا Hanna 1976).

منتجات أخرى من التلال السفحية الشرقية كانت لها قيمة لشعب الجبال، ومن بينها ريش الطيور الملونة التي تعيش هناك، الذي يستعمل في الملابس. وبعض النباتات، من قبيل المانيوك manioc (جذور نشوية)، والبطاطا الحلوة، وجدت أولاً هذه المنطقة ثم أدخلت إلى المرتفعات والساحل الغربي. ولأهمية التلال السفحية الشرقية والغابات المطرية الاستوائية لسكان الأنديز في مرحلة ما قبل التاريخ، شأن في إسهامها في حياة المجتمعات المبكرة أكثر من أهميتها الاقتصادية لدى الإنكيين.

ثبت تاريخي بشعوب سبقت الإنكيين في أواسط منطقة الأنديز

يقسم أركيولوجيون ومؤرخون على حد سواء الزمن إلى وحدات منفصلة. إذ يوزع أركيولوجيون الزمن على وفق ظهور أو اختفاء تطورات ثقافية من قبيل أنواع أدوات

جديدة أو سبل إنتاج غذاء معينة. وقد صيغت خطاطات أركيولوجية كثيرة عن منطقة الأنديز، وكلها توثق سلسلة أحداث ثقافية مهمة. لكن للأسف هناك أحداث جرت في أزمان مختلفة في مناطق مختلفة، لذا يصعب تطبيق أي من تلك الخطاطات على منطقة تاوانتنسويو كلها. إلا أن ثمة خطاطة، هي خطاطة رو ـ لاننغ الزمنية Rowe—Lanning (نسبة لواضعيْها الأركيولوجيين جون رو وادوارد لاننغ)، مقبولة بنحو عام وسوف تستخدم كنقطة مرجعية في هذا الفصل.

ويمكن تقسيم عصور ما قبل التاريخ في الأنديز الغربية إلى حقب توحدت خلالها بسرعة مساحات واسعة بفعل بعض التأثير الثقافي المشترك. ويطلق على هذا الوضع، في المستوى الأركيولوجي، أفقاً horizon . على هذا تحدد خطاطة رو ـ لاننغ Rowe—Lanning ثلاثة آفاق: أفق مبكر، أفق أوسط، وأفق متأخر. وكان بين هذه الآفاق الثلاثة حقبة انتقالية مبكرة (وتقع بين الأفقين المبكر والأوسط) وحقبة انتقالية متأخرة (وتقع بين الأفقين المبكر والأوسط). وخلال الحقب الانتقالية انهارت تأثيرات اندماج الآفاق، وتطورت المجتمعات على أسس فردية. وتتحدد أيضاً حقبتان مبكرتان: الحقبة الأولية (التي تسبق الأفق المبكر) وحقبة ما قبل الفخار (التي تسبق الحقبة الأولية). وتشير حقبة ما قبل الفخار إلى الزمن الذي سبق اكتشاف صناعة الأواني الفخارية؛ وتبتدئ من مجيء البشر إلى أمريكا الجنوبية. أما الحقبة الأولية فتشير إلى الزمن الذي ظهر فيه الفخار للمرة الأولى.

وأفضل تطبيق لهذه الخطاطة المرتبة زمنيا في منطقة بيرو الوسطى، حيث ظهرت تمثيلاتها وتطورت. فكلما ابتعد المرء عن هذه المنطقة ـ إلى جنوب بيرو وشيلي وبوليفيا أو الإكوادور وكولومبيا ـ يتدنى نفع هذه الحقب بسبب من أن الأحداث الثقافية التي تقوم عليها هذه الحقب، جرت في أزمان متباينة جداً، إن لم نقل أنها مختلفة تمام الاختلاف. أما في ما يخص منطقة بيرو الوسطى، فالتواريخ والثقافات الرئيسة في هذه الحقب، تتوزع على النحو الآتي:

ثبت ثقافي في منطقة وسط الأنديز

العصر	التاريخ	الثقافات
حقبة ما قبل الفخار	؟ - 1800 ق.م	ثقافات محلية
حقبة أولية	1800 - 900 ق . م	ثقافات محلية
أفق مبكر	900 - 200 ق . م	تشافن، باراكاس، ثقافات محلية.
حقبة انتقالية مبكرة	200 ق . م - 600 ب.م	موتش، ناسكا، ثقافات محلية
أفق أوسط	600 - 1000 ب.م	واري، تياواناكو، ثقافات محلية
حقبة انتقالية متأخرة	1000 - 1438 ب.م	شيمو، تشانكي، ثقافات محلية
أفق متأخر	1438 - 1532 ب.م	إنكا

ومن المهم التعريج بإيجاز على التطورات الثقافية التي سبقت الإنكيين بغية وضع إنجازاتهم في منظور تاريخي. ذلك أن كثيراً مما أنجزه الإنكيون كان يستند إلى أنشطة ثقافات، واكتشافات، وأنماط حياة سابقة عليهم. فعلى سبيل المثال، كان الإنكيون يعتمدون في غذائهم على محاصيل موطّنة، مع أن عملية التوطين بدأت خلال عصر ما قبل الفخار. وكان الإنكيون معروفين أيضاً بنظم طرقهم، على أنها كانت صياغة وتوسيعاً لنظام طرق مبكر بنته ثقافة الأواري Huari في الأفق الأوسط. لذا ستوصف في ما يأتي التطورات الثقافية الكبيرة في كل حقبة وصفاً موجزاً.

حقبة ما قبل عصر الفخار (؟- 1800 ق-م)

تبتدئ هذه الحقبة بوصول البشر إلى أمريكا الجنوبية. فقد جاء سكان نصف الكرة الشرقي الأصليون من شمال شرق روسيا، وهم يطاردون الحيوانات عبر جسر بيرنغ Bering البري. وكان هذا الجسر البري موجوداً في مكان مضيق بيرنغ (الذي يفصل آلاسكا عن روسيا) اليوم. إذ كانت مستويات البحر خلال العصر الجليدي الأخير أدنى مما هي عليه اليوم، لذا كان المضيق أرضاً جافة فعلاً. وثمة معبر بديل، يلقى تأييداً كبيراً لدى بعض المهتمين، بمحاذاة ساحل المحيط الهادئ. وبعد أن يعبروا الجسر البري أو يسيروا على امتداد الساحل، ينزحون جنوباً عبر كندا وأمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى، ليصلوا في

نهاية المطاف إلى أمريكا الجنوبية.

أما التاريخ الفعلي لوصول هؤلاء الناس إلى أمريكا الجنوبية فهو موضع جدال. لكن هناك تأريخ مقبول عموماً إلى حد ما هو تقريباً 13,000 ق.م، على أن بعض البشر ربما وصلوها قبل ذلك التاريخ. في مطلع هذا العصر، كان الناس يعيشون في مجموعات صغيرة من 25 إلى 50 فرداً. وكانوا يصطادون حيوانات برية ويجنون محاصيل برية. وكانوا رحلاً يتنقلون كثيراً سعياً وراء الغذاء والمأوى. وعلى أساس ثقافات لا زالت اليوم تواصل نمط الحياة نفسه، يمكن القول إن الرجال ربما كانوا يصطادون حيوانات، فيما تتولى النساء جني المحاصيل. أما على امتداد الساحل، فيشترك الجنسان في الصيد وجمع المحار وغيرها من الموارد البحرية.

لكن بمضي الوقت، راحت هذه المجموعات تتعلم الكثير عن خصائص الأنماط البيئية التي تعيش فيها- المناخ الساحلي، المرتفعات، أو التلال السفحية - والمكوث في مناطق أكثر تحديداً مثل واد واحد أو حوض نهر. وتعلموا دورة تكاثر النباتات والحيوانات، وفي نهاية المطاف وطنوا أنواعاً من المحاصيل ودجّنوا حيوانات مثل اللاما والألبكا وخنازير غينيا.

بدأت عملية التدجين في عهد مبكر تماماً تقريباً حالما وصل الناس إلى هذه المنطقة، طبقاً لما تشير إليه بقايا عثر عليها في المرتفعات وبمحاذاة الساحل (برنغل Pringle 1998؛ ستوثيرت Stothert 1988). فقد دجنت اللاما والألباكا في 3000 ق.م، مع توطين الذرة والفاصوليا والقرع والبطاطا ويرجح أن محاصيل أنديزية أخرى وطنت في وقت سابق على هذا التاريخ (سمث Smith 1994—1995: 181). وعلى الساحل، لم تظهر المحاصيل الموطنة بكميات كبيرة إلاّ في نهاية عصر ما قبل الفخار؛ وعلى ما يبدو أنها لم تكن ضرورية بسبب وفرة الموارد البحرية.

بعد توطين محاصيل وتدجين حيوانات، تغير نهج حياة شعوب الأنديز الأساس. فقد أقيمت قرى مع استقرار الناس في موقع واحد ليكونوا على مقربة من حقولهم ومراعيهم. وصارت البيوت أكثر استقراراً واتساعاً، ولعل ذلك نتيجة لاتساع العائلات. ففي المرتفعات، وبعد التحول إلى نمط حياة زراعي، تطورت الأنماط الأساسية في استغلال مناطق البونا والكيشوا واليونغا.

على امتداد الساحل، أخذ الناس ينتفعون من موارد المحيط الهادئ الوفيرة في وقت مبكر جداً (ساندويس وال. Sandweiss et al. 1989). وقرابة 2500 ق.م، على أعتاب نهاية عصر ما قبل الفخار، حدثت زيادة في عدد المساكن المقامة بالضبط بمحاذاة الساحل، وزيادة مرتبطة بها في الانتفاع من الموارد البحرية. وظهرت الفلاحة في الوقت نفسه تقريباً، ومن المهم ملاحظة أن أول محصولين في الساحل وطّنا في عهد مبكر وظهرا في الساحل هما القطن واليقطين، وكلاهما غير صالحين للأكل. وصار لهذين المحصولين أهمية من خلال استعمالهما في صناعة صيد الأسماك. إذ كان القطن يستعمل في صناعة خيوط شباك الصيد، واليقطين كعوامات للشباك. وتوجب أن تكون الحقول التي يزرع فيها هذان المحصولان في وادي التلال السفحية، التي توفر فقط مصادر الماء الرئيسة للزراعة.

ونشأ نمط حياة جديد بمحاذاة الساحل خلال هذا الوقت. إذ من شأن قسم من الذين يعيشون في وادٍ نهري أن يعيشوا بمحاذاة الساحل، حيث يصطادون، ويلتقطون المحار، ويجمعون الأعشاب وغيرها من الموارد البحرية. وكان شأن آخرين أن يقيموا على امتداد الأنهار، يزرعون اليقطين والقطن والفاصوليا والقرع. وكان المجتمعان يتبادلان منتجاتهم مع بعضهم بعضاً. وهذا يعكس أول تقسيم عمل بين المجتمعات الساحلية، وسيصبح هذا التقسيم أكثر تفصيلاً في حقب لاحقة.

ثمة تطور أخير شهدته حقبة عصر ما قبل الفخار تمثل ببداية اتساع نطاق المباني العامة. فحتى نحو 3000 ق.م، كان العمران كله في مجتمعات الأنديز بيوتاً أو مباني لإقامة طقوس أو أحداث اجتماعية. على أن بين العام 3000 و 1800 ب.م، شيدت مبان عدة في قرى، في المرتفعات وعلى الساحل على حد سواء. ويفسَّر وجود هذه البناءات بأنه يحمل غرضاً شعائرياً معيناً، بدلاً من أن تكون منازل أفراد. وكانت هذه البناءات أوسع بكثير من بيوت العائلات النموذجية، وترتفع إلى نحو عشرة أمتار (33 قدما) على المشهد العام المحيط بها. ويعكس حجمها مقداراً كبيراً من العمل المنسق، ما يؤشر أن هذه المجتمعات لم تكن أوسع بكثير من سابقاتها وحسب، بل إن زعماءها كانوا يتولون شؤونها أيضاً. وبالتالي، لا نرى في هذا برهاناً على أول تقسيم للعمل خلال ذلك العهد وحسب، بل إننا نستدل منه على ظهور نوع من الزعامة أو الرياسة.

وتحمل مواقع عدة بمحاذاة الساحل أدلة على هذه التطورات الثقافية، من المنطقة المحيطة بالعاصمة ليما Lima اليوم حتى جوار تروخيلو Trujillo. وهناك مثالان على ذلك هما ساليناس دي تشاو Salinas de Chao، في وادي تشاو بشمال بيرو، وكارال Caral، في وادي سوب Supe وسط بيرو. فقد كانت ساليناس دي تشاو مستوطنة مأهولة حول خليج كان قد جف. إذ شُيد فيها هرم كبير جداً من تل، ربما كان يستعمل لإقامة الاحتفالات. وعلى مسافة قصيرة منه كانت هناك منطقة سكنى عنقودية من جهة منحدر التل. ومقابل البيوت كانت هناك حفرتان دائريتان غائرتان، لعلهما كانتا لأغراض شعائرية. كما أن نمط البناءين الشعائريين المختلفين ـ التل والحفرة الغائرة ـ يلمح إلى ممارسة أنواع مختلفة من الشعائر، لعلها من أجل التمييز بين الآلهة. ومثل هكذا دليل يؤشر أنه حتى في هذا التاريخ المبكر، كان لدى الناس حياة دينية غنية.

تقع كارال على نحو 20 كيلومتراً فوق نهر سوب Supe من جهة البحر. ويتكون الموقع من رواب كبيرة عدة تحيط بميدان في وسطها. وأمام بعض هذه الروابي ساحات دائرية غائرة، مثل تلك الموجودة في ساليناس دي تشاو. كما وجدت أنواع مختلفة من المساكن هناك، بعضها أكبر حجماً، على مقربة من الميدان، وتفسير ذلك أنها كانت بيوت عائلات حاكمة (شادي سوليس Shady Solis). ويشير حجم الموقع وكم العمل المبذول فيه إلى أن مجموعة كبيرة من الناس قد تولت بناءه، وعليه يرجح أن أفراداً معينين كانوا ينفذون تلك الأعمال. بل وذهب بعضهم إلى القول إن أناساً من مجتمعات فلاحية ومجتمعات تصيد السمك على حد سواء، ومن مناطق كثيرة، ساهموا في العمل. كما أن استعمال أكياس مشبكة لحمل صخور البناء، يسمونها شيكرا shicra، تشير إلى أن على المجموعات المختلفة الإسهام بكمية محددة من الصخور في النشاط العمراني. وهذا يشير بدوره إلى وجود تخطيط تضعه على الأرجح سلطات وتتولى شأنه. واستعمال أكياس مشبكة في البناء معروف في مواقع معاصرة أخرى، مثل أسبيرو Aspero، التي تقع عند ثغر وادي سوب، وإيل باريزو El Paraiso، على مقربة من العاصمة ليما اليوم.

وحدثت تطورات مشابهة في المرتفعات إلى الشرق من الساحل. إذ ظهرت تلال المعابد خلال هذا الوقت في موقع كوتوش Kotosh، قريبا من أوانوكو Huánuco الحديثة، وفي لا غالغادا La Galgada، وهو موقع ناءٍ على أحد روافد نهر سانتا Santa في شمال
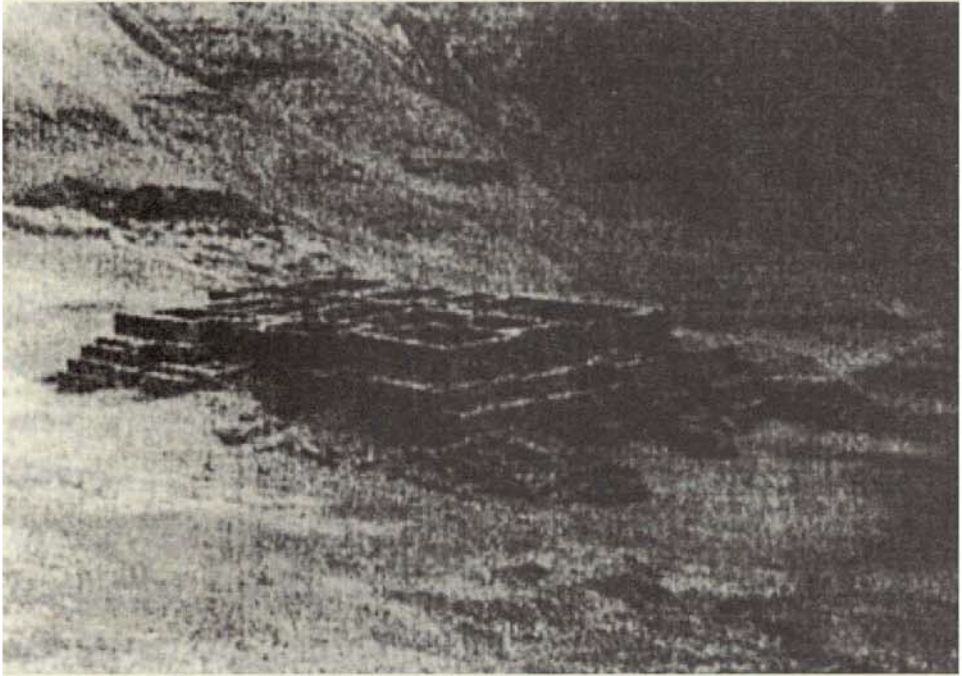
مجمع غرف معاد بناؤه في إيل باريزو، بوادي تشيلون، بيرو.

بيرو. وهذه المعابد أصغر عموماً من تلك التي وجدت بمحاذاة الساحل، مما يشير إلى أن المجموعات التي بنتها كانت أصغر عدداً من تلك.

ثمة سمة لافتة يشترك فيها كل من كوتوش ولا غالغادا ألا وهي وجود غرف صغيرة فيها مصطلى، أو موقد، حيث كانت تحرق القرابين. وكان للمواقد قصبة تهوية تمر تحت الأرضية إلى خارج الغرفة. ووظيفة القصبة توفير الهواء إلى النار، مما يسمح لها بالاشتعال. وهذا الأسلوب المميز في بناء غرفة ممارسة الشعائر يؤشر إلى أن الطقوس التي تجري فيها كانت هي نفسها عند الجانبين، ومن ثم فبوسعنا الاستنتاج أن المعتقدات الدينية كانت هي نفسها أيضاً. ويطلق على هذه الديانة الشائعة موروث الكوتوش الديني (بيرغر وسالازار - بيرغر 1980 Burger and Salazar—Burger). وقد عثر على هذا الموروث الديني في وقت قريب في مواقع ساحلية، ما يوحي بأنه ربما كان أكثر ذيوعاً مما كان يُعتقد سابقاً. أجل، يشير هذا الدليل إلى أن الناس كانوا يتواصلون ويتشاركون الأفكار الدينية على امتداد مساحة كبيرة عند نهاية عصر ما قبل الفخار.

الحقبة الأولية (1800 - 900 ق.م)

في أثناء الحقبة الأولية، ظهر الفخار، أو الأواني الطينية المفخورة بالنار، في منطقة البيرو الحالية. وقد ارتبط هذا التطور، على امتداد الساحل، باتساع استخدام الأغذية المصنوعة من المحاصيل الموطّنة. كما حدث تحول مثير في مواقع القرى؛ إذ هجرت العديد من القرى الساحلية وأقيمت مستوطنات في عمق المنطقة، بعيداً عن المحيط. لقد ابتدأ هذا التحول في وقت مبكر في المنطقة المحيطة بكارال، لكن انتشاره تزايد خلال هذه العصر. إذ يظهر أن الحركة باتجاه الداخل ترافقت مع تطور جديد مهم ألا وهو الري. فقد أقيمت مدن في مواقع يمكن فيها أخذ الماء من الأنهار بوساطة قنوات صغيرة لسقي الحقول. وهذا ما أتاح توسعاً في الزراعة. وحتى على الرغم من أن العديد من قرى صيد السمك، التي أقيمت في وقت مبكر، قد هجرت، إلا أن بعضها ظلّ مأهولاً واستمر تبادل المنتجات البحرية بالمنتجات الموطّنة. إلاّ أن الزراعة صارت، في هذا الوقت الذي نتحدث عنه، أكثر وسائل إنتاج الغذاء أهمية.

تجدر ملاحظة أن التحول إلى أسلوب حياة زراعي يسنده استغلال الموارد البحرية، قد ظهر في عهد مبكر جداً في ساحل الإكوادور. فقد استقر الناس في تلك المنطقة وراحوا يزرعون، ويستخدمون الأواني الفخارية في وقت مبكر من العام 3000 ب.م في ثقافة عرفت باسم فالديفيا Valdivia (برنز Bruhns 1994: 82–85). أما لماذا تطور نمط الحياة هذا في الإكوادور قبل 1,200 عام عن ظهوره في بيرو، فهذا أمر غير معروف.

وبالعودة إلى منطقة البيرو، فقد أصبحت مجتمعات ما قبل العصر الأولي، التي كانت تقيم بمحاذاة الساحل، أكبر حجماً من سابقاتها مجتمعات ما قبل عصر الفخار. وفي أعقاب انفتاح الصحراء على الزراعة بفضل الري، يبدو أن أعداد السكان تزايدت كثيراً. وصارت المعابد والدور العامة أكبر حجماً. وظهرت مراكز إقامة الشعائر: أماكن يأتيها الناس من منطقة واسعة في أيام مقدسة معينة للتعبّد، إلاّ أن هذه الأماكن تسكنها مجموعة صغيرة من الكهنة وأعوانهم. وكان الناس غير المقيمين يوفرون بالتناوب الأيدي العاملة لبناء هذه المراكز، تحت إشراف زعماء ربما يكونون رهباناً هم أيضاً.

صارت هذه المجتمعات أكثر تمايزاً: فقد توسع تقسيم العمل الذي شهده عصر ما قبل الفخار. ففي هذا الوقت، تخصص الناس في مزاولة نشاط واحد وبوقت تام.

وتشير دلائل في وادي كاسما Casma، إلى مدى التعقيد الذي بلغته بعض المجتمعات (بوزوسكي وبوزورسكي Pozorski and Pozorski 1987). إذ وجدت هناك بضع قرى صغيرة بمحاذاة شاطئ البحر، حيث كان الناس يصطادون السمك ويجمعون المحار. ويبدو أن هذا الغذاء كان يؤخذ الى سلطات في قرى قريبة، تنقله بدورها إلى مدينة كبيرة جداً، بامبا دي لاس لاماس- موكسيك Pampa de las LIamas –Moxeque، التي كانت تقع بوسط الوادي. وكانت المحاصيل تزرع في مكان آخر من الوادي، وكانت تجلب أيضاً إلى المدينة الرئيسة. وأُقيمت هنالك مخازن كبيرة جداً لحفظ تلك المنتجات كلها، التي كان يستعملها بالتناوب صيادو سمك، وفلاحون، وأفراد من المجتمع من غير منتجي الغذاء (بوزورسكي وبوزورسكي Pozorski and Pozorski). فكان الفلاحون يحصلون على الأسماك، وصيادو الأسماك يحصلون على المحاصيل الغذائية من المخازن. ويبرهن هذا الدليل على وجود نخبة ريفية، وهم مجموعة من الناس كانوا متفرغين تماماً لتوجيه أعمال الناس وتصريف بضائعهم الى الوجهة التي يريدونها. أما مسؤولو النخبة فيعيشون في البلدة الرئيسة وفي القرية الصغيرة حيث يجلب غذاء المحيط من قرى صيد السمك.

ظهرت دويلات (وهذا تعبير عام يشير إلى مجموعة سياسية من نوع ما) كلها بمحاذاة الساحل خلال الحقبة الأولية، مما يشير إلى أن المجتمعات صارت أكبر حجماً وأكثر تخصصاً. إذ شمل تقسيم العمل في هذه المرحلة المسؤولين الحاكمين، وليس منتجي الغذاء فقط. فقد كانت هناك نشاطات حرفية، من قبيل صناعة الأواني الفخارية وأعمال الصخور، كانت كلها أعمالاً تستدعي التفرغ لها تماماً، على أن ما من دليل بيّن على ذلك. إذ كان لدى حكام هذه المجتمعات، في هذه المرحلة، مسؤوليات أكبر بكثير مثل تنظيم الري، وتخطيط أنشطة البناء، والسهر على حصول الجميع على ما يحتاجون إليه. وما وجود أهرامات تلال في مواقع آثارية عدة أوسع وأكبر مما عليه في عصر ما قبل الفخار، إلاّ مؤشر على أن الدين في هذه المرحلة ما زال مهماً في حياة الناس. وعما إذا كان الزعماء الدينيون قادة سياسيين، فهذا أمر غير مؤكد، لكن يرجح أنهم كانوا كذلك.

تواصلت تطورات مشابهة في مناطق المرتفعات إلى الشرق من المجتمعات الساحلية، إلا أنها كانت حتى ذلك الحين بوتيرة أقل. فقد بنيت فيها معابد تلالية، لكنها كانت أصغر بكثير، ويبدو أنها تعكس اشتراك مجموعة أصغر من العاملين في بنائها. وهنا، لم
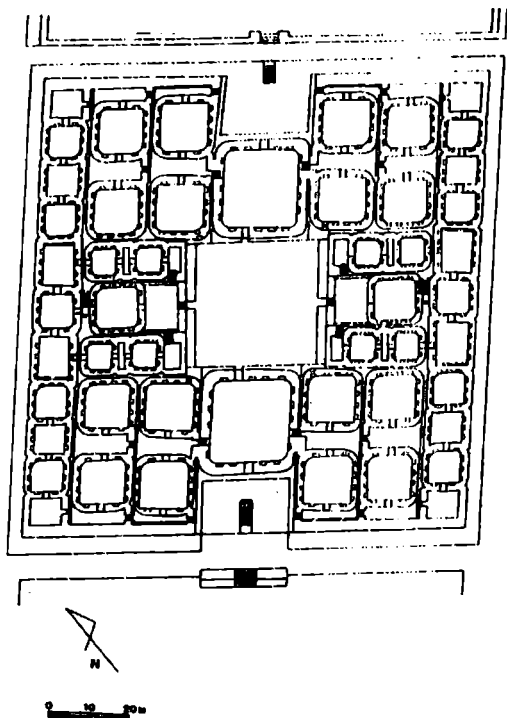
أواكا أ، منشأة خزن كبيرة في موقع بامبا دي لاس لاماس ـــ موكسيك، بوادي كاسما. رسم الخطوط توماس وشيلا بوزورسكي.

تظهر نخبة حاكمة قوية، بل ببساطة كان نمط الحياة فيها يواصل ما كان عليه في عصر ما قبل الفخار، مع إضافة صناعة الأواني الفخارية، وزراعة محاصيل جديدة، وربما ظهور رجال دين.

لم تكن التطورات في مناطق أخرى من الأنديز، بمستوى التقدم الذي شهدته المناطق المحاذية لوسط ساحل بيرو وشماله. ففي الإكوادور، استمر نمط الحياة الذي ابتدأ مع ثقافة فالديفيا على حاله خلال هذا العهد. وبقيت المجتمعات في غالبية مناطق الأنديز الجنوبية، في المرتفعات والساحل على حد سواء، تمارس نمط حياة حيّاً، وصيد سمك بسيطاً، أو نمط حياة فلاحياً ورعوياً. ونلاحظ في منطقة التيبلانو Altiplano وجود ثقافة تشيريبا Chiripa، التي بنت مركزاً شعائرياً يتألف من 16 بناية صغيرة مرتبة حول ميدان مربع الشكل. وهذا هو المثال الأول، في المرتفعات الجنوبية، عن نمط التمايز

المجتمعي الذي تطور قبلاً في أجزاء بيرو الأخرى.

الأفق المبكر (900 - 200 ق. م)

نحو مطلع العام 900 ق. م.، أو قبله في بعض المناطق، ظهر تطور ثقافي مميز في وسط بيرو ألا وهو ثقافة: تشافين Chavin. إذ على ما يبدو، كانت التشافين ديانة من نوع ما أو طائفة انتشر تأثيرها بسرعة في مساحة واسعة، من المرتفعات الشمالية وساحل البيرو حتى المنطقة الساحلية جنوب مدينة ليما الحالية (بورغر Burger 1988). وتعرف التشافين بأسلوبها الفني المميز للغاية، الموجود على أشياء من مختلف الضروب: أحجار، عظام، صدف، رُقُم طينية، وقطع ذهبية. وهذا الأسلوب الفني انعكاس لمعتقدات دينية.

سميت هذه الثقافة باسمها هذا نسبة إلى موقع تشافين دي وانتار Chavín de

منحوتة صخرية لإله التشافين، اللانزون The Lanzón. يزيد ارتفاع هذا الشكل عن 3 أمتار (10 أقدام)، ومقره في المعبد القديم بموقع شافن دي أوانتار Chavín de Huántar، بوادي موسنا، بيرو.

Huántar، الواقع في وسط المرتفعات. وكانت هذه البلدة أكثر من مجرد مركز شعائري؛ إذ كانت مركزاً حضرياً حقيقياً، يقطنها عدد كبير من الفلاحين، والحرفيين، وآخرون غيرهم (بورغر Burger 1992). ويعد هذا الموقع من انصع الأمثلة إلى حد ما عن فن التشافين، وعليه فلابُدَّ من أن يكون مركزاً مهماً. وقد كان ينظر إلى هذا الموقع ملاذاً لمعتنقي عبادة التشافين، الذين جاؤوا إليه بعدما راح الناس يهجرون مراكز سابقة. إلا أن بحثاً أجراه جون رك John Rick 2005) وسيلفيا كيمبيل Sylvia Kembel 2001) يشير إلى أن تاريخ الموقع ربما يرجع إلى الحقبة الأولية ويعاصر مواقع تشافينية مبكرة أخرى.

تؤشر حقبة الأفق المبكر إلى زمن ما قبل التاريخ في منطقة وسط الأنديز، حيث صار التخصص بالحرف أكثر وضوحاً؛ إذ يستدعي التخصص بالحرف تكوين حرف يدوية ـ فخاريات، مجوهرات، ملبوسات، زينة، أدوات حجرية، وأمثالها ـ بيد متخصصين بها، أناس لا يعملون في أي مجال غير حرفتهم. وعلى الرغم من أن التخصص الحرفي ربما حدث في وقت أسبق (كما في وادي كاسما Casma الذي نوقش في ما سلف)، إلاّ أن خواص المصنوعات اليدوية التشافينية تبرهن على أنها تطورت بنحو أكبر في هذا الوقت. ويقتضي مثل هكذا تطور إنتاج الفلاحين والرعاة مزيداً من الغذاء، وكذلك اتساع عدد المسؤولين السياسيين لإدارة جوانب الاقتصاد كلها.

الأدلة على العبادة التشافينية متناثرة بنحو متباين جداً في الجزء الأوسط من بيرو. فبعض المجتمعات الساحلية جادت بأدلة وفيرة عن ذلك في فخارياتها ومبانيها. وبمحاذاة الساحل الشمالي، تبيّن الفخاريات المحلية، التي تدعى كوبيسنيك Cupisnique، تأثراً كبيراً باستعمالها الزخارف التشافينية. ويظهر هذا التأثر على المعابد أيضاً من خلال استعمال رؤوس كبيرة لشخصيات مصنوعة من اللَّبِن ووجوه بالتصميم التشافيني. وهذا يشير إلى اعتناق حكام هذه المنطقة هذه الديانة، وأبرزوا تعبّدهم بها على جدران المعابد.

في مناطق جنوب الساحل، في المنطقة المحيطة بالإنكا، تعرف ثقافة الأفق المبكر بـ«باراكاس Paracas». لم تكن هذه الثقافة بحجم أو بمستوى خصوصية الثقافات التي ظهرت إلى الشمال منه؛ فلم تشهد معابد كبيرة أو مباني عامة. على أننا نجد فيها دلائل على عبادة التشافين باستخدام تصاميمها على فخارياتهم. وهذا ما يشير إلى ذيوع هذه العبادة في أوساط مجتمع الباراكاس، وليس بين زعمائهم وحسب.

في مناطق أخرى عدة من الأنديز، لم يظهر تأثير التشافين، فبقيت مجتمعاتها على ما درجت عليه. ففي جنوب الأنديز، حول بحيرة تيتيكاكا، ظهرت ثقافتان متمايزتان بوكارا Pucara وتياواناكو Tiahuanaco خلال حقبة الأفق المبكر. وقامت بوكارا في الطرف الشمالي الغربي من البحيرة، وفيها بعض التشابهات مع ثقافة التشيريبا Chiripa السابقة، التي ظهرت في الطرف الجنوبي الشرقي من البحيرة. وتسمى هذه الثقافة باسمها هذا نسبة إلى موقع بوكارا، الذي هو مستوطنة واسعة من بيوت ومبان أخرى تمتد بمحاذاة نهر لكيلومترات عدة. مع ذلك، فإن الجزء الأكثر أهمية في هذا الموقع يتمثل بمجمع مبان كبير متدرج يتكئ على تل طبيعي. وتوجد في جزئه الأعلى مساحة مستطيلة غائرة تشبه كثيراً تلك الموجودة في التشيريبا. ولدى البوكارا أيضاً تقليد فخاري رائع، ذاك هو تقليد نحت الحجر.

تشير طبيعة موقع بوكارا الحضرية إلى أن ساكنيها كانوا يطورون مهناً مميزة، بقدر ما فعلت مجتمعات في أماكن أخرى. والأمر ذاته يصدق على تياواناكو (التي تقع خارج لاباز La Paz الحديثة، عاصمة بوليفيا)، التي صارت مدينة كبيرة خلال الحقبة الانتقالية المبكرة وفي الأفق الأوسط.

الحقبة الانتقالية المبكرة (200 ق.م- 600 ب.م.)

تتميّز هذه الحقبة باضمحلال تأثير التشافين. إذ يبدو أن شعبية هذه الديانة تضاءلت، وراح الناس يتعبدون آلهات أخرى. أما المجتمعات التي تأثرت في السابق بديانة التشافين، فقد طورت أساليب فنية متميزة خاصة بها. واستمر تزايد أعداد مجتمعات ساحلية، مما أدى إلى زيادة التخصص بالعمل، واتسع نطاق الدويلات. وبدأت الحروب بلعب دور أكبر مع اتساع المجتمعات. فللمرة الأولى، راحت ثقافات صغيرة تهيمن على وديان عدة. إذ سيطرت تياواناكو في المرتفعات على منطقة أكبر من واد نهري واحد.

كانت موتش Moche، أو موتشيكا Mochica، في ساحل بيرو الشمالي، هي الثقافة الأكثر شهرة في الحقبة الانتقالية المبكرة. وغزا هذا المجتمع مناطق إلى الشمال والجنوب من موطنهم في وادي موتش. وتتوافر لدينا معلومات كثيرة جداً عن الموتش بسبب من فخارياتهم بديعة الصنع والمزخرفة بمشاهد من أنماط حياتهم. وطبقاً لما يرى كريستوفر

دونان Christopher Donan (1988، 1990)، وهو أحد أبرز المرجعيات المعرفية في الموتش، كان يحكم الموتش كهنة محاربون يمارسون طقس شرب دماء أسراهم، وتحت هؤلاء الحكام، كان هناك أفراد آخرون سياسيون ورجال دين لعبوا أدواراً بارزة في مجتمع الموتش. وكان لدى الموتش مجموعات متكاملة من الحرفيين الذين كانوا يصنعون حرفيات متقنة من ذهب وفضة ونحاس وصدف وأحجار كريمة. أما الفلاحون وصيادو السمك فكانوا في أدنى السلّم الاجتماعي لديهم.

كان الموتش من أوائل المجتمعات التي نعرف أنها تدفن كبار أفرادها في تلال هرمية. وفي الحقيقة، كان أحد أهم المكتشفات الأركيولوجية عن القرن الذي عاشوا فيه، قبر أحد أمراء الموتش عثر عليه في سيبان[1] Sipán، في وادي لامبايك Lambayeque عند الساحل الشمالي (الفا Alva 1988، 1990). ويحتوي هذا القبر على تشكيلة رائعة من

(1) موقع أركيولوجي موتشي في شمال بيرو مشهور باحتوائه على قبر «ال سينيور ده سيبان El Señor de Sipán (سيد سيبان)، الذي كشف عنه الأنثروبولوجي البيروفي والتر ألفا Walter Alva في 1987 (م).
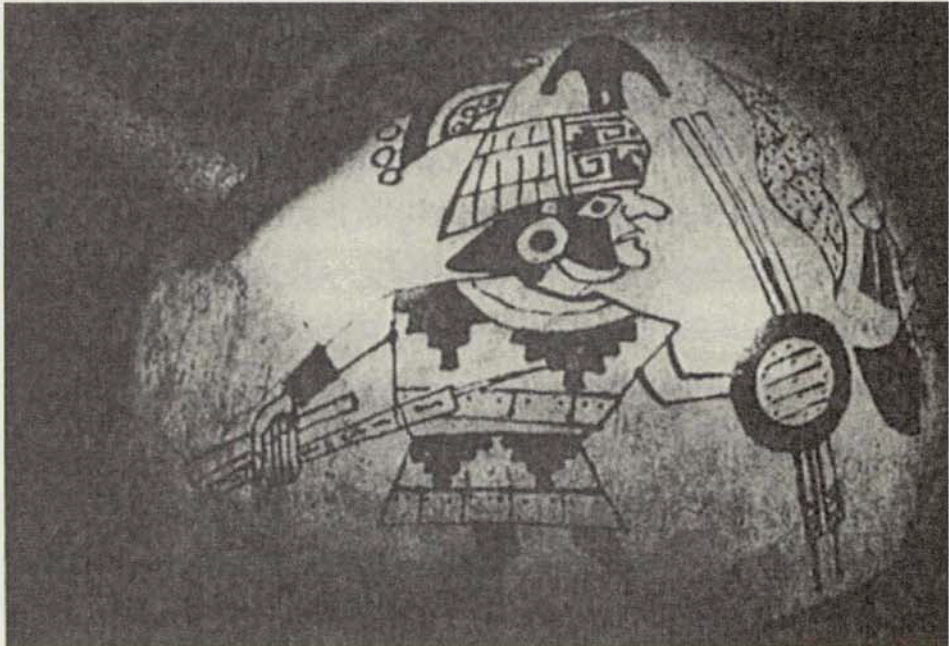
إناء موتش، يبين شكل محارب بكامل ملبسه الحربي. هذا الإناء من مجموعة في متحف فويب هيرست الأنثروبولوجي، جامعة كاليفورنيا، بيركلي، واستعملت صورته هنا بإذن من المتحف. والصورة منحة من دونالد برولكس.

أشياء ذهبية وفضية، وآلاف القلائد من الصدف والريش، وأحجار كريمة أخرى، وكلها محفوظة في وسط جاف. على أن الأكثر أهمية يتمثل في الاكتشاف الذي بين أول مرة أن الأشكال المرسومة على أواني الموتش لم تكن أسطورية، بل حقيقية، وبأن المشاهد كانت مأخوذة عن حياتهم الحقيقية، وليس رسومات خيالية عن أربابهم. ويتضح من الأواني، والقبور في سيبان، وآثار أخرى، أن الموتش فاقوا المجتمعات التي سبقتهم تطوراً وقوة.

لم تبلغ مجتمعات في مناطق أخرى من الساحل، مستوى تطور الموتش السياسي، إلا أنها بقيت أوسع حجماً وأكثر تمايزاً عن مجتمعات سابقة. فقد تطورت ثقافة ناسكا Nasca في منطقة الساحل الجنوبي كثيراً عن ثقافة باراكاس Paracas المبكرة. ويشتهر هذا المجتمع بأوانيه كثيرة الألوان وأنسجته وتقاليده الغريبة في الرسم على الأرض، أي يحفرون على سطح الأرض خطوطاً واشكالاً معينة. وغالباً ما يشار إلى هذه الرسومات باسم خطوط نازكا Nazca Lines (وتكتب «نازكا Nazca» للإشارة إلى الموقع الجغرافي؛ فيما تكتب «ناسكا Nasca» للإحالة إلى الثقافة القديمة التي قامت في منطقة نازكا Nazca).

تتضمن الرسوم الأرضية خطوطاً يصل طولها إلى كيلومترات عدة، وأشكالاً هندسية مستطيلة، وأشكالاً حيوانية. وهناك تفسيرات كثيرة لقيامهم بهذه الرسوم، تتراوح من عدّها فضاءات مقدسة إلى علامات فلكية. بل إن بعضهم رأى أنها ميادين نزول مخلوقات من الفضاء الخارجي! والحقيقة من الصعب القول بالضبط ماذا تعني للناس الذين وضعوها. إذ ترى هيلين سيلفرمان Helaine Silverman (1990)، وهي مرجعية معرفية في ثقافة الناسكا Nasca، أنها ربما كانت رموزاً مقدسة لدى مجموعات محلية من ذلك الشعب، أقاموها كجزء من طقوس يؤدونها لأربابهم. وتذكر سيلفرمان أن العديد من الخطوط تبدو أنها تقود إلى كاواتشي Cahuachi، أكبر مستوطنة ناسكانية ومن أكثرها تعقيداً. ذلك أن هذه المستوطنة تتكون مما يزيد على 40 تلاً بأحجام وأشكال متنوعة، إلا أنها تضم بيوتاً قليلة. وفي حين يرى بعض الباحثين أن كاواتشي كانت عاصمة سياسية لثقافة الناسكا، تذهب سيلفرمان إلى القول إنها مركز شعائري يؤمه الناسكانيون في أوقات معينة من السنة لإقامة طقوس معينة.

وبخلاف كاواتشي، هناك عدد قليل نسبياً من المدن الكبيرة لدى الناسكا. ويبدو أن السكان كانوا مشتتين في نواحي المنطقة بقرى صغيرة في مناطق الإنكا الوسطى ومصبات

نهر نازكا Nazca. وثمة ميزة يتفرد بها الناسكانيون في زراعتهم تتمثل بحفرهم أنفاقاً في جوانب التلال تصل إلى الممرات المائية الجوفية كي يسقوا منها حقولهم (شريبر وروجاس 1995 Schreiber and Rojas).

وفي مناطق المرتفعات، أصبحت مجتمعات الحقبة الانتقالية المبكرة أكثر تمايزاً أيضاً، على أنها لم تبلغ مستويات التعقيد التي ظهرت لدى ثقافة الموتش.

ففي منطقة بحيرة تيتيكاكا، صارت ثقافة تيواناكو، التي ابتدأت تتشكل في حقبة الأفق الأول، قوة سياسية كبيرة. وكانت عاصمة هذه الثقافة مدينة تيواناكو، التي كانت مركزاً حضرياً واسعاً يتوسطه مجمّع لإقامة الطقوس يتألف من باحات عدة واسعة مسيّجة، ورابية واجهتها من حجر. وكانت المدينة تعكس تنظيماً رمزياً عن العالم، الذي كان يملكه حكامهم (كولاتا 1993 Kolata). ويتضح من طراز عمارة المدينة أنها كانت مُعَدّة لاستيعاب جمهور كبير، ذلك أن هناك تركيزاً على وجود ساحات واسعة ومنصات تستوعب العديد من الأفراد. ومن المرجح أن تياواناكو كانت مركز حج، تستقطب المؤمنين، الذين يأتونها لزيارة مواضعها المقدسة (أسبيل وفرانيك Isbell and Vranich 1993: 258). وكانت هناك حول قطاع المباني الطقوسية مساحة أوسع، يحتمل أن فئة قليلة من أبناء ذلك المجتمع كانت تعيش فيها وتعمل (كولاتا 1993 Kolata: 258). وكانت هناك في المنطقة العامة حول تياواناكو، مراكز سياسية أخرى أدنى أهمية، فضلاً عن قرى فلاّحية.

تقع تياواناكو في الألتيبلانو[1]، وتمتد كامل مناطقها فعلياً في منطقة البونا. وبسبب ارتفاعها، تصعب كثيراً الزراعة فيها، لذا فكل ما ينمو فيها هو البطاطا ومحاصيل أخرى تقدر على العيش في هذه المنطقة. فضلاً عن ذلك، فإن الأرض على مقربة من بحيرة تيتيكاكا، منبسطة ومناسيب المياه فيها عالية، الأمر الذي يجعل من الزراعة شيئاً صعباً. ويستخدم أهل تياواناكو طريقة بارعة في إنشاء حقول مرتفعة للتعامل مع هذه المشكلات. ويُقام الحقل المرتفع بحفر خندق ومراكمة التراب على أكتافه لتتكون مساحة أعلى من الخندق. وبإقامة خنادق عدة متجاورة وربط أخاديد التصريف مع بعضها البعض، يحصلون على نظام من مساحات منخفضة، وهي الخنادق، التي تملأ بالماء، ومساحات

(1) Altiplano: الهضاب الواسعة الواقعة وسط أمريكا الجنوبية (م).

مرتفعة، وهي الحقول، حيث يمكن زراعة محاصيل. أما منافع الحقول المرتفعة فهي أنها (1) تسمح لهواء الليل البارد أن يتخطى الحقول وينزل إلى الأخاديد، وهذا ما يقلل من مخاطر الانجماد، و(2) توفر أفضل تصريف للمزروعات. وتشير التجارب مع الحقول الحديثة المقامة على الطريقة القديمة إلى أنها أكثر إنتاجية من الزراعة من دون حقول مرتفعة (إركسن Erickson 1988).

وطور حكّام تياواناكو نظاماً واسعاً من الحقول المرتفعة لزيادة غلال المحاصيل، ليفيدوا من ذلك في تغذية السكان والتجارة فيها على حد سواء. وبسبب من أن الكثير من المحاصيل المهمة من قبيل الذرة والفاصوليا واليقطين والفواكه، لا تقوى على النمو في الألتيبلانو، لذا كان يتوجب الحصول عليها من الأقاليم المنخفضة، السفلى. ويُعتقد أن أحد أبرز الأسباب في نمو تياواناكو هو التجارة التي تطورت بينها وبين مدن وقرى تقع في ارتفاعات منخفضة. وقد عُثِرَ على أوانٍ منتشرة بنحو واسع في مستوطنات في أنحاء جنوب الأنديز جميعها، من شمال غرب الأرجنتين وشمال شيلي حتى جنوب بيرو. كما أسست تياواناكو مستعمرات في هذه الأقاليم، إلا أنها كانت متمايزة عن مستوطنات جماعاتها المحلية.
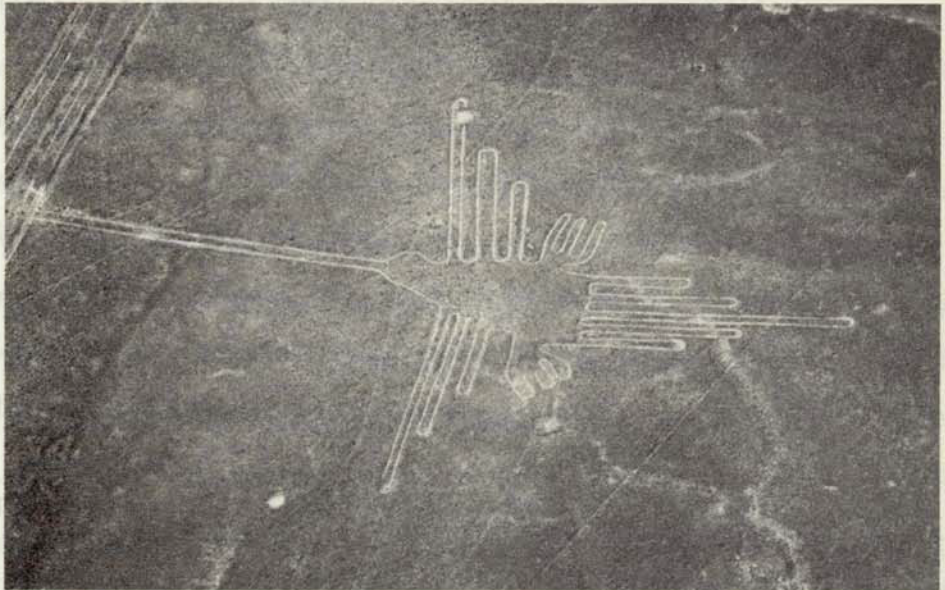
خطوط ناسكا محفورة في الأرض على هيئة طائر مرفرف

كانت التجارة تجري بقوافل اللاما. فمنطقة الألتيبلانو ممتازة للرعي لتوافر مساحات فسيحة من المروج فيها. وكانت حيوانات اللاما تستعمل لنقل منتجات الأراضي المرتفعة إلى الأقاليم المنخفضة في مقابل الحصول على محاصيل الأخيرة. وكانت الألباكا تربى من أجل أصوافها، التي كانت لا شك إحدى صادرات هذا الإقليم وكانت تستعمل أيضاً في صناعة ملبوسات دافئة لسكان الإقليم المحليين.

ثمة دلائل قليلة على أن انتشار تأثير تياواناكو خارج الألتيبلانو كان بفعل غزوات، ذلك أن مستوطنات قليلة نسبياً كانت محصنة في مناطق أخرى، في هذا العصر. بل والأرجح أن تأثيرها قد اتسع من خلال الاتصالات التجارية. زد على ذلك، لعلّ انتشار معتقدات تياواناكو الدينية قد حدث بوصفه نتاجاً جانبياً للأنشطة الاقتصادية؛ إذ يأتي أفراد من مركز الألتيبلانو ذي السطوة إلى قرى صغيرة وبلدات، وبداع من كبر شأنهم وعلو مقامهم، يسعى الناس في هذه الأماكن إلى التشبه بهم، ومن بين ذلك اعتناق ديانتهم. لذا انتشرت أواني تياواناكو وصورها الدينية في مساحة واسعة من دون الحاجة إلى توافرها على جيش جبار.

الأفق الأوسط (600 ب.م. 1000)

الأفق الأوسط هو الحقبة الثانية التي أُلحقت خلالها مساحات واسعة بالسلطة الثقافية. فقد شهد هذا العصر توسع مجتمعين قويين: انتشر أحدهما بالأنشطة الاقتصادية، والآخر بوسائل عسكرتارية[1]. فالأول، وهو مجتمع ثقافة تياواناكو، سبق وأن نوقش. وواصل توسعه خلال هذه الحقبة، على الرغم من انه راح يتدهور باتجاه نهايته. أما الثقافة الأخرى، وهي الأواري Huari، فقد كانت تقع في المرتفعات البيروفية الوسطى على مقربة من مدينة أياكوتشو[2] Ayacucho الحديثة. ويظهر أنها بدأت تتشكل في بدايات حقبة الأفق الأوسط، ثم راحت تتوسع حتى انهارت نحو العام1000 ب. م.، أو بعده بقليل.

(1) إشاعة المظاهر العسكرية وسطوتها بغاية تحقيق مصالح معينة (م).

(2) تعني في لغة الكيتشوا «مدينة الدم»، مدينة ومقاطعة في بيرو، وهي عاصمة ولاية وامانغا Huamanga، وإقليم اياكوتشو. وتقدر مصادر تاريخية عمرها بـ 15,000 عاماً ويشهد بذلك ما اكتشف من بقايا بشرية في كهف بيكيماتشي Pikimachay الذي يقع في وادي أياكوتشو. وتعد هذه المكتشفات دليلاً على أقدم وجود بشري في أمريكا الجنوبية، إلى جانب رابية فيرد Verde في شيلي وبيدرا فورادا في البرازيل (م).
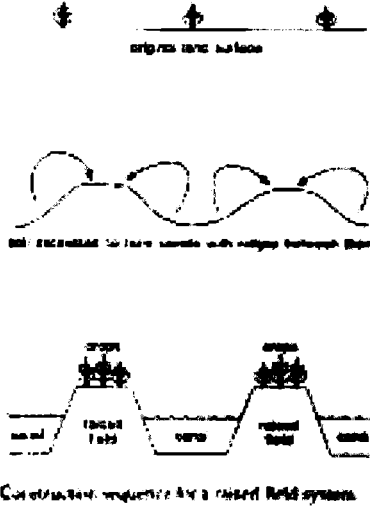
ترتيب بناء لنظام حقل مرتفع عن الأرض

أحد أكثر المظاهر لفتاً للنظر في هاتين الثقافتين هو التشابه في الزخارف التي يضعونها على أوانيهم. فكلتا الثقافتين تستخدمان الأساليب الشكلية الأساس نفسها: شكل إنسان يفرد ذراعيه ممسكاً بعصا في كل ذراع، وأشكال أخرى يتراءى فيها أنه يركع أمام ملائكة أو يسابقها. على أن هناك اختلافات بين أساليب الثقافتين، من قبيل حضور شكل الأنثى في أواني الأواري (برنز Bruhns 1994: 247). لذا فإن افتراض أن هذه الأشكال مقترنة بالمعتقدات الدينية لدى هذه الشعوب، قد يدعو إلى افتراض أنهم يتشاركون معتقدات متشابهة، هذا إن لم يكونوا يعتنقون المعتقدات نفسها.

على أن المعتقدات المشتركة هي الأشياء الوحيدة فعلياً التي تتشاركها الثقافتان. وكما ذكر في ما سبق، يظهر أن تياواناكو قد بسطت تأثيرها عبر وسائل اقتصادية ودينية. وعلى النقيض من ذلك، يبدو أن الأواري زادت من تأثيرها بوسائل عسكرية (أسبيل وماك إيوان، شريبر Isbell and MacEwan 1993; Schreiber 1992). ويعتقد بعض الأركيولوجيين أن تأثير الأواري، كما الحال مع تياواناكو، كان اقتصادياً (موزيلي Moseley 1992). وكانت حاضرة هذه الثقافة هي موقع أواري، الذي يقع قرب أياكوتشو في مرتفعات شرق ليما اليوم. وكحال تياواناكو، كانت المدينة واسعة جداً وموزعة على أزقة. وبخلاف تياواناكو، لا تبدو غالبية المباني الكبيرة ذات طبيعة طقوسية؛ بل لعلها بالأحرى كانت

مراكز صناعات حرفية وتخزين، فيما كانت الزراعة تمارس خارج المدينة.

وعلى النقيض من هضاب الألتيبلانو، فإن التحديد الأكبر للزراعة في هذه المناطق ـ وفي الحقيقة في الكثير من أودية مرتفعات الأنديز الوسطى ـ تمثل بشح توافر الأراضي المنبسطة واضطراب معدل هطول الأمطار سنوياً. وعمد شعب الأواري إلى التقليل من هذه المخاطر ببناء مصاطب، تقام بإنشاء سور حجري وتملأ المساحة التي خلفه على المنحدر بتراب. فالمصاطب توفر مساحات منبسطة للزراعة؛ وكانت الواحدة تبنى عموماً أعلى من الأخرى، مثل سلالم ترتقي سفح الجبل. فضلاً عن ذلك، كانوا يحفرون قنوات ري لجلب الماء إلى المصاطب. وأحد التطورات المهمة خلال الأفق الأوسط على مدى عصر التأثير الأواري، تمثل بازدياد عدد المصاطب. وهذا يشير إلى أن الأوراي هي التي أدخلت تكنولوجيا المصاطب على شعوب أخرى.

ويشاهد تأثير الأواري في ظهور أوانيها النموذجية في مناطق بعيدة عن أياكوتشو وفي طراز البناء المتميز للغاية الذي حملته مراكزها السياسية (أسبيل Isbell 1993). وفرضت الأواري سيطرتها على البقاع المفتوحة من خلال إقامة مراكز ضخمة كانت تفيد كمستودعات ومقرات إقامة لحكام هذه البقاع. وتقع هذه المراكز إلى أقصى الشمال من إقليم كاخاماركا Cajamarca في المرتفعات البيروفية الشمالية. وإلى الجنوب، توقفت إمبراطورية الأواري حيث بدأت تياواناكو، في جنوب بيرو. وعلى ما يبدو فإن كلا الإمبراطوريتين كانتا متعاديتين، على الرغم من أن حدوث صراع بينهما أمر غير مؤكد.

لا يتفق الأركيولوجيون على طبيعة العلاقة الموجودة بين تياواناكو وأواري. إذ يظن بعضهم أنه بداع من تطور تياواناكو في وقت أسبق، فإنها المؤثرة في نمو الأواري وتوسعها. بيد أن آخرين يذهبون إلى القول إن هاتين الثقافتين كانتا مختلفتين اختلافاً يقتضي تطور كل واحدة منهما بمعزل عن الأخرى. ويبقى قائماً تحديد سبب تشاركهما المعتقدات الدينية فيما كانتا مختلفتين من جهة أخرى.

استمر بعض المجتمعات بالنمو حجماً، وتعقد سياسياً في شمال الأنديز، خارج محيط التأثير الأواري، فيما بقيت مجتمعات أخرى صغيرة وبسيطة. فقد برز مجتمع جديد قوي، هو سيكان Sicán ، في ساحل بيرو الشمالي في أعقاب أفول الموتش. وقد واصلت هذه الثقافة ممارسة بعض تقاليد الموتش: إذ كانوا يدفنون ملوكهم مع ممتلكاتهم الضخمة التي

شكل إله، من بوابة الشمس، تياواناكو، بوليفيا. الصورة منحة من لارس فوجلن Lars Fogelin

تتمثل بأشياء من ذهب وفضة ونحاس وبرونز؛ وفخارياتهم مصنوعة بإتقان؛ ويتوافرون على أدوات خشبية وأصداف غريبة ويقدمون أُضحيات بشرية. ووسعوا من اتصالاتهم بثقافات الشمال في الإكوادور، ومارسوا تجارة البضائع مع المجتمعات كلها التي كانت قائمة في بلدات أخرى (برنز Bruhns 1994: 294—97; Shimada 2000).

الحقبة الانتقالية المتأخرة (1000 ـ 1438 ب. م.)

كانت هذه الحقبة أيضاً عهد تطورات إقليمية، في حين كان اندماج تأثيرات الأواري وتياواناكو ينهار. إذ راحت ثقافات محلية توجد سبلها في مزاولة أمورها، وهذا ما انعكس

في ظهور تقنيات تزيين جديدة، بخاصة على الأواني. واستمر عدد السكان بالنمو، إلا أن هذه الحقبة اتسمت بتزايد الصراعات، داخل ثقافات محلية وبينها. وانتقلت مستوطنات عدة إلى مواقع يمكن الدفاع عنها، بخاصة في أعالي التلال. وصارت الأسوار وغيرها من البنى الدفاعية الأخرى، أشياء مألوفة بنحو أكبر. بل إن كتّاباً أسبان مبكرين، وبعضهم كان يسأل سكاناً أصليين عن نمط الحياة قبل الفتوحات الإنكية، لاحظوا أن هؤلاء الناس كانوا يتحدثون عن حروب كثيرة بين أسلافهم الذين سبقوا الإنكيين.

كان التنظيم السياسي في المنطقة، التي أصبحت في ما بعد تاوانتنسويو، متنوعاً تنوعاً كبيراً. فقد كانت بعض المجتمعات تشتغل في مستوى فلاحي بسيط نسبياً، في حين أن مجتمعات أخرى كانت تتوافر على حكومات معقدة، وتخصص حرفي، وطبقة حاكمة ناشئة. ولعل أكثر المجتمعات تعقيداً تمثل بمجتمع التشيمو Chimu في ساحل بيرو الشمالي. فقد توسعت هذه المجموعة إلى خارج وادي موتش وقت معين بعد العام 100 ب. م وفتحت الوديان كلها ابتداءً من لامبايك Lambayeque حتى المنطقة القريبة من ليما اليوم. وكانت هذه بأكملها ثقافة ساحلية، ولم يفتحوا أبداً مجموعات في المرتفعات المتاخمة لهم.

كانت عاصمة التشيمو مدينة تدعى تشان تشان Chan Chan، تقع على المحيط الأطلسي، خارج مدينة تروخيلو الحالية. وكانت مساحة هذه المدينة، المبنية كلها من اللَبِن، تزيد عن 6 كيلومترات مربعة (2,2 ميل مربع). وكان مركز المدينة يتكون من 10 مجمعات ضخمة مسوَّرة، يطلق عليها شيوداديلاس ciudadelas، تضم مخازن ومراكز إدارية ومساكن ملكية، ومدافن ملكية (دَي 1982b Day). وغالباً ما كان ارتفاع أسوار شيوداديلاس الخارجية يزيد عن 10 أمتار، ما يؤكد على الطبيعة الخاصة للأنشطة التي كانت تجري في داخلها. ولربما تأثر شكل شيوداديلاس وتصميمها بالمراكز الإدارية الاوارية Huari، هذا على أن الإمبراطورية الأوارية لم تتوسع إلى الساحل الشمالي.

كانت تتناثر حول الشيوداديلاس مجمعات صغيرة تستخدم كمساكن وأماكن عمل زعماء سياسيين ذوي مستوى أدنى. وهناك أيضاً مبان أصغر عدة كانت تمثّل بيوت الحرفيين وورشهم. وكان الحرفيون يعتمدون على مجمعات صغيرة تزودهم بالغذاء والماء، فيما كانت البضائع التي يصنعونها توزع على المجمعات الصغيرة والشيوداديلاس. وفي

سور خارجي في شيوداديلاس في تشان تشان، وادي موتش، بيرو.

ما يبدو أن سكان تشان تشان لم يكونوا جميعاً من منتجي الغذاء. فقد كان الفلاحون يعيشون في مستوطنات منعزلة أقيمت بين الحقول في وادي موتش، ويأتون بمنتجاتهم إلى المدينة، إما إلى شيوداديلاس أو إلى المجمعات الصغيرة، ثم توزع المنتجات من هذه الأماكن على الحرفيين (كلايمايشن 1982 Klymyshyn; 1982 Topic). وأقامت التشيمو مراكز إدارية في أودية أخرى لجمع الغذاء وتصنيع حرفيات من قبيل الحياكة. ولا زالت طبيعة علاقة هذه المراكز بتشان تشان غير مفهومة بنحو واضح. وكانت الأواني المنتجة في مستوطنات التشيمو ذات لون أسود مميز وكانت تنتج بالجملة في قوالب. وتشف حرفيات أخرى عن مستوى عال من الجودة والمهارة. وتنقل روايات تاريخية إسبانية أن الإنكيين إثر غزوهم التشيمو عمدوا إلى أخذ أمهر حرفييهم إلى عاصمتهم كوزكو.

وفضلاً عن التشيمو، نشأت سلسلة من مجموعات سياسية أخرى في وديان عدة أسفل الساحل البيروفي والمرتفعات من الإكوادور حتى بوليفيا. وكانت غالبيتها تعيش في بلدات كبيرة، كان العديد منها محصناً إلى مدى معين. وإحدى هذه الثقافات الصغيرة يمثلها الإنكيون، الذين قطنوا مرتفعات بيرو الجنوبية. وخلال الحقبة الانتقالية المتأخرة، شرعوا بسلسلة فتوحات في نطاق ضيق، وتبادلوا زيجات تحالف مع مجموعات تعيش في المناطق المتاخمة لعاصمتهم كوزكو. وصارت هذه المجموعات في ما بعد بعض أشد حلفاء الإنكيين ولاء، وحمل هؤلاء شرف لقب «الإنكيين امتيازاً».

الأفق المتأخر (1438– 1532 ب. م.)

تبدأ هذه الحقبة قرابة العام 1438 ب. م، عندما هزم الإنكيون التشانكا Chanca وصار باتشاكوتي Pachacuti تاسع ملوكهم. أما كبريات الأحداث التي شهدتها حقبة الأفق المتأخر فقد وصفت في المقدمة، ولا يستدعي الأمر تكرارها هنا. وينتهي الأفق المتأخر بمجيء الإسبان وفتحهم بلاد الإنكيين، وهذا ما يتحدث عنه الفصل السابع.

إقامة صلة بما مضى

1. جد بعض المعلومات عن فخاريات الموتش من مصدر بيبليوغرافي أو من الإنترنت. ما الذي يمكننا تعلمه من دراستها عن نمط حياة الموتش؟
2. كانت التشافن ديانة عبادية انتشرت في شمال بيرو ووسطها. ما أوجه الشبه أو الاختلاف بينها وبين أديان قائمة الآن؟

الفصل الثاني

سياسة الإنكيين ومجتمعهم

مضى على الإنكيين زهاء قرن من الزمن قبل أن يتهيأ لهم إقامة إمبراطوريتهم. وكان هذا بحد ذاته انجازاً استثنائياً، على أن هناك إمبراطوريات أخرى كانت قد توسعت بسرعتهم، أو حتى أسرع منهم. فعلى سبيل المثال، تحقق للإسكندر الأكبر فتح الشرق الأوسط في أقل من ثلاثين عاماً. وغزو الشعوب أمر بسيط نسبياً؛ فكل ما يلزم لتنفيذه هو توافر عدد كبير من جنود مدربين تدريباً جيداً وقادة عسكريين فاعلين. بيد أن دمج الشعوب المفتوحة في إمبراطورية واحدة تحت سيطرة مركزية شأن أصعب بكثير. وهكذا هو الأمر تحديداً عندما تكون المجتمعات المفتوحة منتشرة على مساحة رحبة وعرة الأرض، كحال مرتفعات الأنديز. ولعل أكبر إنجازات الإنكيين يتمثل في ما يبدو بنجاحهم في تنظيم المجموعات التي فتحوها داخل إمبراطورية متماسكة. وهذا لا يعني القول إن إمبراطوريتهم كانت تدار بيسر، إنما على العكس تماماً، فتاريخ إمبراطورية الإنكا تاريخ تمردات وصراع. كما يظهر أيضاً أن الإنكيين لم يستعملوا سياسة دمج واحدة مع أي من المجموعات المفتوحة؛ بل بالأحرى كانوا يصوغون سياساتهم على أساس الظروف التي تخص كل مجموعة (مالباس 1993a Malpass).

تمثّل أحد أسباب نجاح الإنكيين باستعمالهم البنى السياسية والاجتماعية القائمة لدى الشعوب المفتوحة في حكم هذه الشعوب. فعوضاً عن السعي إلى تغيير طرائق حياة هؤلاء الناس، سعوا إلى الإبقاء عليها كي يقللوا إلى أدنى قدر ممكن إحداث اضطراب في حياة رعاياهم. فقد كان الإنكيون يرون علاقتهم مع البلاد المفتوحة علاقة معاملة بالمثل متواضع عليها (موريس 1978 Morris). بمعنى أن الإنكيين يتوقعون من هؤلاء الناس أن يعملوا لصالحهم، وبالمقابل، هم يزودونهم بالخدمات والبضائع والطعام والملبس وجعة الذرة والكوكا بل حتى وسائل ترفيه. لذا تراهم قلدوا قادة الشعوب المفتوحة مناصب سلطات حكومية، وكانوا يسبغون عليهم هدايا ثمينة، ويوقرون معتقداتهم الدينية وممارساتهم الحياتية. وفي مقابل ذلك، كان الإنكيون يتوقعون من هؤلاء الناس أن يخلصوا العمل لهم

كان المتحاربون في الأنديز يتقاتلون بالحراب
والهراوات والمقاليع والتروس.

في إنتاج غذاء وملبس وفخاريات ومبان وأشياء أخرى صغرت أم كبرت، وأن يكونوا رعايا طائعين لهم موالين لدولتهم. أما كيف نظم الإنكيون إمبراطوريتهم ليفعلوا ذلك، فهو موضوع هذا الفصل.

التنظيم العسكري وإدارة الحرب

لا شك في أن أحد الأسباب الرئيسة في نجاح الإنكيين في بناء إمبراطوريتهم تجسَّد بتنظيمهم العسكري. فتفوق جيشهم، وقادته، وتجهيزاته، وتكتيكاته، ساعدهم في إيقاع الهزيمة بأعدائهم. وكان جيشهم المنضبط انضباطاً عالياً يتألف في غالبيته من أفراد جُندوا من بين شعوب سبق وأن فتحوها. وكانت الحروب في الأنديز تحدث بمواجهات بالأيدي، وكان الجيش الإنكي مسلحاً تسليحاً جيداً على وفق مقاييس أهل الأنديز. وكانت الأحجار التي ترمى بمقاليع سلاحاً معروفاً يمكن استعماله من مسافة معينة، فيما كانت الصولجانات والهراوات والحراب تستعمل في اشتباكات قريبة. أما الأسلحة

الدفاعية فكانت تتضمن تروساً ومدارع قطنية (رو Rowe 1946: 274–79).

أحد أكثر الاعتبارات أهمية في الحرب هو توفير الغذاء والتجهيزات للجنود. ويصدق هذا الأمر على الإنكيين مثلما يصدق اليوم. وبالنظر إلى الكيفية التي وسعت بها جيوش الإنكا من إمبراطوريتهم، فإن مشكل توفير الغذاء لها فيما كانت تتقدم على مرتفعات الأنديز وسهولها، لا بد وأنه كان أمراً ضخماً. وتمثّل أحد مفاتيح هذا النجاح بنظام الطرق الذي أقامه الإنكيون (انظر مادة «الهندسة والعمارة» في ما بعد في هذا الفصل). إذ أقام الإنكيون طرقاً لربط مختلف أجزاء الإمبراطورية، ووضعوا بمحاذاة الطرق مدناً إنكية كبيرة، حيث يخزنون الغذاء واللباس. وكانوا يستثمرون العمال من الشعوب المفتوحة في إنتاج الغذاء واللباس للجيوش، وكذلك نقلها إلى حيث تدور معارك.

ما كان الإنكيون يعتمدون دوماً على القوة في إخضاع الجماعات الأخرى. فقد نقل كتاب إسبان أن الإنكيين كانوا يبعثون بممثلين عنهم في محاولة لإبرام شروط الرضوخ إليهم من دون قتال، ويبدو أنهم نجحوا في حالات عدة (رو Rowe 1946: 281). على أن مجموعات أخرى كانت أمام خيارين فإما القتال أو الفرار. وعمدت إحدى المجموعات إلى حرق حقولها وقراها أملاً بعدم تمكن الإنكيين من استخدام غذائهم وبيوتهم.

كانت الشروط التي يضعها الإنكيون لفتحهم بسيطة نسبياً إلا أنها قاسية. فملكية أراضي الشعب المفتوحة أرضه تؤول إلى ملك الإنكا، على أن لهذا الشعب حق استثمارها. إذ كانت الأرض تقسم إلى ثلاث حصص: واحدة للدولة الإنكية، وواحدة للديانة الإنكية، وواحدة لاستخدام الشعب المفتوحة أرضه. وكانوا يمنحون الزعماء المحليين مناصب في البيروقراطية الإنكية ويتيحون لهم ممارسة سيادتهم كما كانوا من قبل. هذا ويأخذون أبناء هؤلاء الزعماء إلى كوزكو ويدربونهم على السياسات الإنكية. فمن شأن ابن حاكم عجوز أن يخلف أباه بعد موته، فيأتي إلى الحكم حاملاً معرفته الجديدة ومنحى الإنكيين في الحكم. وأخيراً، يبيح الإنكيون للشعب المفتوحة أرضه البقاء على تعبّده أربابه، لكن على أبناء ذلك الشعب الإقرار برفعة أرباب الإنكيين. ويسبغ الإنكيون الإجلال على أشياء هذا الشعب المقدسة ببنائهم موضعاً مقدساً لها في كوزكو. وعلى الرغم من أن هذا يبدو فعلاً كريماً نبيلاً، إلا أن لدى الإنكيين داعياً سياسياً من ورائه: فهذه الأشياء المقدّسة تؤخذ رهينة تنطوي على تهديد مفاده أنه إذا

ما تمرد هذا الشعب، فلربما يعمد الإنكيون إلى المساس بقدسيتها أو تحطيمها.

الحكم

المناطق الأربع

المفتاح الثاني لنجاح الإنكيين في تشكيل إمبراطورية موحدة تمثل بتنظيمهم للشعوب المفتوحة بلادها. وينسب إلى باتشاكوتي Pachacuti، تاسع ملوكهم، إقامة دعائم الإمبراطورية وجعلها تشتغل بفاعلية، على الرغم من احتمال بدء تلك العملية في وقت سابق عليه (بوير Bauer 1992). فقد قسّمت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام، أو سويوس suyus، تنطلق خطوط عزلها عن بعضها من مدينة كوزكو، العاصمة. وكانت هذه الأقسام متساوية مع بعضها بعضاً في الحجم؛ فقسما الشمال (تشنتشايسويو Chinchaysuyu) والجنوب (كولاسويو Collasuyu) كانا واسعين، فيما كانت المنطقتان الشرقية (انتيسويو Antisuyu) والغربية (كونتيسويو Cuntisuyu) صغيرتين (انظر الخريطة الواردة في المدخل).

كانت كل منطقة متكونة من مقاطعات عدة. وتتألف المقاطعات من قسمين sayas أو ثلاثة، لعلها تتوازى مع التقسيمات الإثنية الموجودة. فلو كانت إثنية ما صغيرة، قد تضاف إلى أخرى صغيرة بغية تشكيل قسم saya واحد. ولو كانت مجموعة مستعمرة معينة كبيرة العدد، كحال التشيمو، قد توزع على أقسام عدة. وتتألف الأقسام المثالية من 10،000 أسرة، وعليه من شأن المقاطعة النموذجية أن تضم 20،000 أو 30،000 أسرة (دالتروي D'Altroy 2002: 232). فقد كانت الأسرة هي الوحدة الأساس في معظم مجتمعات الأنديز، وهذه تتطابق عموماً مع مفهوم العائلة الحديث. بيد أنه، وعلى خلاف مفهوم العائلة في مجتمع الولايات المتحدة (حيث تتكون العائلة من أم وأب وأبنائهما)، قد تضم العائلات الأنديزية أيضاً أجداداً وأحفاداً وعمات وأعماماً.

الإدارة

كانت إمبراطورية الإنكا تُسيَّر ببنية إدارية مُحكمة تجمع الخَراج وتوزعه. فعلى رأس

هذه البنية يقف الملك، الذي كان السلطة العليا في الأمور كلها. ودون الملك مسؤولون أربعة، يسمّون أبوس apos، يتولى كل واحد منهم شأن منطقة من المناطق الأربع. وكان هؤلاء المسؤولون مستشارين مقربين لدى الملك، والأرجح أنهم من أقربائه أيضاً. وكان على كل مقاطعة حاكم مسؤول عن شؤونها، وكان في العادة إنكياً من كوزكو. وكانت إمبراطورية الإنكا تضم ما يزيد عن 80 مقاطعة.

لقد أقيمت المقاطعة على أساس تكوّنها من 20،000 أسرة بغاية إدارة حكمها بفاعلية. فقد كان النظام تراتبياً، يكون فيه الحكّام بسلسلة مراجعهم مسؤولين أمام من هم أعلى منهم، وكانت الحسابات في هذا النظام تعتمد نظاماً عشرياً مثل حال معظم البلدان الحديثة في يومنا هذا. وكان بإمرة كل حاكم مقاطعة مسؤوليْن اثنين يُسميان كوراكا curacas، يتولى كل واحد منهما قسماً saya يضم زهاء 10,000 أسرة. وكان كل ساياكوراكا saya curacas، أي مسؤول القسم، مسؤولاً عن كوراكا (مسؤوليْن curacas) اثنين آخريْن، يتولى كل واحد منهما مسؤولية مجموعتين تتكون كل واحدة منهما من 5،000 أسرة. وهذان الكوراكا، المسؤولان، يشرفان على أنشطة خمسة كوراكا آخرين يتولى كل واحد منهم إدارة 1،000 من الأسر الخمسة الآف. وكان تحت هؤلاء كوراكا آخرون يتولى كل واحد منهم مسؤولية 500، و 100، و 50، و10 أُسر. وعادة ما يكون الكوراكا زعماء مجموعات إثنية مفتوحة، الأمر الذي يبين كيف كان الإنكيون يحكمون بوسائل غير مباشرة، بدلاً من زج ناسهم في المشهد السياسي المحلي بنحو مباشر.

ماذا كان كل أولئك الكوراكا يفعلون؟ كانت مسؤوليتهم الرئيسة السهر على العدد الملائم الصالح للعمل لدى الإنكيين، وتوزيع حجم العمل بين الأسر التي يتولى كل واحد فيها مسؤولية معينة فيه. ومن واجبات الكوراكا أيضاً ضمان إنتاج الكمية الدقيقة من الخراج ونقله إلى أقرب مركز إنكي وتخصيص قطعة أرض مناسبة لكل أسرة لتعيل نفسها بها. فإن أدى كوراكا curaca معين عملاً جيداً، يلقى مكافأة من مرؤوسيه؛ وإن لم يكن الحال كذلك، يلقى عقاباً منهم. وتتراوح العقوبات من التوبيخ العلني إلى القتل، تبعاً إلى ما إذا كان الفرد مجرد متهاون أو أنه محتال فعلاً.

القانون

يسري القانون الإنكي على أنشطة كثيرة من قبيل قوانين العشيرة، وتقسيم الأرض، وسياسة مناوبة العمل، بل حتى إعانة كبار السن والعاجزين (كندال Kendall 1973: 59). كان القانون الإنكي صارماً إلى حد بعيد، فهو يمتد إلى عقوبات على ارتكاب مخالفات كثيرة. وكلما كان مقام الفرد رفيعاً، كلما صارت العقوبة على جرمه أشد وطأة. على سبيل المثال، جزاء زنى واحدة من العامة التعذيب، لكن إن كانت المرأة رفيعة الحسب، فجزاؤها القتل هي وصاحبها. أما الجرائم المرتكبة ضد الحكومة فتعامل بشدة استثنائية. إذ أن عقوبة السرقة من حقول الدولة القتل. وإن أعدمَ أحد الكوراكا شخصاً من دون إذن من مرؤوسه، يحكم عليه بإسقاط حجر على ظهره من ارتفاع ثلاثة أقدام. فإذا كررها قُتِل. وتعاقب الخيانة بحبس الفاعل في سجن تحت الأرض في كوزكو مليء بأفاع وحيوانات خطرة. لذا يندر أن يخرج شخص من هذا السجن حياً (رو Rowe 1946: 271).

كان النظام القضائي قائماً على نظام إداري، يترأس دعاواه الكوراكا المناسب. مثلاً إذا تضمنت قضية معينة شكاوى رفعها فرد ما على آخر لكن كليهما كانا داخل الوحدة نفسها التي تتكون من 100 أسرة، يتولى الحكم بينهما كوراكا تلك الوحدة. بيد أنه إذا كانت القضية ضد فرد من وحدة أخرى تضم 100 أسرة أيضاً، سيتولى القضية كوراكا الـ500 المسؤول عن الاثنين. وتحال الجرائم التي تقتضي الحكم عليها بالموت، من قبيل التي ذكرت في ما سبق، إلى حاكم المقاطعة أو الملك (رو Rowe 1946: 271).

اللغة

يتحدث الإنكيون اللغة الكيشوية Queshua. فقد كانت تتحدث هذه اللغة أصلاً عدة مجموعات أثنية أخرى كانت تعيش في منطقة الأنديز نفسها مثل الإنكيين. وقد جاء اسمها في الواقع من مجموعة إثنية تسمى كيشوا Queshua، عاشت إلى الشمال من الإنكيين لكنها ذابت في الإمبراطورية منذ وقت مبكر جداً. كان حاجز اللغة المشكلة الرئيسة التي واجهها الإنكيون في مسعاهم لدمج العديد من الشعوب المفتوحة بإمبراطوريتهم. ولعل الناس الذين فتحهم الإنكيون كانوا بعشرات اللغات المختلفة، ولا يعرف الآن إلا

القليل عن كيفية تواصل الإنكيين مع كل مجموعة من تلك المجموعات. وقد كان على الإنكيين أن يخضعوا زعماءها ليتعلموا الكيشوا، فيما كانوا يأخذون أبناءهم إلى كوزكو ليتعلموا أموراً منها اللغة. ومن غير المعلوم كيف تعلم أهل المناطق المفتوحة الكيشوا، لكن ربما تحقق ذلك من خلال الاتصال بمسؤولين إنكيين - إما في قراهم الأصلية أو في المراكز الإدارية التي يعملون بها. وارتأى الإسبان بعد مجيئهم أن من المناسب مواصلة استعمال الكيشوا لأنها كانت من أكثر اللغات المستعملة التي تحظى بفهم واسع في المنطقة. ونتيجة لذلك، لا زالت الكيشوا لغة يتحدثها ملايين الناس في المنطقة من الإكوادور حتى شيلي، وهي اللغة الثانية في بيرو الآن.

لا يتوافر الإنكيون على لغة كتابية. وبالتالي فكل ما هو معروف عن الكيشوا الإنكية يأتي من الكتّاب الإسبان المبكرين، ولم يذكر أي منهم قواعد محددة في ما يخص كيفية كتابة تلك اللغة. لذا ليس استثنائياً رؤية أشكال إملائية مختلفة للكلمة نفسها، مثلا، تكتب كِيشوا Quichua بشكل كَيشوا Queshua. زد على ذلك، غلب على الكتاب الإسبان استبدال حروف من الكيشوا بأخرى من لغتهم. وعلى هذا الأساس كان حرف b يستبدل غالباً بحرف p، وحرف g بحرف k، ومقطع gu أو hu بـحرف w. مثلاً، بدلاً عن كتابة الكلمة الكيشوية pampa أو waka، تراهم يكتبونها bamba و huaca.

التنظيم الاجتماعي

مجموعات الأقارب

لدى كل مجتمع قواعد سلوك أو صيغ تحكم أفعال أفراده. وأحياناً تصير هذه القواعد رسمية كقوانين؛ وفي الأعم الأغلب هي أنماط سلوك مقبولة ببساطة يعيش بها أفراد المجتمع. ويشير اصطلاح التنظيم الاجتماعي social organization إلى أنماط سلوك تحكم التفاعل بين الأفراد، ومنها تحديد الشخص المؤهل للزواج، وأين سيعيش العرسان الجدد، وكيف تُعرّف العائلة، وما هو سلوك الزوجين المناسب مع عائلة كل منهما، وما إلى ذلك. كانت الوحدة الأساس في التنظيم الاجتماعي الإنكي تتمثل بالأسرة. وتتجمع الأسر في أيلوات ayllus، أي مجموعات من أقارب أفراداً وعائلات يتبادلون العمل ويتعاونون في

المعاش والفعاليات الطقسية. وفي العموم، يتوافر الأيلو الواحد على ما يشبه الزعيم، على الرغم من محدودية سلطة هذا الزعيم. وللأيلو أراض معينة يقيمون عليها، إلا أن حدودها غير مرسّمة بوضوح. وكانت إحدى الوظائف الرئيسة للأيلو ayllu تنظيم عمل أنشطة تتعلق بالزراعة مثل تنظيف الحقول وتهيئة قنوات الري والمروج. وثمة وظيفة أخرى تتمثل بضبط أصول الزواج من خلال تعريف شخص الشريك الملائم. وأخيراً، كان الأيلو مهماً كبؤرة للفعاليات الطقسية، وصهر أفراده في منظومة معتقدات مشتركة ومراسم، وغالباً ما كان تنظيم الأيلو يستند إلى ارتباط أفراده بجد أعلى.

أحكام الزواج

كان يقتضى من فرد أيلو ayllu معين الزواج من بنات الأيلو نفسه. وعلى الرغم من أن رو Rowe (1946: 254) يبين أن خط النسب يتصل بطرف والد العائلة، تستشهد سلفربلات Silverblatt (1987: 6–7) وآخرون بمصادر إسبانية على أن النساء أيضاً، كن يتوافرن على تحكم معين بالأرض والمواشي. إذ ترى سلفربلات أنه كانت هناك أحكام مزدوجة للإرث: بعضها من الخط الذكوري، وأخرى من الخط الأنثوي.

يبدو أن غالبية الإنكيين كانوا أحاديي الزواج، بمعنى أنهم يتزوجون بواحدة فقط. بيد أن بوسع أي رجل الزواج بأكثر من واحدة إن كان يملك ما يعيلهن. وكان مباحاً للملك أن يتزوج بأي عدد يريد من النساء. لكن بغية الحفاظ على خط دماء الملك نقياً، كان يقتضى منه أن يملك زوجة واحدة رسمية، يطلق عليها كويا coya، التي يُزعم أنها شقيقته. ويظهر أن هذا المبدأ ـ مبدأ زواج الملك بأخت شقيقته ـ يمثل تطوراً متأخراً بدأ مع حكم توبا إنكا Topa Inca (D'Altroy 2002: 91). ومن أولاد هذين، يختار الملك الحاكم وريث عرشه.

لم تكن تنظيمات الأيلو شيئاً تفرد به الإنكيون؛ بل كانت شائعة في مناطق الأنديز. إلا أن الإنكيين أعطوا للأيلو أغراضاً سياسية متفردة بجمعها سوية في وحدات تتكون كل منها من عشر أُسَر لدواعي العمل.

يبرز هذا جانباً مهماً من مصطلح إنكا Inca. إذ حسب اختلاف السياقات قد يشير إلى الشعب، أو إلى الإمبراطورية، أو حتى إلى شخص مفرد، وهوملك الإنكا. ويحيل

هذا الاصطلاح، كما يستخدمه الخبراء في هذا المجال، إلى المجموعة الإثنية الصغيرة التي عاشت أصلاً في المنطقة المحيطة بكوزكو. وبما أن الآخرين كلهم لم يكونوا إنكيين في الأصل؛ فبإمكاننا الإشارة إليهم كرعايا إنكيين، وليس إنكيين أصلاً (موزلي Moseley 1992: 9).

أن يكون الشخص إنكيا يعني أنه يتوافر على امتيازات لا تتاح لآخرين: يعصب رأسه بطريقة خاصة، ويضع على أذنيه غطاء واسعاً يغطي شحمة الأذن. وهذا ما دعا إلى تلقيب الإنكيين بالإسبانية أوريخونيس orejones، أي «أصحاب الآذان الكبيرة» (رو Rowe 1946: 261). أما أنكَ غير إنكي فيعني أن تخضع لأوامر ملك الإنكا السائد، الذي يدّعي ملكية أرضك وله حقوق من ناتج عملك. على هذا فإن الفرق بين الإنكيين والرعايا الإنكيين كبير. ولهذا السبب من الضروري مقابلة الإنكيين بالرعايا الإنكيين في ما يتعلق بالحياة اليومية في إمبراطوريتهم. أما كيف تتبدى هذه الاختلافات في الحياة الواقعية، فيوضحه الفصل السادس.

كان تنظيم الإنكيين الاجتماعي قائماً على قرابة أحدهم نسباً من ملك الإنكا (بوير Bauer 1992: الفصل 2). فهناك ثلاث فئات تتباين درجات أهميتهم: الإنكيون من الدم الملكي، وإنكيو كوزكو غير الملكيين، والإنكيون بالامتياز. كان الإنكيون من الدم الملكي يرتبطون بصلة قرابة مباشرة بملوك الإنكا، وعلى هذا فقد كانوا يتصلون في شجرة النسب بجد الإنكيين الأعلى كلهم، مانكو كاباك Manco Capac. وللإنكيين نظام لافت في بلوغ الحكم والسلطة. فكما سيناقش هذا الأمر بتفصيل أوسع في الفصل الرابع، كانوا يمارسون نوعاً من عبادة السلف مفادها أن الملك يبقى فرداً مهماً من المجتمع حتى بعد موته. لذا تظل مسؤولياته قائمة في موته كما كانت عليه في حياته، ومنها رعاية عائلته. فبما أن للملك زوجات عديدات وأولاداً، فهذا يقتضي توفير غذاء ومتاع بكميات كبيرة لهم. وعندما يموت الملك، تبقى هذه المجموعة الملكية الموّحدة، التي يطلقون عليها باناكا panaca، تتمتع بممتلكاته لتعيل أفرادها. بعدها يشرع الملك الجديد بتكوين باناكا جديدة له. وكانت هناك 11 باناكا وقت الغزو الأوروبي لهم، بالتوازي مع 11 ملكاً؛ ذلك أن الوقت لم يتح لواسكار Huascar وأتاوالبا Atahuallpa ليكوّنا باناكا لنفسيهما.

هكذا كان على أي ملك جديد أن يجد ثروة لنفسه ولأفراد الباناكا التي تخصه. وهذا

يستدعي استعمال سلطة منصب الملك وسطوته للحصول على أرض ومتاع وخدمات. ويعتقد بعض الخبراء أن هذا ربما يفسر اندفاع الإنكيين في فتوحاتهم: إذ كان على الملوك الجدد فتح أراض إضافية للحصول على ثروة لأنفسهم لأن الأراضي كلها المحيطة بكوزكو قد أخذها من سبقهم من الملوك (كونراد وديماريست Conrad and Demarest 1984).

فضلاً عن الباناكا، كانت هناك 10 مجموعات قرابة غير ملكية. وكان هؤلاء أناس إنكيون تربطهم صلة نسب بعيدة بالإنكيين الملكيين (دالتروي D'Altroy 2002: 89). وتقول إحدى الروايات عن أسطورة أصل الإنكا، إن هؤلاء الناس يتحدرون من الجماعات التي جنّدها الإنكيون الثمانية الأصليون الذين خرجوا من الكهف في باكاريكتامبو Pacariqtambo. وكان الباناكا والأيلو مجموعين معاً في واحد من الشِعْبين (أي قسمة مجتمع ما إلى جزأين). فقد كان لدى الإنكيين شِعْب أعلى (أنانسايا Hanansaya) وآخر أدنى (أورينسايا Hurinsaya)، وكل منهما يضم خمسة باناكا وخمس مجموعات غير ملكية (دالتروي D'Altroy 2002: 90). ومهمة هذين الشِعْبين الرئيسة توزيع النشاطات الطقسية والسياسية بين أقسام الأيلو. وفرض الإنكيون نظام الشِعْب هذا على رعاياهم، على أن من المحتمل وجود تقسيم كهذا سابق على الفتوحات الإنكية.

التراتبية الاجتماعية

هناك ألوان عدة من المواطنين في إمبراطورية الإنكا. فكان المقام الاجتماعي لكل واحد يتعرف بدرجة قرابته وطبيعة عمله، بدلاً من دخله (انظر الجدول الآتي). فالأفراد مرتفعو المقام في الإمبراطورية كانوا هم الإنكيون، ويتكونون من أفراد الأيلو الملكيين وغير الملكيين، الذين غالباً ما يسمون بـ«الإنكيون دماً» في الأدبيات المعنية. وكان مقام الإنكا يتضمن أيضاً مجموعة أخرى أوسع تدعى «الإنكيون امتيازاً» وكان هؤلاء مجموعات تتحدث الكيشوية وتعيش على مقربة من وادي كوزكو (بوير Bauer 1946: 261). وللإنكيين امتيازاً أهمية خاصة خلال حقبة التوسع الإمبراطوري. فقد كانت جماعات هؤلاء تستعمل في الأغلب كمستعمرين، لأنهم موالون مخلصون للإمبراطورية ولديهم دراية بسياساتها. ولربما

خدموا أيضاً في وظائف إدارية وقتما كانت الإمبراطورية في طور توسعها.

تراتبية الإنكا الاجتماعية

إنكا:	إنكيون دماً
	11 باناكا ملكياً
	10 أيلو غير ملكي
	إنكيون امتيازاً
كوراكا:	كوراكا (طبقة نبلاء متدنية)
عُمّال:	شعوب مستعمَرة

الكوراكا

ثمة مقام اجتماعي آخر في المجتمع الإنكي يتمثل بالكوراكا curaca، بمعنى طبقة النبلاء الدنيا. وهؤلاء هم مجموعة مسؤولي الحكومة الذين كانوا جزءاً من التراتبية الإدارية ـ فمن الكوراكا، مثلاً، من هو مسؤول عن 5,000 أو 100 دافع ضرائب، ومعهم أبناؤهم.

العُمّال

لابدّ من أن يكون هناك مقام اجتماعي آخر في الإمبراطورية، على الرغم من أن رواة الغزو الإسبان لم يذكروه، وهم: الناس الذين لم يكونوا زعماء، ولم يضموا بالتالي بوصفهم كوراكا. فهذه المجموعة، وهي الأكبر إلى حد بعيد، كانت تضطلع بالنشاطات اليومية التي تسيِّر آلة الإمبراطورية. إذ كانوا يوفرون الغذاء والعمال لبناء المدن والنصب التي يشتهر بها الإنكيون.

الميتيما

ثمة مقام خاص في إمبراطورية الإنكا كان مخصصاً للميتيما mitimas. والميتيما هم الناس الذين كانوا يعيشون بعيداً عن مسقط رأسهم، أناس نقلوا إلى منطقة أخرى. وكان هناك فئتان من الميتيما، تُعرفان بالدور الذي تمارسانه في الإمبراطورية. ففئة منهما أتاحت

للإنكيين الوصول إلى مناطق معينة. على سبيل المثال، إذا كان شعب مستعمَر يعيش كله في منطقة البونا puna، يعمد الإنكيون إلى نقل الميتيما إلى منطقة الكيشوا quechua الخاصة بتلك المنطقة لزيادة كميات المحاصيل التي تنمو هناك (انظر الفصل الأول). وبما أن الذرة كانت المحصول الأكثر أهمية لدى الإنكيين في الأعم الأغلب، فقد نقل الإنكيون الميتيما إلى مناطق الكيشوا لزيادة إنتاج هذا المحصول في هذه المناطق.

أما الفئة الثانية من الميتيما فكانت سياسية ولها القدرة على السيطرة على المتمردين. فقد نقلت الجماعات التي صعب فتحها، أو تمردت بعد فتحها الأول، من موطنها الأصلي إلى جزء آخر من الإمبراطورية. وكانوا عادة ما ينقلون إلى منطقة تقع بين أكثر المجموعات ولاءً، كي يقللوا من احتمال تسببهم بمشكلات إضافية (رو Rowe 1946: 296). وكان من شأن الميتيما الموالين، وهم في أحوال كثيرة من الإنكيين امتيازاً، أن ينتقلوا إلى الأراضي التي أخليت من أهلها لمواصلة إنتاج الغذاء فيها. ويرجّح أن الميتيما السياسيين كانوا اقتصاديين أيضاً، وينقلون لغرض زيادة الإنتاج. وكان من شأن هذا الأمر أن يكون وسيلة سيطرة فاعلة جداً: فتصوَّر الآثار النفسية المدمرة عندما تنقل من أرض عاش فيها أجدادك إلى منطقة جديدة غريبة عنك تماماً، وتُجبر على العيش بين أناس لا تعرفهم ولا تثق بهم. وكان على الميتيما أن يرتدوا ملابسهم الإثنية كي يتميزوا بعين من يراهم.

من القرابة إلى الإمبراطورية

من المهم ملاحظة أن من مفاتيح نجاح الإنكيين الرئيسة في تشكيل إمبراطورية من شعوب مفتوحة تمثل بالنهج الذي صاغوا به التنظيم الاجتماعي لغايات سياسية. فكما ذُكر في المادة الخاصة بالإدارة، حينما تُفتح مجموعة، تُجمع أُسرها في وحدتين إداريتين أو ثلاث تتكون الواحدة منها من 10,000 أسرة، يطلق عليها سايا sayas. وتقسيم شعب ما مستعمر إلى وحدتين متساويتين يتطابق مع نظام الشِعاب الإنكي، وكان يطلق على كل سايا تعبير الشِعاب الإنكي أنانسايا Hanansaya وأورينسايا Hurinsaya. وكان الناس منظمين في وحدات إدارية تتكون من 5,000، و1,000، و500، و50، و10 أُسر. وبما أن الأسر تنتمي إلى أيلو، ينبغي أن يجمع الأيلو في هذه الوحدات أيضاً، إلا أن مدى تناسب حجم هذه الوحدات مع السكان أمر لم يتأكد حتى الآن. وعلى الرغم من أن معظم

الوحدات الإدارية التي نظمها الإنكيون كانت في جوهرها مثل التنظيمات الاجتماعية السابقة على الإنكيين، إلاّ أن الإنكيين حوروا الأخيرة لتساير وحداتهم الإدارية العشرية. فإذا كان الأيلو ayllus الموجود أقل من أن يشكل اثنين من السايا saya، فينبغي أن يضاف إليها أيلو من أماكن أخرى. وإذا كانت هناك وحدات أيلو كثيرة، يصار إلى تقسيمها إلى وحدات أخرى (رو Rowe 1946: 263). وكان من شأن هذه السياسة أن تقلل من استناد تنظيم الأيلو إلى علاقات القرابة وتزيد من استناده إلى علاقات السكنى. ولا شك أن هذا أضعف الروابط بين أفراد تجمعات الأيلو، وسهّل السيطرة عليهم.

لقد استوعب الإنكيون زعماء الشعوب المحلية المستعمرة في البيروقراطية الإدارية الإنكية بجعلهم كوراكا curacas. كما جعل الإنكيون مناصب الكوراكا وراثية كي يوفروا الاستقرار في حكم الإمبراطورية. فكان أبناء الكوراكا يؤخذون إلى كوزكو ويدربون هناك، ثم يعادون إلى الحكم في مناطقهم بعد موت آبائهم.

إلى حد ما كانت المناصب تسند إلى الزعماء المفتوحين تبعاً لحجم المجموعة التي كانوا يقودونها قبلاً. فإذا غزا الإنكيون مجموعة إثنية معينة تتكون من 100 أسرة يحكمها زعيم واحد، يصير هذا كوراكا لمائة أسرة. وإذا كانت المجموعة تضم 500 أسرة، يصير زعيمهم كوراكا خمسمئة أسرة.

وليس مؤكداً ماذا سيحدث لو كانت مجموعة ما تضم، مثلاً، 700 أسرة. وعلى ما يبدو، قد يصبح الزعيم المفتوح كوراكا خمسمئة أسرة، والمئتان المتبقية تُجعَل مع 300 آخرى تحت كوراكا آخر على رأس 500 أسرة. وقد يكون هذا الكوراكا الآخر زعيماً مستعمراً لمجموعة تتكون من 300 جمعوا سوية مع المئتين المتبقين، أو يكون غريباً عنهم، لعله إنكيا أو إنكيا بالامتياز. وهناك طريقة في تدوير أعداد الأسر المفردة من خلال نظام الميتيما.

إيجازاً، كان الإنكيون ينظمون الوحدات الاجتماعية المحلية في وحدات إدارية لتكون سيطرتهم وتنظيمهم للعمل أكثر فاعلية. وإذا ما تمرد شعب ما، ينقلونه إلى مناطق جديدة، ويحل محله رعايا موالون لئلا يتدنى إنتاج الغذاء. وكانت الكيشوية اللغة الرسمية في الإمبراطورية. إلا أن النهج الأساس لحياة مجموعة مستعمرة قلما يتغير: فهم يظلون يتعبدون أربابهم نفسها، ويحكمهم زعماؤهم أنفسهم، ويعيشون نهج الحياة الزراعية الذي اعتادوا عليه. إلا أنهم مطالبون بعمل أكبر حجماً مما كانوا يفعلون في سالف عهدهم.

الاقتصاد

يشير اصطلاح الاقتصاد إلى إدارة موارد مجتمع ما، ومن بينها طريقة شعب ما في إنتاج الغذاء والمواد الخام والسلع المصنّعة وتوزيعها. وتجدر ملاحظة أن الاقتصاد الإنكي لم يكن قائماً على النقد. فلم يكن لديهم معيار قيمة دارجاً، كما حال الدولار في مجتمع الولايات المتحدة اليوم. فقد كان الأفراد يتقايضون السلع فيما بينهم، بمفاوضتهم التقديرية على قيمة تقديرية لكل شيء. وتتضمن المواد المتبادلة الفائض من الغذاء والمواد المصنّعة - مثل العِدَد، أو الأواني، أو أشياء الزينة الشخصية كالمجوهرات. ولأن الإنكيين يتحكمون بالتجارة بين المناطق، فإن كل ما يتبادلونه محلي المصدر كلياً (رو Rowe 1946: 270). لذا فإن نطاق السلع المتبادلة ضيق نسبياً.

لم تكن الأرض ملكاً لأفراد، بل تعود للأيلو الذي ينتمي إليه الشخص؛ فللمرء حق استعمال الأرض وليس بيعها. ذلك أن ملك الإنكا مالك أرض الإمبراطورية كلها، بأمر رسمي، وهو الذي يمنح كل أيلو حق استعمال أرضه. والأشياء الوحيدة التي يتملكها فعلاً رجل أو امرأة هي الأشياء الشخصية التي يصنعانها أو يحوزانها هدية أو تبادلاً.

الأنشطة المعيشية

الزراعة

كانت وسائل المعيشة الأساس لدى الإنكيين هي زراعة نباتات موطّنة وبذرها وحصادها، وتربية حيوانات مدجنة. فالأنديز واحدة من مناطق عدة في العالم شهدت أصلاً توطين مزروعات وتدجين حيوانات لمّا راح الناس يتعلمون دورات إنتاجهم. وهناك نطاق كبير من النباتات التي زرعها أهل الأنديز في مناطقهم البيئية المختلفة (انظر الفصل الأول). وكانت أكثر المحاصيل أهمية لديهم الذرة. وكانت جعة الذرة، ويطلقون عليها تشيتشا chicha، تستهلك بكميات كبيرة كشراب للحمية، وخلال المراسم المهمة.

كانوا يزرعون أنواعاً مختلفة كثيرة أخرى من المحاصيل، من بينها البطاطا والكينوا (حبوب تزرع على علو متوسط وهي غنية بالبروتين) والأوكا، والأولوكو ullucu

(محصول درَني يزرع على علو مرتفع، يشبه في استخدامه البطاطا لكنه يختلف عنها بالطعم والشكل)؛ وأنواعاً مختلفة كثيرة من الفاصولياء واليقطين والبطاطا الحلوة والمنيهوت واليوكا (وهذان محصولان نشويان، من المحاصيل الدرنية التي تزرع على ارتفاع منخفض)، والطماطم والفلفل الحار والأفوكاتة والفستق (رو Rowe 1946 : 210). وهناك مزروعات أخرى أيضاً لا تصلح للأكل من قبيل الكوكا (حامض يمضغ للتغلب على البرد والتعب)، والقطن والقرع. وكان أبرز حيوانين مدجنين لديهم هما اللاما والألباكا؛ فالأول كان يستعمل كحيوان حمل، فيما كان صوف الأخير الناعم يستخدم للباس. كما كانوا يربون البط وخنازير غينيا كحيوانات تغذية.

كانت هذه المزروعات والحيوانات كما نوقش في الفصل الأول، تستثمر في توليفات مختلفة في مناطق بيئية مختلفة. فقد كان الإنكيون يستعملون هذه المناطق بنحو فعال جداً في زراعة المحاصيل واستعمال الناس لزراعتها. وكانت أدوات الفلاحة بسيطة للغاية:

زراعة البطاطا باستعمال محراث قدم وكسارة حجارة

فكانوا يستعملون محاريث قدم، وعازقات، وكسارات أحجار، لتهيئة الحقول للزراعة. فكانوا بمحاريث القدم يقلبون مساحات واسعة من الأرض، ثم تُسحن بكسارات الأحجار، التي هي أداة تشبه الهراوة. أما العازقة، التي تخرج شفرتها بنحو مستقيم عن المقبض، بدلاً من أن تكون بزاوية 90 درجة (مثل العازقات الحديثة)، فكانت تستعمل لإزالة الأعشاب الضارة وتفتيت الكتل المتيبسة أيضاً (رو Rowe 1946: 211). وبغياب حيوانات الجرّ، كانت هذه هي فقط الأدوات المطلوبة، وهي فعالة جداً. بل حتى في يومنا هذا من الرائج رؤية أهل الأنديز يهيئون حقولهم بهذه الأدوات نفسها. وكان الرجال والنساء يمارسون الزراعة معاً، إذ يستعمل الرجال كسارات الأحجار فيما تستعمل النساء العازقات. وكان الجنسان يعملان معاً في مواسم الحصاد، كما الحال اليوم.

الغذاء البري

فضلاً عن زراعة تلك المحاصيل، كان الإنكيون يستعملون مزروعات برية وحيوانات لإكمال غذائهم. فقد كانت هناك مساحات معينة في كل مقاطعة محجوزة كأراضي صيد، على أن بوسع السكان أن يلتمسوا من الملك الرخصة لاستعمالها (كندال Kendall 1973: 155). وكانوا يمسكون بالأيل والغوناق[1]، وهي حيوانات برية من صنف اللاما، من أجل أصوافها الناعمة للغاية، ثم يطلقونها بعد جزّها. وكانوا يغزلون الأصواف وينسجونها ويصنعون منها ألبسة. وكانوا يصطادون الطيور بالشراك، أو باستعمال البولا[2]، وهي سلسلة من أحزمة جلدية تربط في أطرافها أحجار.

صيد السمك

لم يستثمر الإنكيون موارد المحيط والبحيرة استثماراً كبيراً، لأنهم أصلاً جماعة تقطن الهضاب. بيد أن الجماعات التي كانت تعيش على ساحل الهادئ، كانت تصطاد السمك والمحار، وهو ما كان يشكل إضافة غذائية مهمة. وتقول أخبار إن ملك الإنكا كان يطلب أن يؤتى له بسمك من المحيط بوصفه طعاماً شهياً، عبر خدمة السعاة ونظام

(1) حيوان بري من الثدييات يشبه اللاما، يعيش في أمريكا الجنوبية؛ لون صوفه بني باهت (م).

(2) آلة تتكون من عدد من الكرات مربوطة بحبل قوي، وترمى على أطراف قطعان أو مجموعات حيوانات برية بغاية إجبارها على تغيير طريقها كي تقع في شراك منصوبة لها (م).

الطرق (انظر مادة «الاتصالات» في ما يأتي من هذا الفصل). وكانت الجماعات المقيمة حول بحيرة تيتيكاكا تمارس صيد السمك أيضاً، وكانوا مرخصين بدفع الجزية إلى ملك الإنكا سمكا (كندال Kendall 1973: 155).

الحرف والحرفيون

كما الحال في الكثير من المجتمعات المعقدة، كان الإنكيون يتوافرون على درجة عالية من التخصص في العمل. وبداع من المهارة الاستثنائية التي تشير إليها الكثير من الأشياء التي صنعها الإنكيون، فإنه غالباً ما يفترض (حتى من جانب المؤلف في الطبعة الأولى من هذا الكتاب) أن الصنائعيين كانوا متخصصين متفرغين تماماً للعمل في حرفهم. ومع ذلك، يرجح أن الأفراد الذين كانوا يعملون في حرفة واحدة فحسب، من دون أن يؤدوا أي شيء آخر، كانوا على الأرجح نادرين (دالتروي D'Altroy 2002: 289؛ جوليان Julien 1998). ومع أن القرى المتخصصة كانت قائمة على إنتاج حرفيات معينة، لكنها تظل مطالبة بزراعة غذائها لنفسها. وكانت مستعمرات الميتيما في بعض الأحيان تزرع حقول الدولة، إلاّ أنها تظل تنتج غذاءها أيضاً. وهنا، تستحق ثلاث مهن حرفية إفراد إشارة خاصة لها، ألا وهي: الفخاريات والمنسوجات (كالأقمشة) والمعادن.

الفخاريات

تتميز الفخاريات الإنكية تميزاً كبيراً ومصنوعة صناعة جيدة جداً. فهناك أشكال متنوعة، لكن أكثر اثنين شيوعاً من بينها هما الصحن والإبريق الكبير ذو القاعدة المسننة والعنق الطويل. وكان الإناء يستخدم لحفظ سوائل مثل التشيتشا chicha. والتصاميم على الفخاريات الإنكية تكرارية بدرجة عالية، وتشيع فيها الأشكال الهندسية، بخاصة على أباريق حفظ السوائل. وكانت التصاميم على الفخاريات المستخدمة في المراكز الإدارية لتغذية العمال المحليين، موحدة الشكل. وهذا لأن الإنكيين كانوا يريدون أن يؤكدوا لدى الناس الذين يستخدمون هذه الفخاريات اعترافهم بمصدر حسن وفادتهم (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 177). عليه كان مهماً أن يتحكموا بصناعة الفخاريات تحكماً كبيراً. وهكذا فقد أقام الإنكيون فعلاً مجمعات خزّافين كانت مهمتهم

جرّة (aryballos) إنكية تستعمل لحفظ السوائل مثل التشيتشا

الوحيدة أداء هذا العمل. وهناك روايات إسبانية عن أناس كانوا يُنقلون إلى مجمع في مقاطعتهم لإنتاج الفخاريات لها (جوليا Julien 1982، 1988).

المنسوجات

لم تكن أهمية إنتاج المنسوجات (الأقمشة النسيجية) بالنسبة للإنكيين أمراً مبالغاً فيه. فقد كان إنتاج الملبس الصناعة الثانية الكبيرة في الإمبراطورية، بعد الزراعة (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 185). وكانت الملابس تصنع بأصناف ثلاثة، كل منها يفيد غرضاً معيناً. فالنسيج الخشن كان يستعمل لصناعة الأغطية فقط، والنسيج المتوسط للملابس الأساس. وأجود أقمشة الملابس، التي تدعى ملابس الكومبي cumbi، كانت تنسج بعناية ومن نوعية راقية بنحو استثنائي (رو Rowe 1946: 242).

كانت أنواع الملابس تصنع من مواد واسعة التنوع - من بينها القطن وأصواف الفيكونة[1]، وحيوانات الألباكا واللاما المدجّنة. وكان استعمال القطن هو الغالب في الساحل، حيث ينمو بسهولة، وحيث وُطّن في العصر ما قبل الفخاري. وهناك ألوان

(1) من حيوانات جبال الأنديز شبيه بالجمل (م).

غزل الصوف باستعمال مغزل وفلكة

عدة منه، تتراوح بين البني والأبيض كانت تنمو وتستعمل في الساحل، فيما كانت المنسوجات الصوفية أكثر شيوعاً في المرتفعات بسبب من أن القطن لا ينمو بنحو جيد على الارتفاعات العالية، ولأن الحيوانات من فصيلة الجمليات (اللاما والألباكا والفيكونة) تكثر فيها. والصوف سهل الصباغة والنسج، ومطلوب لحرارته وخفة وزنه، لذا فهو مادة مثالية لسكان المرتفعات.

ينبغي غزل القطن والصوف في خيوط قبل نسجها. وكان هذا يتم بمغزل بسيط وفلكة الغزل. فكانت المرأة (إذ كان هذا عموماً من عمل النساء) تبدأ عملها بكرة من مادة مربوطة بعصا، وتفتل بعضاً منه خيوطاً وتسدّيه على المغزل. أما فلكة المغزل، المربوطة في طرف المغزل، فتفيد في إبقاء المغزل يدور بوتيرة معينة كي تجعل الخيط متساوي السماكة. كما أن المغزل والفلكة يشكلان ثقلاً للإبقاء على الخيط مشدوداً. وبوسع النسوة أن يغزلن الخيوط ويمارسن أنشطة أخرى، من قبيل الرعي ورعاية الآخرين. ولا تزال هذه الممارسة شائعة في الأنديز اليوم. وبعد إتمام الغزل، يمكن صباغة الخيوط أو استخدامها بألوانها الطبيعية.

امرأة عمرها 33 عاماً تنسج باستعمال حزام النول الخلفي

يستدعي نسج الصوف المغزول إلى قماش صفّ مجموعتين من الخيوط، واحدة بخيوط طويلة والأخرى قصيرة متعامدتين مع بعضهما بعضاً. والخيوط الطويلة تدعى «السداة»)، في حين تسمى الخيوط القصيرة المتعامدة بـ«اُللحمة» وتنطوي عملية النسج على إضافة خيوط اللحمة عبر خيوط السداة، خيطاً خيطاً. وبتنويع الخيوط الملونة في السداة، تظهر أشكال معقدة. ويتم النسج بِمنْول، وكان هناك نوعان شائعان من المِنْول. فالأول منول مطوَّق، أو مربوط. وعند استعمال هذا النوع، تربط خيوط السداة من طرف واحد بشجرة أو عمود، أما الطرف الثاني فيلف حول خصر النساج. وكانت خيوط اللحمة تضاف بتصالبها على خيوط السداة وتحتها، ثم دفعها بإحكام على السداة السابقة. ولإضفاء تماسك بدرجة معينة على النسيج، ما على الحائك ببساطة إلاّ أن يحرك جسده مبتعداً عن العمود أو مقترباً منه. أما النوع الثاني من المنول فكان المنول المنتصب، أي أن له إطاراً عمودياً. وكان هذا النوع يستعمل بخاصة لصناعة

قماش الكومبي cumbi، أفضل الأقمشة نوعية (رو Rowe 1946: 241). ويمكن إضافة مواد معينة على النسيج في وقت إنتاجه. فقد أضاف الإنكيون الريش والحلي الذهبية إلى أروع أصناف أقمشتهم.

للأقمشة في المجتمع الإنكي خمسة استعمالات مهمة، فضلاً عن استعمالها كملبس: (1) كانت شكلاً من أشكال الهوية التي يميّز بها أصل الفرد (2) مؤشر على مقام لابسها الإجتماعي (3) تستعمل في المناسبات الشعائرية كقرابين (4) كانت تعطى كهدايا رسمية إلى أشخاص مستعمرين (5) كانت شكلاً من أشكال الأجر تدفع إلى أفراد الجيش (مورا Murra 1962). وعندما يتأمل المرء بالأغراض التي يستغل من أجلها القماش في الإمبراطورية، يسهل فهم أهميته لدى الإنكيين.

لاحظ أحد الكتاب الإسبان المتقدمين، برنابه كوبو Bernabé Cobo، أن الإنكيين يوجبون على الناس ارتداء ملبسهم البلدي أينما حلوا في الإمبراطورية، وكانوا يعاقبونهم بشدة أن هم لم يفعلوا. وهذا ما يشير إلى أن طريقة الملبس المحددة تتمايز من مجموعة إلى أخرى، كما بقي هذا الحال قائماً في العديد من المناطق النائية في الأنديز اليوم. فعلى سبيل المثال، طريقة ارتداء أفراد معينين قبعة يعكس حقيقة تعليقات كوبو على أن من أكثر العلامات عن الهوية أهمية هي وضع الرجال غطاء على الرأس.

كان ارتداء ملبس متمايز يتيح معرفة أصل مكان الشخص من بعيد. لذا، صار من الصعب للغاية إغفال مجموعة معينة لأن المسؤولين الإنكيين سيعرفونهم مباشرة. وبداع من اتساع سياسة الميتيما الإنكية كثيراً، صار ارتداء ملابس يمكن أن تدل على الهوية، سبيلاً مهما للسيطرة على تحركات الناس.

وبالمنوال نفسه، للتصاميم دلالة عالية في نسق المقامات الاجتماعية الإنكي. فأشكال تعيّن لابسها بوصفه فرداً من باناكا panaca ملكية، وأشكال أخرى تؤشر إلى انتماء مجموعات اجتماعية أخرى. وعليه، لا يعني هذا أن بمقدور المرء تمييز مكان أصل شخص ما رجلاً كان أم امرأة بملبسه أو ملبسها وحسب، إنما بإمكان المرء أيضاً تحديد مقامه أو مقامها الاجتماعي. لذلك يعرف المرء كيف يتصرف مع الشخص المقابل.

للملبس استعمالات شعائرية وسياسية أيضاً. ففي الواقع، جميع القرابين التي يقدمها الإنكيون إلى أربابهم تنطوي على حرق ثياب، بخاصة ثياب الكومبي cumbi. ويقال إن

100 ثوب من أجود الأقمشة نوعية كانت تحرق كقربان مقدم إلى الشمس كل صباح في كوزكو Cuzco (بينسونغيلس 1979 Bensongyles). فلماذا يقدمون القماش قرباناً؟ لقد كان للملبس دور مهم في المجتمع، واعتاد الناس على التضحية بما له قيمة عندهم.

كان القماش يستعمل أيضاً بدلالة سياسية. فعندما كان الإنكيون يفتحون مجموعة معينة، كانوا يعطون قماش كومبي إلى الزعماء المستعمرين كأمارة احترام لهم (موريس وفون هاغن 1993 Morris and von Hagen: 190). وبقبول الزعماء المستعمرين القماش، فهم بذلك يقبلون وضعهم كتابعين لإمبراطورية الإنكا. وأخيراً، يحصل جنود الجيش على كمية معينة من القماش كجزء من أجرهم، وهناك روايات عن أحداث تمرد حرم الجنود فيها من الحصول على حصتهم من القماش (بينسونغليس 1979 Bensongyles).

وللأسباب التي ذكرت للتو، فان إنتاج القماش، كحال صناعة الفخاريات، كان موجّهاً بعناية. فكثيراً ما كان القماش يمنح جزاء على خدمة جيدة، لذا توجب أن يكون تحت يد حكام وإداريين كميات كبيرة منه. لذلك كانت الإمبراطورية تستعمل عدداً كبيراً من الأشخاص في صناعة القماش. فقد كان قسم كبير في مدينة أواناكو بامبا Huánuco Pampa الإنكية، مكرس في مُعظمه لإنتاج القماش حصراً (موريس وتومبسن Morris and Thompson 1985: 92). وكان هناك على ما يبدو في المقاطعات قرى مخصصة لإنتاج القماش، مثلما كانت هناك قرى تركز على الفخاريات (جوليان 1988 Julien). وقد أنشئ مجمع كبير يتكون من 1,000 نساج و 300 خزّاف في ميليرايا Milliraya، على مقربة من بحيرة تيتيكاكا (دالتروي 2002 D'altry: 297). ويلاحظ جوليان (1998) أنه حتى مثل هكذا مجمعات يرجح أنها كانت تديم حياة بيوتها من إنتاج القماش أو الفخاريات، لكن على نطاق أوسع. وكما مرت الإشارة إلى ذلك، يرجح أن إنتاج الغذاء على يد أفراد المجمع كان جزءاً آخر من واجباتهم.

المعادن والتعدين

كان الإنكيون يستعملون بعض المعادن لأغراض شتى. وكان الذهب والفضة يستعملان باستفاضة، لكن في المواد الباذخة والأشياء الشعائرية فقط (كما في تماثيل اللاما مثلاً)، التي غالباً ما كانت تحرق مع القرابين على قمم الجبال (انظر الفصل الرابع).

وكان استعمال هذين المعدنين مقصوراً على وجهاء الإنكيين. أما الطبقة الدنيا فكانت تستعمل النحاس، فهو معدن لدن يسهل عمله بأشكال متنوعة في مواد للزينة الشخصية (الدبابيس الكبيرة مثلاً تستخدم مع الشالات المغلقة)، كإضافات إلى الملبس وفي أشياء شعائرية متنوعة من قبيل سكاكين القرابين. من جهة أخرى، لا يعدّ النحاس، للدانته، جيداً في صناعة أدوات معينة. فقد كان المعدن المثالي لتلك الأدوات هو البرونز، الذي هو مركب من النحاس والقصدير أو الزرنيخ. وكان البرونز يستعمل لصناعة البلطات والأزاميل والسكاكين والملاقط ورؤوس هراوات الحرب، وكذلك المجوهرات وأشياء غيرها (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 225–29).

والغريب أن هناك القليل من الكتابات عن أنشطة التعدين المحلية، ولعل سبب ذلك يعود إلى استيلاء الإسبان عليه سريعاً وانتحاله في تقنياتهم. فالذهب والفضة والنحاس هي المعادن الرئيسة الثلاثة التي كانوا يستعملونها بنحو رئيس، لوفرتها في بيرو وبوليفيا. والذهب وحده هو الموجود هناك بتكوينه النقي. إذ كان الذهب موجوداً في مجاري أنهار معينة، وكانوا يحصلون عليه بغسل الحصى في قاع التيار، وكان يستخرج بالتنقيب أيضاً. وتشير إحدى الروايات التي تصف عملية الاستخراج إلى أن المناجم كانت خنادق صغيرة نسبياً، تستوعب شخصاً واحداً فقط. وكان طول المناجم المحفورة على جوانب التلال يتراوح بين بضعة أقدام و 240 قدماً. فحينما كان الرجل يشق حفرة عمودياً، بالكاد كان يتمكن من رمي التراب خارجاً بسبب عمقها؛ وعندما تصير عميقة جداً، يبدأ بحفر أخرى. وكانوا يستعملون الصخر وقرون الظباء كأدوات لاستخراج المعدن الخام، ثم يحمل الخام إلى الخارج في جرابات أو سلال (روت Root 1949: 206).

كانت المناجم تُحفَر خلال فصل الصيف فقط، للانتفاع من حرارة الجو؛ وكان المُعدّنون يعملون من الظهر حتى المغرب تفادياً للإنهاك. وكان حفر المناجم للإنكيين يتم بجهد الميتا mit'a (انظر مادة «ميتا Mit'a: رسوم الشغل الإنكي» لاحقاً في هذا الفصل) المأخوذين من المستوطنات القريبة من المناجم.

توجد الفضة والنحاس كمواد خام (أي صخور فيها أنواع عدة من المواد مختلطة معاً). وما إن ينقل الخام من المنجم، ينبغي عزل المعدن النفيس من باقي المادة. وتتم هذه العملية بتسخين الخام. وتختلف درجات حرارة الصهر باختلاف المعادن، ويمكن نزع المعادن

في مراحل مختلفة خلال عملية التسخين. وقد يستعمل النحاس أيضاً من دون تسخين لأنه مادة لدنة وتوجد نسبياً في ترسبات نقية.

وبداع من أن استعمال الفضة والذهب كان مقتصراً على الحكومة، فقد كان تعدين هذين المعدنين منظماً بدقة. وكان استعمال النحاس واسع الانتشار وبالتالي فقد كان غير منظم. وكانوا يعدّون ترسبات المعادن الخام والمناجم مواضع مقدسة، وكانت الشعائر تقام إكراماً لها (رو Rowe 1946: 246).

كان الإنكيون ملمين بجملة تقنيات لعمل المعادن، من بينها الطرق البسيط والسبك والصهر والبرشمة واللحام (وفي الحقيقة، إن مزاولة صناعة الأدوات المعدنية قد سبقت الإنكيين) وفي صناعة المجوهرات، استعمل الإنكيون الترصيع والتلبيس لإنجاز تصاميم معقدة. وغالباً ما كانوا يوظفون أكثر الحرفيين براعة من الشعوب المستعمره في كوزكو لصناعة المواد الباذخة، التي تتوافر لدينا روايات رائعة عنها من مصادر إسبانية. ومن سوء الحظ أنه لم يبق من أمثال تلك المواد سوى النزر القليل؛ إذ صهر أغلبها ليشحن إلى إسبانيا.

حرف أخرى

كانت النجارة نشاطاً تخصصياً، وهناك روايات من مصادر إسبانية عن «متخصصين بصناعة الكؤوس»ـ أفراد كانوا يصنعون كؤوساً خشبية، أو كيرو qeros بلغتهم. وكانت العظام والقواقع والريش تستعمل في صناعتها.

الحرفيون

من الجدير الالتفات إلى أن نحو نهاية إمبراطورية الإنكا، كان هناك منحى إلى تخصص أكبر في الأنشطة. ففي مقاطعة تشوباكوس Chupachos القريبة من وانوكو Huánuco الحديثة، كانت هناك تجمعات بأكملها مكرسة لنشاط واحد تقريباً من قبيل صناعة الفخاريات أو الأقمشة. وتجمعات أخرى تتضمن جامعي عسل وطيور وعمال ريش ومنتجي ملح ورعاة ومعدّني ذهب وزارعي كوكا (جوليان Julien 1993: 206—7). ويصعب معرفة درجة تحدّد هذا التخصص بمقاطعة تشوباكوس. لكن لا شك في أن

تجمعات إنتاج الفخاريات والأقمشة كانت موجودة في مناطق أخرى أيضاً، والمثال على هذا هو مستوطنة ميليرايا Milliraya التي ذُكرت في ما سبق.

الضريبة والتجارة

من مميزات النظام الضريبي الإنكي أنه لا يتطلب من الناس المستعمرين شيئاً سوى شغلهم: فما من أحد كان يعطي سَبَلة قرن أو قطعة قماش يملكها. وكان الإنكيون يستعملون الشغل لإنتاج الغذاء والمواد التي كانت مطلوبة لإدامة الإمبراطورية. وفي الواقع، أنتج هذا العمل فائض الغذاء الهائل الذي أسند الجيش وطبقة نبلاء الإنكيين بل حتى سائر عدد العمال الواسع الذين كانوا يأتون لخدمة الإمبراطورية. كما مكن هذا العمل الإنكيين من تشييد مدن ومعابد وطرق عامة كانت واحدة من أكبر الشبكات من نوعها في عالم ما قبل التاريخ، فضلاً عن توسيع أنظمة رعاياهم الزراعية.

الرسوم الزراعية

يقال إن كل أراضي الشعوب المستعمرة تؤول لملك الإنكا، كما جرت الإشارة في ما سبق. ويطالب الشعب المستعمر بعدها بالعمل في الأرض. وكان الانكيون يقسمون الغذاء الذي ينتجه كل شعب مستعمر إلى ثلاث حصص (رو Rowe 1946: 256): لرفد كهنة الديانة الإنكية وكاهناتها، ولرفد الإدارة السياسية الإنكية الواسعة، ولرفد حاجات الشعوب المستعمرة نفسها. وكان الانكيون ينتحلون أيضاً ملكية الحيوانات كلها ويقسمون مواشي الشعب المستعمر من اللاما والألباكا بالنِسَب نفسها. وعلى ما يبدو كان قدر الحصص الموزعة متغيراً؛ ففي بعض المناطق كان رجال الديانة الإنكية يتلقون الحصة الأكبر، وفي مناطق أخرى كانت الحصة الأكبر للدولة. وفي هذه الحالات، يظهر أن الإنكيين ينقصون من كمية الغذاء المخصص للشعب المفتوح بنسبة غير قليلة، الأمر الذي قد يتسبب بمجاعة. ومع ذلك، لاحظ كتاب إسبان أنهم كانوا يمنحون كل أسرة ما يكفيها من حقول لتستثمرها، وكان الإنكيون في كل سنة يعمدون إلى تقييم ما إذا كانت الأرض المتاحة للعائلة كافية لها (كوبو Cobo 1979: 213). علاوة على ذلك، كان الإنكيون يستعملون شغل الشعب المستعمر في إقامة حقول جديدة ونظم ريّ لإنتاج كميات غذاء إضافية. لذا لعل الناس لم يكونوا يُقسَرون على التنازل عن غالبية غذائهم،

بل يحتمل أن عليهم زيادة الإنتاج للإيفاء بمقتضيات الجزية الإنكية.

ميتا: رسم العمل الإنكي

كان الإنكيون يوجبون على الأفراد دافعي الرسوم (أي الأسر) العمل لمدة معينة من الوقت كل عام لصالح الإمبراطورية (دالتروي D'Altroy 2002: 265ff؛ رو Rowe 1946: 266). وكان يطلق على هذا النوع من العمل ميتا m'ita. فعلى كل رب أسرة، وهي الوحدة المطالبة بالرسم، إرسال شخص من عائلته للعمل في الميتا. وما يقوم به الأفراد في الميتا يعتمد على مهاراتهم. كما يطالب الكثير من الرجال بالخدمة في الجيش. وآخرون إما ينقلون الغذاء والسلع من الحقول المحلية إلى المراكز الإنكية أو يصنعون أشياء حرفية. ويقال إن كل عائلة كانت مطالبة بتوفير رداء قماشي واحد إلى الإنكيين، يستعمل في ما بعد لأغراض دنيوية، كالتي ذكرت في ما سبق.

كان شغل الميتا منظماً بطريقة معينة تقلل من الانقطاع في حياة العامل وعائلته. فعندما كان يستدعى شخص ما إلى العمل في الميتا، يقتضى من أفراد الأيلو الآخرين أن يقوموا بعمله الآخر المخصص للجماعة. وكان إشراك الأيلو في العمل محدداً بطريقة تتيح بقاء عدد كاف من الرجال في البيت للعناية بالحقول والمحاصيل. وكان عمل الكوراكا curacas الرئيس يتمثل بتحديد أولئك الذين يعملون في مناوبة الميتا. ويفيد المقتبس الآتي تبياناً لما ذكر:

> أمر ملك الإنكا ببناء جسر جديد على أحد الأنهار. ورأى مهندسون إنكيون أن هذا قد يستدعي 600 رجل لمدة 16 شهراً تقريباً. فأمر الملك بأخذ 600 رجل من تلك الولاية لبناء الجسر. فاستقدم حاكم الولاية الكوراكا الاثنين المشرفيْن على 10,000 أسرة وأبلغهم أن على كل واحدٍ منهما أن يأتي بثلاثمائة رجل. فراح كل منهما وأمر الكوراكا الاثنين اللذين تحته والمشرفيْن على 5,000 أسرة ليأتي كل واحد منهما بمائة وخمسين رجلاً. وراح كل من هذين الكوراكا واستدعى الكوراكا الخمسة الذين تحته المشرفيْن على 1,000 أسرة وأمرا كل واحد منهم أن يأت بثلاثين رجلاً. ودعا كل من هؤلاء المسؤولين اثنين من الكوراكا المشرفيْن على 500 رجل

> أن يأت كل واحد منهما بخمسة عشر رجلاً. وأمر الكوراكا الخمسة الذين تحتهم بالإتيان بثلاثة رجال من كل 100 أسرة! وعمل هؤلاء الرجال الستمئة لمدة من الوقت، وأنهوا مناوبة الميتا التي عليهم، ثم عادوا بعدها إلى بيوتهم. ثم تكررت العملية نفسها لاستقدام 600 رجل آخر للعمل. واستمر هذا الأمر 18 شهراً حتى اكتمل بناء الجسر.

من المهم ملاحظة أنه على الرغم من عدد الرجال الكبير المطلوب، استدعي في الواقع ثلاثة رجال فقط من 100 أسرة في مستوى الأيلو، أو 3٪ من عدد سكانه الكلي. وهذا يبين كيف كان الإنكيون يتمكنون من بناء عدد كبير جداً من الصروح في وقت قصير كهذا، وبعدُ يسمح هذا للناس أن يواصلوا أنشطتهم الحياتية بأقل مدة انقطاع. وينبغي الأخذ بالحسبان، بالطبع، أنه في حين كان 3 رجال من كل وحدة تضم 100 رب أسرة يعملون في الجسر، كان الآخرون يقدمون خدمات مختلفة من قبيل الخدمة في الجيش، أو العمل في المناجم، أو يشتغلون كمراسلين راكضين في نظام الاتصالات. وفي الحقيقة، أنه بداع من أن كل رجل كان مطالباً بالقيام ببعض العمل للإنكيين في كل عام، ثمة روايات تذكر استحداث أعمال غير ضرورية، ببساطة لإبقاء العمال مشغولين (رو Rowe 1946: 268)!

لعله ينبغي أيضاً ملاحظة أن النساء كن يلعبن دوراً كبيراً في نظام الميتا. فإذا دعي رجل ما إلى الخدمة في الجيش، قد تذهب زوجته برفقته لتقديم الدعم، إن لم يكن هناك قتال فعلي (جوليان Julien 1998). ولعل الأمر نفسه يصح على أنشطة أخرى أيضاً. وكانت الأعمال المنزلية تقوم على أدوار الجنس gender، بيد أن أحدها يتمم الآخر. وكانت هذه الأدوار تنفذ كذلك لخدمة الإنكيين.

مع أن غالبية أشغال الإمبراطورية كانت تنجز بيد عمّال الميتا، إلا أن بعض المهام كانت من التخصص لدرجة لا تسمح بإيكاله لعمال غير مهرة - كحال إنتاج مواد راقية (مثلاً، قماش الكومبي، وأعمال الذهب والفضة، إلخ). وكان الإنكيون قد أوجدوا وظائف توازي الموظفين المدنيين حالياً لإنجاز تلك المهام. وكانت هذه الوظائف وراثية، بمعنى أنها تنتقل من الأب إلى الابن. وكان أصحاب هذه الوظائف مستثنون من عمل الميتا ويقضون وقتهم طبعاً في مراكز إنكية. ولأنهم كانوا يعدون أفضل العمال المهرة، فقد كانوا ينتجون بضائع حصرية لوجهاء الإنكيين، وليس للعموم. أما الحرفيات التي تستعملها الطبقات

الدنيا فكانت تنتج في المراكز المتخصصة الموجودة في كل مقاطعة من المقاطعات التي مر ذكرها، أو ينجزها كل بيت.

كانت هناك فئات أخرى من العمال المتفرغين تماماً للعمل. فقد كان الياناكونا yanaconas يمثلون خدم الوجهاء ومرافقيهم. وكان يجري اختيار بعضهم لهذا العمل في عمر مبكرة، وآخرون يصيرون ياناكونا بمرسوم ملكي ويعملون في حقول ملوك الإنكا وسادة آخرين. وكان يجري اختيار الأخيرين من بين أفضل الرعايا المستعمرين وأكثرهم فطنة. ويمنح الياناكونا في بعض الأحيان وظائف في الحكومة إكراماً لخدمات قدموها إلى ملك إنكي (رو Rowe 1982: 101). وكحال مجالات مهنية أخرى، كانت وظائف الياناكونا وراثية.

الفئة الأخرى من عمال الوقت الكامل هم الألاكونا allaconas، أو النساء المنتخبات. ولأنهن كن ينتخبن من بين الشعوب المفتوحة في المقاطعات (ويلاحظ جوليان، 1998، أنهن من بين عائلات النخبة) ومن بين العائلات المعروفة في كوزكو، فقد كن يقمن بجملة من الأعمال المهمة لصالح الإمبراطورية. وكن يخترن لفتنتهن البدنية وهن بعمر العاشرة تقريباً، ويرسلن إلى مدارس حيث يتعلمن أنشطة منزلية من قبيل الحياكة والنسج والطبخ، وعمل التشيتشا، ومهارات أخرى. وطبقاً لما تذكر سلفربلات Silverblatt (1987: 82) فقد كانت في المقاطعات تراتبية تحكم أولئك النسوة على أساس كمالهن البدني ومرتبتهن الاجتماعية. فبعد إتمامهن تدريبهن في تلك المدارس، يؤخذ بعضهن إلى كوزكو ليعملن وصيفات في المعابد، فيما تعطى أخريات كزوجات إلى الكوراكا الأدنى مقاماً. ومنهن يصرن ماماكونا mamaconas، أي معلمات لنساء منتخبات أخريات في مراكز إنكية. ويرجح أن غالبية النساء المنتخبات كن يبقين في مراكز الولايات قرب ديارهن. وقد تصبح بنات وجهاء كوزكو أيضاً نساء منتخبات ويخدمن للأغراض ذاتها.

يبدو أن النساء المنتخبات كن يقمن بدور اقتصادي مهم جداً، بداع من إنهن يتولين إنتاج الكميات الكبيرة من القماش الذي يستعمله مسؤولو الإمبراطورية. وكن أيضاً يعددن الطعام والتشيتشا في منشآت حكومية لخدمة عمال الميتا، ولربما كن يوفرن المتعة. ولأنهن كنَّ كبضاعة ترف، فقد كان بعض الوجهاء يهبونهن إلى وجهاء آخرين، من بينهم زعماء شعوب مستعمرة، لتقوية تحالفات وعلاقات اجتماعية. ولهذه الأسباب كانت
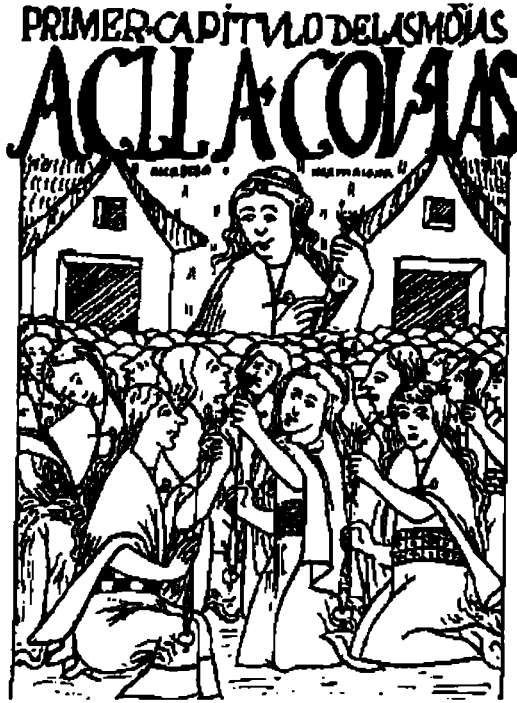
نساء منتخبات (الاكونا allaconas) يغزلن خيوطاً بإشراف ماماكونا mamacona.

النساء المنتخبات تحت سيطرة الحكومة بنحو صارم. لقد كن كالإماء بمعنى عدم امتلاكهن حرية شخصية، إلا إنهن كن يحظين بتقدير عال جداً لأن الإنكيين كانوا يحترمون خدماتهن.

هناك أيضاً مجموعة أخرى من المتخصصين المعفيين من الضرائب ألا وهم عمال الميتيما، الذين كانوا يرسلون للإقامة والعمل في مناطق بعيدة عن ديارهم، إما طوعاً أو كُرهاً. والمتعارف أنهم كانوا يؤدون أعمالاً زراعية. على أن بعض الميتيما كانوا ينفذون التزاماتهم تجاه الدولة. وعلى أساس متطلبات الإمبراطورية الكثيرة من الغذاء، لا ينبغي التقليل من شأن إسهامات الميتيما في ذلك.

الكيبو: حبل الحساب المعقود

أحد أكبر التحديات التي كانت تواجه الإنكيين عندما كانوا يوسعون إمبراطوريتهم

تمثل بكيفية تنسيق كل أنشطة الملايين العشرة أو يزيدون من رعاياهم، بخاصة كيفية متابعة حركة السلع والناس عبر أصقاع الإمبراطورية. فقد يجري التعامل مع هذا الأمر في العصر الحديث بالكومبيوترات، لكن كان قبل عصر الآلة ينجز بيد محاسبين يقيدون كتابة أعداد الناس والبضائع. بيد أن الإنكيين لم يضعوا أبداً شكلاً من أشكال الكتابة يمكنهم استعماله في حكمهم إمبراطوريتهم. فما كانوا يستعملونه أداة حبال معقودة شديدة التعقيد تدعى كيبو quipu.

الكيبو

يتكون الكيبو من سلسلة حبال قطنية أو صوفية تتدلى من حبل رئيس طويل. وترتبط العقد بكل حبل، وكل عقدة تمثل وحدة. وعلى كل حبل هناك عنقود من العقد، وكل عنقود يمثل عدداً عشرياً ـ عشرات، مئات، آلاف، وهكذا ـ مع وجود فراغات تفصل بين الوحدات العشرية على امتداد الحبل. وللحبال ألوان، وغالباً، مجموعات من حبال موضوعة معاً بلون موحّد، مما يوحي بوجود شيء من القاسم المشترك. وتنظيم الحبال على طول الحبل الرئيس مهم أيضاً. فقد كشف عمل أورتون Urton (1995) عن معلومات إضافية مشفرة في الكيبو. ففي تحليل مفصّل لحبل واحد من الكيبو، وجد مجموعتين مزدوجتين من الخيوط المدلاة بمعدل 30 خيطاً في كل زوج، وهو عدد أيام الشهر القمري التقريبي. والعدد الفعلي للخيوط المدلاة في 24 زوجاً هو 730، وهذا عدد الأيام في عامين. والعدد الكلي للعقد في الجزء الرئيس من الكيبو هو 3,005، وهذا رقم قريب جداً من عدد دافعي الضرائب البالغ 3,000 الذي كان قد تعيَّن في إحصاءات مبكرة لسكان المستعمرات في هذه المنطقة. ويرى أورتون (2001) أن هذا يشير إلى وضع تقويم بحوليْن خاص بفروضات الميتا. أما ما قد تمثله بقية خيوط الكيبو فلمّا يزل ينتظر الكشف.

ذكر إخباريون إسبان كثر نظام الكيبو في التأريخ الذي استعمله الإنكيون. وللأسف

الشديد، ما من أحد منهم وصف بالتفصيل كيف كانوا يستعملونه، على الرغم من أنه كان يعد دقيقاً إلى درجة أنه كان يستعمل في التقاضي خلال الحقبة الاستعمارية. وبينما نرى في الكيبو ابتكاراً إنكياً، إلا أنه في الحقيقة أن أشياء مماثلة قد وجدت في ثقافة الأواري Huari التي سبق وجودها الإنكيين بنحو 1,000 عام، لذا يُرجح أن الكيبو يمثل موروثاً سارياً لزمن طويل في الأنديز. زد على ذلك، يلاحظ دالتروي D'Altroy (2002: 18) أنْ ليس الإنكيين وحدهم مَنْ استعمله، بل يحتمل أن غالبية الجماعات المستعمرة استعملته. وعرفنا نحن ان استعماله كان مقصوراً على بعض الأفراد من طبقة المستثنين من الضرائب الذين يعرفون قراءته، وكانوا يُسموْن كيبو كامايوكس quipu camayocs. فقد كان عملهم تسجيل المعلومات على الكيبو، وعرضها على السلطات وقتما يقتضي الحال. فقد كانوا ينزلون بين الأيلو ayllus لمتابعة تسجيلات دقيقة عن انسياب البضائع والخدمات في أصقاع الإمبراطورية. وكان عليهم العمل عن كثب مع الكوراكا curacas بغية تحديد عدد البضائع التي استعملت أو أنتجت، وعدد الناس المطلوب لانجاز بعض المهام.

في حين ترى غالبية المعلومات التي نعرضها أن الكيبو يستعمل لحفظ مسار البضائع والناس، فإنه كان يستعمل أيضاً لإدامة تواريخ السلالة الملكية، بل حتى في إلقاء الشِعْر وسرد الأساطير. أما كيف كان الكيبو يستعمل فعلاً في الأنشطة الأخيرة هذه فأمر غير مؤكد، على الرغم من وجود بعض المحاولات الأولية في فهم هذه الاستعمالات (Minelli 1999: 192).

التجارة والمتاجرة

كانت التجارة بين الناس في إمبراطورية الإنكا غير موجودة عملياً، فيما كانت مظاهر الاقتصاد كلها تحت سيطرة الإنكيين. لكن كان يتاح للناس داخل المقاطعات أن يقيموا أسواقاً، يتبادلون فيها السلع المنتجة محليا (رو Rowe 1946: 270). ويتوجب أن تكون هذه البضائع استهلاكية لأن الإنكيين يحتكرون مواد الترف. ولا زالت الأسواق المحلية موجودة إلى اليوم في الكثير من مناطق المرتفعات.

كان الإنكيون يشاركون على طول حدود إمبراطوريتهم في التبادل التجاري مع

محاسب إنكي يمسك بيده كيبو quipu وتحت قدمه رقعة للعدّ.

مجموعات من خارجها، إلاّ أن ذلك كان مجرد استهلال لفتح أراضيها. وقد درس فرانك سولومُن Frank Salomon (1986) تبادل التأثير المتبادل مع الإنكيين في الإكوادور التي تحاذي حدودهم الشمالية وغير الإنكيين، فوجد أنهم واصلوا مزاولة تبادلات محلية في مرحلة اتصالهم الأولى. وكانت عمليات التبادل هذه تتغيَّر إلى نمط السيطرة الإنكي بعد استيعاب هذه الجماعة أو تلك، أو غزوها.

الهندسة والعمارة

كان الإنكيون مهندسين مَهَرَة، كما تبرهن الكثير من مبانيهم. ليس لأن العديد من مبانيهم ما زال قائماً بعد انقضاء نحو 500 عام في أكثر مناطق العالم نشاطاً بركانياً، بل إن نظم الري التي أنشأوها بقيت عاملة، ولا زالت مصاطبهم الزراعية تديم حقول الذرة والبطاطا ومزروعات أخرى. ففي زلزال شديد حدث في وادي كولكا Colca في جنوب

بيرو، تدمرت بيوت بلدة ماكاس Macas كلها فعلياً، ولم يبق قائماً منها غير تلك التي بناها الإنكيون، الذين يبدو أنهم كانوا يعرفون أفضل من ناس اليوم أية أرض أشد صلابة ويشيدون عليها (بابلو دي لا فيرا كروز Pablo de la Vera Cruz، لقاء شخصي، 1991). ويبين العمل الذي قام به المهندس المدني كينيث رايت وزملاؤه (رايت وزيغارا Wright and Zegarra 2000؛ رايت Wright 2006) في مواقع تيبون Tipon وماتشو بيتشو Machu Picchu، كم هي معقدة الهندسة الإنكية.

العمارة العامة والخاصة

لعل الإنكيين هم الأكثر شهرة لأسلوبهم في صفّ أحجار البناء بإحكام لا يمكن للمرء معه تمرير نصل سكين بينها. وما هذه التقنية إلاّ واحدة من عدة كان الإنكيون يستعملونها ويدخرونها لأكثر البنايات أهمية كالمعابد ومباني الإدارة ومساكن الملك. أما أكثر التقنيات شيوعاً فكانت تستعمل في معظم البنايات الأخرى، وقلّما تعدُّ هذه البنايات إنكية الأصل

عمل صخري في كوزكو يبين روعة رصف الصخور من دون استعمال ملاط أو إسمنت

(نيلز 1987 Niles). وفوق ذلك، ثمة سمات رائجة في العمارة الإنكية، سواء كانت من نوعية عالية أم متدنية، تجعل تحديدها ممكناً.

أنماط البناء الحجري

كانت المباني الإنكية في الأعم الأغلب من الحجر، يأخذونه من الأرض ثم يفرشونه بالملاط. وكانوا يستعملون أيضاً اللَّبن، أو الآجر الطيني، على الرغم من أن هذه المادة أدنى مقاومة في الأعالي المَطيرة. ولتغطية خشونة مظهر حجر الأرض أو اللَّبن، توضع طبقة من الطين أو الصلصال على الجدران ثم تُدهَن. وأشهر المباني الإنكية مشيدة من حجر فاخر، من أحجار مصفوفة بعناية حد أن الواحدة تلتصق بدقة بالأخرى. ولإنجاز جدران بمظهر صقيل ومتسق بنحو استثنائي، كان عمال الحجر الإنكيون يستعملون أدوات من حجر آخر أشد صلابة وأزاميل برونزية. وكانوا يكّونون الأحجار بأشكال مربعة أو مستطيلة تقريباً، ثم يستعملونها كقرميد. ويظهر أن هذا الأسلوب مخصص لأكثر البنايات أهمية. ويتركون أحياناً الأحجار بأشكال غير منتظمة ويشتغلونها على طول الحافات لرصفها معاً بإحكام. وغالباً ما كانت هذه التقنية تستعمل عندما يتطلب البناء أحجاراً كبيرة جداً، كما في جدران السطوح أو المباني على ضفاف الأنهار (هايسلوب 1990 Hyslop: 15).

تتطلب كل أشكال البناء الحجري الراقية جهداً هائلاً لأن ملاءمة الأحجار كانت تتم بدق حواف الصخور وسحقها بأحجار أشد صلابة أو أزاميل برونزية حتى تتلاءم (بروتزن 1980 Protzen، 1982). وعلى الرغم من أن لا أسرار في كيفية إنجاز أعمال البناء الحجرية الإنكية، لا ينظر عموماً في مدى بطء هذا العمل وما يرافقه من ملل. لذا يرجَّح أن أعمال البناء الحجرية كانت حرفة لها ناسها المتخصصون، كما كان الحال مع الفخاريات والنسيج. إلا أنه كان يتوجب إشراك عدد من العمال غير المهرة في قلع الصخور، ونقلها، ورفعها إلى موضعها في البناء. وكانوا يستعملون سلالم حجرية لرفع الأحجار الكبيرة إن كان الأمر يستدعي أكثر من صف الصخور. ويشير هذا النشاط إلى مدى ضخامة القوة العاملة التي كان الإنكيون يتمكنون من استنفارها.

بنية العمارة

كانت بنية المباني الإنكية الأساس تتمثل ببناء مستطيل، سواء كان واسعاً جداً أو صغيراً جداً، يحتوي على غرفة واحدة (هايسلوب Hyslop 1990: 5). وكان هناك، في العادة، باب واحد في منتصف جدار عال، على أنه قد يكون هناك أكثر من باب إذا ما كانت الغرفة طويلة جداً. وتتكون غالبية المباني الإنكية من طابق واحد. وإذا ما كانت البناية على جانب تل شديد الانحدار، قد يضاف إليها طابق آخر يدخل إليه من الخلف والأعلى (غاسباريني ومارغوليس Gasparini and Margolis 1980). ففي المنطقة المحيطة بكوزكو، كانت تشيد مبان بطابقين أو حتى بثلاثة، على أن الطوابق الثلاثة كانت نادرة جداً (رو Rowe 1946: 228). وكانت السقوف تصنع من الغِماء[1]. وكانت غالبية سقوف المباني في المناطق المرتفعة شديدة الميلان دائماً، كي تسمح بانزلاق مياه الأمطار. ومعظم المباني الإنكية مستطيلة الشكل، كما كانوا يستعملون أشكالاً أخرى أحياناً، فكانت هناك مبان دائرية الشكل وعلى شكل حرف U.

وكان من المتعارف عليه أن تكون المباني المستطيلة مجموعة في كانتشا cancha، أي مجمع من ثلاثة مبان أو أكثر تحيط بفناء مفتوح. وكانوا يحيطون المجمع بسور. وقد يكون الكانتشا، كحال البناء المستطيل الأساس، صغيراً (يتكون من مبان صغيرة وفناء صغير) أو واسعاً جداً (يضم عدداً أكثر من المباني وأكبر حجماً ويشتمل على فضاء أوسع).

كانت الكانتشا في ما يبدو تفيد في جملة أغراض متنوعة. فكان الكثير منها مساكن، لكن أخرى كانت تستعمل كمعابد أو مناطق إنتاج حرفيات (هايسلوب Hyslop 1990: 17). وكانت المباني داخل الكانتشا تستعمل لأغراض مختلفة. إذ يُعتقد أن عندما تستعمل الكانتشا كمسكن، فمن المحتمل أن عائلة كبيرة كانت تقطنه (رو Rowe 1946: 223). وقد عُثِر على أماكن مقدسة في بعض الكانتشا مثل تلك الموجودة في ماتشو بيتشو Machu Picchu.

تنحو المساكن، خارج كوزكو في المناطق المفتوحة، إلى أن تكون مختلفة. ولأن من أعراف الإنكيين ترك أية جماعة مستعمرة على حالها قدر الإمكان، فإن غالبية المستعمرين كانوا يبقون على أنماط بيوتهم كما كان حالهم قبل غزوهم. وعليه قد تكون البيوت في المقاطعات دائرية أو مستطيلة. إذ أن وانكا Wanka، التي هي مجموعة تعيش وسط

(1) الغِماء: سقف مغطى بالقش أو الخيزران أو من مواد مماثلة أو هو المادة التي تستعمل في تغطية كهذه (م).

منطقة المرتفعات مباشرة شرق مدينة ليما الحالية، كانت لديها مجمعات من بيوت مدوّرة، مثلما كانت بيوت مجموعات منطقة أوانوكو Huánuco. ولعل تقنيات الإنشاء مختلفة أيضاً. فعلى الساحل، حيث الصخور غير متوافرة بالكميات التي عليها في المرتفعات، يعد الآجر هو مادة البناء الأكثر شيوعاً؛ ولندرة سقوط المطر، كانت السقوف مسطحة ومصنوعة من خيزران محبوك.

والحال هذه، يصعب أحياناً تحديد مستوطنة معينة بأنها تنتمي إلى إمبراطورية الإنكا لأن بيوتها وأدواتها قد تكون من النوع نفسه الذي كان مستعملاً قبل الفتح الإنكي. والسبيل الوحيد أحياناً الذي يتحقق به المرء من وجود مسؤول إنكي هو بوجود بيت مستطيل الشكل وسط بيوت مدوّرة أو بوجود فخاريات إنكية (مالباس 1993b Malpass).

ثمة بناء إنكي متميز آخر هو الكالانكا callanca، أي «الصالة الكبرى.» فمثلما تشير إليه تسميتها، كانت بناية طويلة ومستطيلة ـ لكن مثل أغلب البنى المعمارية، ليس فيها جدران داخلية. وغالباً ما كانت تحتوي مباني الكالانكا على أبواب متعددة. وعادة ما

ملك إنكي جالس على قمة منصة أوشنو ushnu في كوزكو

يعثر على هذه المباني حول أسواق إنكية، إنكا بلازا Inca Plazas، وفيها أبواب تنفتح على الأسواق Plazas. وليس مؤكداً لأجل أي شيء كانت تستعمل هذه المباني، على أن التنقيب فيها عادة ما يكشف عن نفايات من شتى الأنواع (موريس وتومسن Morris and Thompson 1985: 89). لذا لعلها كانت تستعمل كمحال سكن مؤقت لأناس في المراكز الإنكية من خارج كوزكو، لكن من المرجح أن تلك الموجودة في كوزكو نفسها كانت تستعمل لمراسم معينة (هايسلوب Hyslop 1990: 18).

عثر على مبنى لافت متعدد الأغراض في مستوطنات إنكية يسمى أوشنو ushnu، أي المنصة الرئيسة. ويوجد هذا المبنى عادة وسط مراكز مهمة تعود للدولة، أي في منتصف الميدان الرئيس أو في أحد أطرافه (هايسلوب Hyslop 1990: 69). وكانت تستعمل في الشعائر، كجناح عرض، ومكان يستطيع فيه ملك الإنكا لقاء الزعماء المستعمرين. وتوجد الأشنو ushnus في مراكز إنكية معينة فقط شيدت لإدارة المقاطعات المفتوحة وفي كوزكو. على هذا، كانت تمثل، كحال المباني الإنكية العامة الأخرى، رموزاً للهيمنة الإنكية على الشعب المستعمر.

ساكتشواماان Sacsahuaman، قبل كوزكو. هذا البناء، الذي غالبا ما يطلق عليه القلعة بسبب طبيعة الجدران الخارجية الدفاعية (الظاهرة هنا)، ربما كان يستعمل لأغراض متعددة.

تتمثل السمة الأخرى الأكثر بروزاً في العمارة الإنكية باستعمال أشكال هندسية شبه منحرفة. ففي جوار كوزكو، غالبية الفتحات في البنايات والأبواب والشبابيك، بل حتى الأركان الداخلية بُنيت بشكل شبه منحرف، وجزؤها الأوسع في الأسفل. ولاتعرف حتى الآن دلالة هذا الشكل. وتظهر الأشكال المستطيلة في المناطق الواقعة جنوب كوزكو. وتختفي الأشكال شبه المنحرفة في المناطق الإمبراطورية جنوب بحيرة تيتيكاكا (هايسلوب Hyslop 1990: 9 – 10).

المباني العامة

يسهل التحقق من المباني الإنكية بأشكالها وبنائها الدقيق وميزاتها المعمارية مثل الأبواب ذات الشكل شبه المنحرف والأركان. وتوجد هذه المباني في الأماكن التي شيد الإنكيون فيها بنايات ذات أهمية تستدعي عناية اضافية. وفي مراكز إدارية مشيدة في أراض مفتوحة، لربما تبدّت لهم ضرورة قصوى في بناء سلسلة من المباني الكبيرة وبأسلوب بناء رفيع لترك انطباع في نفوس الشعب المستعمر بسلطة ملوك الإنكا ومقدرتهم. ففي أماكن كهذه، تفيد صروح الكالانكا callancas والكانتشا canchas كرموز منظورة عن سلطة الإنكا. بيد أن أسلوب البناء الرفيع شيء شائع في منطقة كوزكو أكثر مما عليه في أماكن أخرى في الإمبراطورية، وهذا الأسلوب المعماري غير موجود فعلياً في جزء الإمبراطورية الجنوبي أو الغربي (لينتش Lynch 1993: 131).

المعابد

كانت المعابد مباني مهمة أيضاً ـ ولا أكبر من أهمية معبد كوريكانتشا Coricancha، أي معبد الشمس، في كوزكو. ولعل هذا المعبد كان المبنى الأكثر أهمية في الإمبراطورية. وفي الحقيقة، تُعدُّ جدرانه التي لا زالت قائمة (فقد بنى الإسبان كنيسة فوقه) من بين أرفع الأمثلة عن البناء الصخري الإنكي في أي مكان. ويؤوي معبد كوريكانتشا أكثر الأرباب أهمية في الإمبراطورية فضلاً عن مومياء بعض ملوكهم. ويغلف الذهب جدرانه الداخلية. وتوجد معابد أخرى عدة في كوزكو، لكن لم يبق منها إلاّ القليل بعد الفتح الإسباني، الذي كان من أبرز غاياته طمس الديانة الإنكية تماماً.

ساكتشاواماان

هناك بنية معمارية أخرى ذات أهمية في كوزكو تسمى ساكتشاواماان sacsahuaman، المجمع المعماري الضخم الذي يقع على تل ضخم إلى الشمال من المدينة. ويقال إن 30,000 رجلاً عملوا في تشييده. وبعض أضخم الصخور التي لم يسبق للإنكيين أن عملوها أو نقلوها تقع في جدران هذا البناء، ويزيد ارتفاع أكبرها على 4 أمتار (13 قدماً). وتتبين أهمية البناء بدقة تشييده. ولا يعرف الغرض من هذا البناء، على أن من المحتمل أنه يفيد في أغراض مختلفة. وكثيراً ما ينظر إليه على أنه حصن بسبب من تصميم جدرانه الذي يوحي بذلك، مع أن كتّاباً إسبان متقدمين رأوا أن له وظائف دينية أيضاً، فيما أشار آخرون إلى تخزين كميات كبيرة من السلع فيه.

تخطيط البلدات

بداع من أن المستوطنات كانت قد شيدت أصلاً بيد الإنكيين وليس بيد أهل البلدات المفتوحة، لذا تراها تشترك ببعض الخصائص التي تشير إلى العناية بتخطيطها. على أن أنماط تشييد المستوطنات الإنكية تختلف اختلافاً يكفي للإيحاء بأن الإنكيين لم يكونوا يتوافرون على معيار واحد يسري على البلدات كلها. إذ لاحظ العديد من الكتاب الإسبان بأن كوزكو والمنطقة المحيطة بها قد أقيمت لتكون أنموذجاً مصغراً عن إمبراطورية الإنكا نفسها (هايسلوب Hyslop 1990: 64). لذلك من الملائم وصف تصميم هذه العاصمة.

في ذروة سطوتها في أوائل الأعوام 1500، ربما بلغ عدد سكان وادي كوزكو ما بين 100,000 و150,000 (دالتروي D'Altroy 2002: 114). وتشير روايات إنكية، على الرغم من أنها أُرّخت قبل تاسع الملوك، إلى أن باتشاكوتي Pachacuti بنى المدينة بالتصميم الذي كانت عليه عند مجيء الإسبان. كانت المدينة تشتمل على قطاعات عدة تقطنها مجموعات مختلفة. وكان القطاع الذي يقع في المركز هو الأكثر أهمية، لأن الإنكيين أنفسهم هم الذين كانوا يشغلونه. وكان ينقسم إلى قطاعين، يقطنهما على التوالي أفراد أنانسايا Hanansaya وأورينسايا Hurinsaya. وفي مركز هذا القطاع ميدانان اثنان، كان أحدهما مغطى برمل سُمكه إنشات معينة جيء به من المحيط الهادئ (هايسلوب Hyslop

1990: 37). وحول هذا البلازا الكثير من المباني المهمة، ومن ضمنها مكان عمل للنساء المنتخبات، والعديد من الكالانكا، ومقرات إقامة ملوك إنكيين، وأعيان آخرين، وباناكا ملكية. وتقع أيضاً أماكن مقدسة ومستودعات ومعابد، في منطقة وسط كوزكو، وهناك أيضاً كوريكانتشا.

يتألف سكان كوزكو، بوصفها أنموذجاً للإمبراطورية، من إنكيين دماً، وإنكيين امتيازاً، وميتيما، والكثير من أبناء الجماعات المفتوحة. ويقيم فيها أناس يزاولون مهناً متنوعة، سواء لتأدية فروض عمل دائم أو مؤقت للإنكيين.

كانت تحيط بهذه المدينة منطقة مخصصة للزراعة. وهذه المنطقة لا شك تفصل أعيان الإنكيين عن جماعات أدنى مقاماً تعيش بعيداً عن مركز البلدة. وكانت أحياء عدة، تقع بعد الأراضي الزراعية، يقطنها أناس لم يكونوا من الإنكيين: إذ هم زعماء من جماعات مستعمرة من المقاطعات، وأبناؤهم وخدمهم، وميتيما من أصقاع الإمبراطورية كلها. وغالباً ما كان أهل هذه الفئة الأخيرة حرفيون يقيمون هنا لخدمة الإنكيين (هايسلوب

خريطة غوامان بوما عن مركز كوزكو تبيّن الساحتين (بلازا) الرئيستين، ونهر أواتاني Huatanay، وبيوتاً، وأماكن مقدسة.

Hyslop 1990: 63). وكانت هناك مستوطنات، بعيداً من مركز البلدة، يقيم فيها إنكيون امتيازاً.

على هذا كانت عاصمة الإنكا تجمعاً من مستوطنات صغيرة منعزلة عن القطاع المركزي بنظم حقول أكثر من كونها مدينة تتصل شوارعها مع بعضها البعض، كحال المدن الحديثة. وهذه المنطقة الواسعة هي التي تضم 100,000 شخص؛ فيما كان سكان قطاع المركز بلا شك أدنى عدداً.

أضف إلى ذلك، هناك مستوطنات إنكية قائمة على أساس نمط توزيع مبان متشابك، تمر بها شوارع بزوايا قياسها 90 درجة، تشبه كثيراً الشوارع الحديثة، أو على أساس طراز شعاعي، مثل أسلاك عجلة الدراجة الهوائية المشدودة إلى المركز (هايسلوب Hyslop 1990: chap. 7). أما الطراز المتشابك فأقلّ شيوعاً ويوجد في الغالب في المناطق المحيطة بكوزكو. ويبدو أنه يقترن بالأرض المنبسطة نسبياً. ودائماً ما كانت هناك بلازا، إلا أنها ليست في المركز؛ بل بالأحرى تقع في الأعم الأغلب في أحد أطراف المستوطنة أو في أحد جوانبها.

طبقاً لما يذكر جون هايسلوب john Hyslop، وهو مختص في العمارة الإنكية وتخطيط الاستيطان، لربما كان قطاع وسط كوزكو يضم 20 وحدة مختلفة تتحدد بتقاطعات الشوارع المختلفة. ويجدر الانتباه إلى ملاحظة أن مستوطنات إنكية أخرى موزّعة بشبكات تضم أيضاً نحو 20 أو 40 وحدة، مما يشير إلى أنها ربما قد وضعت وراء قطاع مركز كوزكو مباشرة كأنموذج (هايسلوب Hyslop 1990: 202). وحقيقة وجود نمط الطراز المتشابك بالقرب من كوزكو يشير أيضاً إلى أنه ربما كان أنموذجاً سابقاً، استعمل قبل بدء الإمبراطورية بفتوحاتها الكبرى.

إن طرز توزيع الأحياء بنحو شعاعي أكثر انتشاراً من الطرز المتشابكة، وأفضل الأمثلة عن هذا موجودة في مناطق بعيدة عن كوزكو. إذ صار هذا الطراز أكثر شيوعاً مع توسع الإمبراطورية؛ ولعله كان الطراز المفضل في وقت لاحق. بيد أن الطراز الشعاعي موجود أيضاً في كوزكو نفسها، حيث يصبح الطراز التشابك شعاعياً كلما يسير المرء مبتعداً عن قطاع المركز متجهاً الى المستوطنات النائية. ولعل نظام التوزيع الشعاعي يقوم على

منظومة سيك[1] ceque الدينية (انظر الفصل الرابع).

يعد نظام التوزيع الشعاعي أنموذجياً في المراكز الإدارية الإنكية في مناطق المقاطعات. فمن السمات الرئيسة أنها كلها تنطلق شعاعياً من نقطة واحدة عادة ما تكون منصة أوشنو ushnu في وسط سوق plaza معين. وهذا يشير إلى أن نقطة الأصل كانت ذات رمزية عالية. كما أن منظومة السيك في كوزكو تصدر من نقطة واحدة، هي كوريكانتشا. أمّا لَمَ لا تبدأ من الأوشنو في الميدان الرئيس فهو أمر غير مؤكد، لكن يحتمل أنه يعكس أهمية كوريكانتشا البالغة.

إن استعمال الطراز الشعاعي، واقترانه بمنظومة السيك الدينية، توحي أن الإنكيين كانوا يستعملونه كأنموذج رسمي لإقامة المستوطنات في مناطق مفتوحة. إنه يحمل إشارة إلى العاصمة الملكية، كوزكو، وفي الوقت نفسه يفصح عن بعض أكثر الجوانب أهمية في المجتمع الإنكي (هايسلوب Hyslop 1990: 221—22).

الأملاك الخاصة

كان هناك نوع خاص من الاستيطان في إمبراطورية الإنكا يتمثل بالأملاك الخاصة. وكان هذا النوع يشتمل على الأراضي والمباني المقترنة بها التي تنتمي إلى شخص معين أو مؤسسة. وأغلب تلك المباني والأراضي المشهورة كانت ملكا لملوك إنكيين أو أشخاص مقربين منهم: إخوانهم، أعمامهم أو أخوالهم، بل حتى جواريهم (نايلز Niles 1993: 147؛ نايلز وباتسن Niles and Batson 2007). وبداع من أن على كل ملك أن يجد لنفسه أرضاً جديدة وثروة، فكان يكسب تدريجياً أملاكاً جديدة تخصه. لذا كانت أراض زراعية

(1) من المظاهر الملفتة في حضارة الإنكا هو نظام سيك ceque system، الذي هو سلسلة من خطوط طرق تربط أماكن مقدسة ذات طراز عمراني متميز بالمدن الرئيسة في العالم الإنكي. ويعد نظام السيك في جزء منه طريق قوافل، وفي جزء منه طريقة حسابية، وفي جزء منه مراسيم دينية؛ كلها بدقة مدهشة، حسب ما يصفه مختصون. ولا يعرف دارسو هذه الحضارة الغاية الحقيقية الشاملة من وراء نظام السيك، على الرغم مما سجله مؤرخون إسبان، وما أسفر عنه عمل أركيولوجيين وإثنوغرافيين، إلاّ أن هناك بعض الأفكار عن هذا النظام. تعني كلمة سيك ceque بلغة الكيشوا «خط»، إلا أنها كانت تعني أشياء كثيرة لدى الإنكيين، بعضها لم يفهم إلى الآن. فقد تعني «طريقاً» أو «قافلة»، أو «خطاً حدودياً»، أو «مجموعة من الأماكن المقدسة»، أو تعبيراً خطياً عن القرابة. وربما تعني أيضاً شيئاً من «الرحلة الدينية» أو «الحج». إذ ينبثق من عاصمة الإنكا، كوزكو، 42 خطاً أو سيكا تبدو أنها تمثل الحدود السياسية وطرق القوافل التي تنتشر عليها مئات الأماكن المقدسة. وكانت هذه الطرق جزءاً جوهرياً في سيطرة إمبراطورية الإنكا على ممتلكاتها (م).

كثيرة محيطة بكوزكو ملكية خاصة فعلياً. وباتساع عدد الملوك، أُسّست أملاك خاصة جديدة في وادي فيلكانوتا ـ أوروبامبا Vilcanota–Urubamba المتاخم للعاصمة، على أن ممتلكات أخرى أقيمت في المقاطعات بعيداً عن العاصمة (جوليان Julien 1993).

أقيمت غالبية الممتلكات الخاصة لغرض إنتاج الغذاء لمالكها. وكان هذا الإنتاج مهماً: فكلما كان الشخص المالك أكبر شأناً، كلما كان متوقعاً منه أو منها توفير كثير من الغذاء أو السلع لعماله أو عمالها، أو إعطائهم هدايا. وكانت أنواع مختلفة من الأغذية تنتج في الأملاك الخاصة، على الرغم من أن في منطقة كوزكو، كانت غالبية الأملاك مخصصة لإنتاج الذرة (نايلز Niles 1993: 150).

كانت هناك أملاك أخرى يرجّح أنها كانت تستعمل كمحال إقامة لمالكيها ـ كمكان يأتيه المالك من كوزكو طلبا للراحة. وبعض من أشهر مواقع الإنكا، مثل ماتشو بيتشو، كانت فعلياً أملاكاً خاصة من هذا النوع (انظر الفصل الفصل الخامس). وكانت لهذه الممتلكات وظيفة تجمعات صغيرة. بحقولها الخاصة بها ومطابخها ومخادع النوم فيها، وبيوت خدمها، وأماكن عبادتها أربابها. وكثيراً ما يكون بيت المالك قصراً مثيراً، تظهر عليه مميزات البناء المهيبة كلها. وترى سوزان نايلز Susan Niles، وهي خبيرة في الممتلكات الإنكية الخاصة، أن الممتلكات كانت علامة رفعة مقام مهمة لدى الملوك الجدد وأن إقامتها حظيت بتوثيق دقيق على قدم المساواة مع فتوحات الملك وإنجازاته الأخرى المرموقة (نايلز Niles 1993: 150).

أعمال المدرجات والري

أحد إنجازات الإنكيين التي تحظى بتقدير أدنى قيمة هي وضعهم نظماً زراعية كبيرة في عموم مناطق الأنديز. وكما ذكر في موضع سابق، أعاد الإنكيون تنظيم الشعوب المستعمرة بغاية زيادة إنتاجها من المحاصيل الزراعية، لا سيما الذرة. وكان هذا الأمر يتم في مناطق المرتفعات بإنشاء مجموعات كبيرة من المدرجات وأعمال الري. وهناك في الأنديز اليوم ما يقرب إلى مليون هكتار من الأراضي المقامة عليها مصاطب، كما تشير دراسات عدة أجريت على أجزاء مختلفة من الأنديز إلى أن الكثير من هذه المدرجات قد أُقيم خلال عهود الإنكا (دينيفان، وماثيوسن، وناب Denevan، Mathewson، and Knapp 1987). وعلى الرغم من أن استعمال المدرجات كان سابقاً على الإنكيين، إلاّ

أنهم غالباً ما وسعوا من نظمها القائمة وحسنوها بإضافة نظم ري إليها (مالباس Malpass 1987؛ وشرايبر Schreiber 1993). وتتبين فاعلية المهندسين الإنكيين في تخطيط المدرجات بحقيقة أن الكثير منها لا زالت مستعملة حتى يومنا هذا، بعد نحو 500 عام على إنشائها.

كانت نظم إدارة الري والماء بديعة أيضاً. ففي أحوال كثيرة كان طول قنوات الري يبلغ كيلومترات عدة، وكانت أحياناً مرصوفة ومكسوة بحجر. كما سوّى الإنكيون قنوات الأنهار كلها في منطقة كوزكو، ونُقِلَ أن قاع نهر تولوميو Tullumayo، حيث يمر بكوزكو، كان معبّداً كلياً (رو Rowe 1946: 233). وكانت القنوات المُعدَّة لجلب الماء إلى الأخاديد ومستودعات خزن الماء خلال فصل الجفاف، سمات بارعة في الهندسة الإنكية. ولعل موقع تيبون Tipon أفضل مثال على حنكة الهندسة الإنكية في مجال المدرجات والقنوات (رايت Wright 2006).

نظم الطرق

يعدّ نظام الطرق الإنكي واحداً من أكبر مثيلاته في العصور القديمة، إذ يمتد على مسافة أطول من 40,000 كيلومتر (25,000 ميل) (هايسلوب Hyslop 1984). وكان هناك طريقان رئيسان: واحد في المرتفعات والآخر ساحلي (انظر الخريطة الواردة في المقدمة). وهناك طرق تربط بينهما لتوصل المراكز الكبرى ببعضها البعض. إذ يمتد طريق المرتفعات من شمال الإكوادور وصولاً إلى الأرجنتين، فيما يبدأ الطريق الساحلي عند الحدود الأكوادورية مع بيرو ويمتد على الأقل حتى أريكويبا Arequipa[1]. وهناك جزء آخر من هذا الطريق كان يعبر صحراء شيلي الساحلية.

نظام الطرق الإنكي

الاقتباس الآتي من تاريخ الأب برنابه كوبو الذي وضعه في العام 1653 عن مملكة بيرو:

عبّد الإنكيون طريقين ملكيين يقطعان مملكتهم من ولاية كيتو Quito حتى مملكة شيلي، التي تبعد تسعمائة فرسخاً[2]، أحدهما بمحاذاة... الساحل

(1) عاصمة منطقة أريكويبا في جنوب بيرو. وتقع في جبال الأنديز، على ارتفاع 2,380 متراً فوق مستوى البحر (م)

(2) مقياس قديم للمسافات الأرضية، يعادل نحو ثلاثة أميال (الميل الواحد= 1,609344 كم) (م)

> البحري والآخر داخلي يمر بمقاطعات السلسلة الجبلية الوعرة... يمر الطريق [الساحلي] بخط مستقيم تماماً، وفي الوديان يصبح جدُّ ضيق... [حتى] إنه لا يسع سوى ثلاثة أشخاص على خيولهم يمشون جنباً إلى جنب... وأقيم على جانبيه جدار طيني سميك ارتفاعه استادوان اثنان estados أو ثلاثة [5 أمتار]... وطريق السلسلة الجبلية هذا... فيه جسور بنيت بعناية تبلغ أطوالها فرسخاً واحداً، وفرسخين، وثلاثة في بعض المواضع وعرضها يتراوح بين خمسة عشر وعشرين قدماً، وهي مستقيمة تماماً وترتفع فوق مستوى الأرض [بداع من أن السلسلة الجبلية مطيرة وسبخة]... وإذا ما مر الطريق على أكتاف تلال صخرية الحافات وتفترشها صخور، فكان عرض الطريق يسع شخصاً واحداً يقود لاما أو شاة، إذ أن الطريق قد شُقّ في الصخور نفسها... وقد يكون من الأفضل مقارنة [هذه الطرق] بأفضل ما أقامه الرومان من طرق (كوبو Cobo 1979: 223—27)

التصميم والاستعمال

لم يبتكر أهل أمريكا الجنوبية عجلة أبداً، لذلك كانوا يتنقلون على الأقدام (انظر مادة «النقل» لاحقاً في الفصل الحالي). وبداع من أن نظام الطرق كان مصمماً لإمبراطورية بلا عربات عجلات، فقد كان هذا النظام مختلفاً جداً عن نظم الطرق الحديثة. فقد كان الطريق يصعد إلى المرتفعات في كثير من الأحيان بنحو مباشر للغاية، ويمضي على المنحدرات الشديدة، مع أنهم استعملوا طريقة التعرجات في بعض الأحيان للتخفيف من شدة انحدار الطريق. وفي بعض المناطق، كان الطريق واسعاً إلى حد ما، نحو 25 متراً (28 قدما)؛ وفي مناطق أخرى لا يكاد يكون أوسع من رصيف المشاة الموجود في شوارعنا الحديثة. وبنحو عام، كان الطريق يتسع في الأرض المسطحة ويضيق عندما يصعد مرتفعات أو ينزل منها.

كانت الغاية الأساس من وراء استعمال نظام الطرق تقوم على تحسين التواصل بين مناطق الإمبراطورية المختلفة، فضلاً عن نفعها كرمز بصري للقوة الإنكية وسلطتها على

رعاياها. كما أن هذا ينعكس في حقيقة أن الأشخاص الذين يتولون أعمالاً رسمية هم فقط من يستخدمون الطريق. وكان الطريق يبنى ويصان بأيدي عمال الميتا mit'a. وبنيت أقسام منه بيد شعوب سابقين، بخاصة الأواري Huari، الذين كانوا على ما يبدو أول من بنى نظام الطرق ونظّمه. بيد أن الإنكيين وسّعوا بنحو كبير هذه الطرق القائمة قبلهم ولاشك حسّنوها في مناطق كثيرة.

الجسور

إحدى اكبر العقبات التي تواجه أي نظام طرق في المرتفعات هي الأنهار. فالكثير من الأنهار العميقة، والواسعة، وسريعة الجريان، تستدعي إقامة جسور عليها. ففي المناطق التي تجري فيها الأنهار عبر أودية شديدة الانحدار، أقام الإنكيون جسوراً معلقة بحبال. وكانت هذه الجسور معلقة على أبراج مقامة على كلا الجانبين، ويقع الممشى بين حبال سميكة تمسك الجسر ببعضه بعضاً (هايسلوب Hyslop 1984؛ رو Rowe 1946: 232). وبقيت بعض الجسور مستعملة حتى القرن التاسع عشر (سكير Squier 1877)، على الرغم

مخازن إنكية في مركز مقاطعة. وإلى اليمين محاسب إنكي يمسك بكيبو

من إعادة بنائها كلما بليت حبالها. وكانت هناك وسيلتان أخريان للعبور هما الجسور العائمة والألواح الخشبية البسيطة على الأنهار الضيقة (هايسلوب: الفصل Hyslop 22 1984: chp.).

المستوطنات

أقيم نظام من المستوطنات بمحاذاة الطرق العامة مع اتساع الإمبراطورية. وكان بعضها واسعاً إلى حد ما، مثل مدينة وانوكو بامبا Pampa Huánuco في المرتفعات الشمالية. فقد كان هذا المركز يضم ما يزيد عن 4,000 مبنى، من بينها مستودعات قد تستوعب زهاء مليون بشل[1] من المنتجات (موريس وتومسن Morris and Thompson 1985). وكان هذا الموقع يستعمل لتموين الجيش وإيوائه، وخزن البضائع المنتجة في المقاطعات المجاورة، كما يفيد أيضاً كمقر إقامة للمواكب الملكية المارة به، وتوفير منتجات واسعة ضخمة من القماش وسلع أخرى. وهناك مراكز مماثلة، أُقيمت بمحاذاة نظام الطرق العامة في حقب متباينة، وكانت تمثل نقاط التقاء مهمة في أنظمة اتصالات الإمبراطورية واقتصادها.

كانت هناك، بالإضافة إلى المدن الكبيرة، سلسلة من مواقع أصغر يطلق عليها تامبو tambos بمحاذاة الطرق العامة. وكانت هذه المواقع توفر طائفة متنوعة من الخدمات، من بينها مباني إيواء مسافرين، ومراكز سيطرة على المنطقة المحلية، وأماكن إنتاج حرفيات، وأخرى لأنشطة طقسية (هايسلوب Hyslop 1984: 279). ويقال إن التامبو كانت تقع على بعد مسيرة يوم مشياً الواحدة عن الأخرى، على أنها في الواقع تتباين في البعد مشياً من ساعتين إلى ثلاث إلى واحدة في اليوم.

المواصلات

أن إمبراطورية تمتد على ما يزيد عن 5,000 كيلومتر، لتتطلب إقامة نوع معين من نظام مواصلات كي يمكن نقل الأخبار من أحد أصقاعها إلى الآخر (أو، كما في حالة الإنكا، من المقاطعات إلى كوزكو). ولهذا الغرض ابتدع الإنكيون نظام سُعاة. فقد أقاموا على مسافة كل ميل أو نحوه وبمحاذاة الطريق كوخاً على جانبيه يشغله ساعٍ، أو بلغتهم تشاسكي chasqui. فعندما يقترب الرسول الراكض من الكوخ، يخرج الشخص

(1) Bushel مقياس استيعاب يساوي 8 غالونات (ما يعدل 36,4 لتر) هذا حسب المقاييس البريطانية؛ أما في المقاييس الأمريكية فيعدل 35,2 لتر (م).

تشاسكي chasqui، أو الرسول الناقل.

الذي في الكوخ ويركض إلى جانبه، ليستمع منه الرسالة التي ينقلها وربما يتناول منه كيبو quipu، وينطلق راكضاً بأسرع ما بمقدوره إلى الكوخ اللاحق بمحاذاة الطريق. أما الكوخ الذي على الجانب الآخر من الطريق فكان للرسائل الذاهبة بالاتجاه المعاكس (رو Rowe 1946: 231). وقد تقطع رسالة معينة مسافة 240 كيلومتراً (150 ميلاً) في يوم واحد على هذا الطريق، أو الذهاب من ليما إلى كوزكو في ثلاثة أيام كي تصل إلى المعنيّ بها. وعلى سبيل المقارنة، فإن البريد الإسباني بالحصان كان يستغرق من 12 إلى 13 يوماً بعد قرنين من الزمان على ذلك! وكان يجري اختيار التشاسكي من قرى محلية وكانوا يشكلون جزءاً من أعمال الميتا المقدَّمة إلى الإمبراطورية. وكان الراكضون في هذا العمل يخدمون 15 يوماً في كل مناوبة.

النقل

كانت البضائع تنقل على ظهور بشر وحيوانات. أما الناس فكانوا يحملون البضائع بعباءة أو حبل ملقى على ظهورهم ومعقود على صدورهم. وكانت الجِرار تحمل بحبل

يمر بمقابضها ويربط على الصدر أو حول الرقبة، مثل أية حزمة أخرى (رو Rowe 1946: 237).

كان اللاما حيوان الحمل الوحيد، وكان مثالياً لهذه الأعمال في الأنديز. إذ تستطيع اللاما حمل ثقل يصل إلى نحو 80 باونداً[1] تصعد به المنحدرات الحادة وتنزل منها. وعلى الرغم من أن الخيول والحمير التي أدخلها الإسبان يمكن أن تحمل أثقالاً أكبر وزناً، إلاّ أنها ليست بقدرة اللاما على التحمل أو بثبات قوائمها. وكانت قوافل اللاما تستعمل لنقل مواد، مع عدد كبير من الحيوانات الاحتياطية كي يمكن تقسيم الأحمال بينها. وقد تعلف اللاما بمحاذاة الطريق، إذ لا يقدَّم لها الطعام سوى في المناطق الصحراوية.

كان الرعايا الإنكيون في المناطق الساحلية وفي بحيرة تيتيكاكا، ينقلون البضائع بطَوْف. وكانت تصنع على الساحل أطواف من قصب تسع شخصاً واحداً تستعمل في المقام الأول لصيد السمك. ولا زال هذا النوع من القوارب مستعملاً في المناطق المجاورة لتروخيلو Trujillo، إلاّ أن فن صناعتها آيل إلى الزوال. وكانت أطواف النقل البحري، في الشمال بمحاذاة الساحل الإكوادوري، أكبر حجماً وتصنع من زنود الخشب وتستعمل في التجارة (برنز Bruhns 1994: 281—286). وفي مناطق الجنوب، في شيلي، كانت الأطواف تصنع من جلود فقمة قابلة للنفخ لكنها كانت تستعمل أولاً لصيد السمك، وليس للنقل. أما في المنطقة المحيطة ببحيرة تيتيكاكا، فكانت هناك جماعة إثنية صغيرة تسمى أورو Uru كانت متخصصة بصيد السمك لتتغذى عليه. وكان هؤلاء أيضاً يستعملون أطوافاً مصنوعة من القصب في صيدهم السمك.

وكانت هناك، فضلاً عن ذلك، وسيلة نقل أخرى يستعملها الإنكيون تتمثل بالحمّالة، التي هي آلة بسيطة مصنوعة من عمودين خشبيين يربط بينهما مقعد. وكانوا يستعملون الحمالات لنقل الأشخاص من أفراد كبار الأعيان فقط. وكانت حمالات الملوك ينقلها حمّالون مُنتخبون كانوا يجيئون من مجموعة تسمى أنداماركا لوكانا Andamarca Lucanas تقطن وسط المرتفعات (شرايبر Schreiber 1993).

(1) الباوند pound وحدة لقياس الوزن تعدل (0,4536 كغم) (م).

مجتمع الشعوب المفتوحة وسياستها

يصعب الآن إعادة تصوير نمط الحياة في أوساط شعب من تلك التي فتحها الإنكيون، بسبب من قلة التسجيلات التاريخية عنهم. بيد أنه من خلال النظر في ما كشفه أركيولوجيون عن نمط الحياة السابقة على عهد الإنكيين ومن ثم مقارنته بالتغيرات المثبتة كنتيجة للفتح الإنكي، بوسعنا استنباط فكرة عن الحياة في المقاطعات الإنكية. فمن الواضح أن الإنكيين أحدثوا تغيرات كبيرة في بعض المناطق ويكادون لم يفعلوا شيئاً في غيرها. إذ كان مدى التغيرات يعتمد على عوامل كثيرة، من قبيل مستوى التطور السياسي لدى الشعب المفتوح، ومستوى مقاومته الفتح، والموارد المتاحة في المنطقة المفتوحة، وكيفية توزّع الموارد والناس.

أفضل جماعة خضعت لدراسة جيدة هي الوانكا Wanka التي تسكن منطقة أعالي نهر مانتارو Mantaro وسط بيرو (دالتروي D'Altroy 1992؛ إيرل وال. Earle et al. 1987). فقد كان الوانكا، على مدى الحقبة الوسيطة المتأخرة، منغمسين في اقتتال في ما بينهم، في ما يبدو على الأرض الزراعية الجيدة. وكانت مواقع الوانكا الرئيسة عهد ذاك تقع على تلال عالية وقمم رواب تحميها أسوار كبيرة. وكانت هذه الجماعة تتوزع على طبقتين من الناس: النخبة، أو الأفراد رفيعي المقام، والعامة. على أن التباينات الملحوظة بين هاتين المجموعتين قليلة. فالنخبة يتعرفون ببيوتهم الكبيرة، وفخارياتهم الراقية، وأشياء أخرى مثل حصولهم على قدر كبير من الذرة وحصص أفضل من اللحم (دالتروي D'Altroy 2002: 202). وكان أن على المجموعتين توفير الغذاء الخاص بهم وسلعهم. وكان لدى الوانكا اقتصاد مرتفعات نموذجي قائم على المنتجات الزراعية والرعي.

لقد قاوم الوانكا الإنكيين بضراوة لكنهم استعمروا إما على يد باتشاكوتي Pachacuti أو توبا إنكا Topa Inca، في نحو 1463 ب.م. على الأرجح. وبنى الإنكيون وسط هذا الوادي مركزاً إدارياً كبيراً جداً، يدعى أتون جوخا Hatun Juja، لم يبق من أطلاله اليوم إلاّ القليل. وبسبب من أن الوانكا كفوا عن التقاتل في ما بينهم، فقد تمكنوا من تنظيم أنفسهم تنظيماً أكثر فاعلية في ما يخص إنتاج الغذاء. كما نقل الإنكيون الوانكا من بلدات وقرى، ليقيموا مستوطنات جديدة بغاية زيادة إنتاج الذرة.

ما الذي كان يعنيه فتح الوانكا لأبنائها؟ لقد كان فيه بعض المنافع. فأولاً، جعلهم أكثر

أماناً لّما أبعدهم من تحارب القرى المجاورة. وثانياً، عندما تحل مواسم جفاف أو يأتي صقيع مبكر يضرّ بالمحاصيل، كان الإنكيون يعمدون إلى إقراض الوانكا غذاءً من مخازنهم على أن يردّوه من فائض سنوات الخصب. وعلى الرغم من قلة الأدلة الأركيولوجية، إلاّ أن بوسعنا افتراض أن الإنكيين سمحوا للوانكا بمواصلة عبادتهم أربابهم، كما فعلوا مع جماعات أخرى.

مع ذلك، حدثت لا شك تغيرات لعلها كانت شديدة على الوانكا، مادياً ووجدانياً. إذ كانوا مرغمين على العمل وقتاً أطول في الأنشطة الزراعية، من أجل إنتاج الغذاء ليس لأنفسهم وحسب، بل لدولة الإنكيين ورجال دينهم أيضاً. وكان عليهم توفير خدمة الميتا mit'a، التي استعملت غالبية جهودها على الأرجح لتشييد أتون جوخا Hatun Jauja وقسم من طريق الإنكيين، الذي يمر في أراضي الوانكا السابقة. وكانت بعض النساء تؤخذ من بعض عائلات الوانكا ليصرن نساء منتخبات، ولربما لا يرين أهلهن بعد ذلك أبداً. وربما كان هناك حرفيون منهم ينقلون إلى مراكز إنكية أو إلى كوزكو.

أصبح زعماء الوانكا كوراكا curacas من مستوى أدنى. ومع أن هذا الوضع يوفر لهم إمكانية الحصول على مواد الإنكا الراقية، من قبيل قماش الكومبي cumbi، فقد كان يعني أيضاً أنهم مطالَبون باختيار أناس للعمل في الميتا وتنظيم العمل الزراعي لصالح الإنكيين. زد على ذلك، كان أولادهم يؤخذون إلى كوزكو، حيث يبقون يتدربون على نمط إدارة الإنكا ونهج حياتهم. وكان الزعماء المستعمرون مطالبين بالمجيء إلى كوزكو كل عام، ليطلعوهم على مجريات مسؤولياتهم. ومع أن هذا من شأنه إعطاؤهم فرصة لقاء أبنائهم، لكن طول الرحلة قد تذكّرهم بعبوديتهم وذلهم.

تعدّ المنطقة المجاورة لأوانوكو Huánuco، في المرتفعات الشمالية في البيرو، مجالاً آخر يوفر معلومات عن التحول من منطقة مستقلة إلى مقاطعة مفتوحة (غرسبول Grosboll 1987، 1993). فقد كانت تعيش في هذه المنطقة خمس مجموعات إثنية مختلفة قريبة من بعضها البعض، على الرغم من عدم وجود شيء يؤكد كيفية تمايزها عن بعضها. إذ على خلاف الوانكا، كانت هناك اختلافات اجتماعية قليلة بين هذه المجموعات؛ فما من فصل اجتماعي في أوساطها بين نُخب وعامة. بلى كان لهم زعماؤهم، لكن هؤلاء الزعماء كانوا يتوافرون على القليل سواء في حجم الثروات أو في المنافع الأخرى.

تشير المدونات الإسبانية التفصيلية عن هذه المنطقة إلى تشتت كبير في طرق حياة أهل هذه المنطقة لدى ضمهم إلى إمبراطورية الإنكا. وقد أعاد الانكيون تنظيم بعض من المجموعات الأثنية بتشكيلها في وحدات عشرية تضم 1,000 أسرة. على سبيل المثال، عمدوا إلى جمع 300 أسرة من إثنية الكيرو Quero سوية مع 700 أخرى من التشوباتشو Chupachus (غروسبول Grosboll 1993: 50). وهذا ما غيّر من سلسلة الإمرة، جاعلاً الكيرو تحت سلطة كوراكا من التشوباتشو. فضلاً عن هذا، يبدو أن الكثير من سكان هذه المنطقة قد نُقلوا إلى أماكن أخرى، إما مؤقتاً أو ليقيموا فيها إقامة دائمة (جوليان Julien 1993: 210). إذ نقل زهاء ربعهم إلى كوزكو نفسها. وأعيد توطين آخرين إلى تجمعات متخصصة في المقاطعة. كما نُقل عدد كبير من عمال الميتا من أجزاء أخرى من الإمبراطورية إلى هذه المنطقة من أجل زيادة إنتاج الذرة والكوكا.

وكما جرى الحال مع الوانكا، يبدو أن الزعماء المحليين ضُمّوا في طبقة الكوراكا وأُعطوا هدايا فأُفردوا عن بقية أفراد قراهم (غروسبول Grosboll 1993: 52). وفي الحقيقة، كان يمكن معرفة بيت مسؤول محلي من وجود بناء مستطيل كبير فيه الكوى شبه المنحرفة، النمطية في العمارة الإنكية - فهذه غير موجودة في المباني المحلية، التي كانت مدوّرة. كما أن وجود فخاريات إنكية في هذا المبنى يدعم الرأي القائل إنه كان بيت مسؤول يحصل ساكنوه على سلع خاصة لا تتاح لأفراد المجتمع الآخرين.

كان نمط حياة سكان هذه المقاطعة، كحال الوانكا، يتطلب المزيد من العمل بعد الفتح الإنكي أكثر مما كان الأمر قبله. وكانت تؤخذ نساء منتخبات إلى المركز الإداري الإقليمي، وكان الحرفيون يُسكَنون في تجمعات خاصة، كما نقلت قرى بأكملها لتحسين الإنتاج الزراعي. وصار التمايز بين الزعيم وابن العامة يزداد وضوحاً، مع إيكال الإنكيين لزعماء محليين مسؤوليات جديدة، وإعطاؤهم إكراميات. وبخلاف الوانكا، كانت أعداد متزايدة من الناس تنقل على الدوام إلى خارج المنطقة، فيما يؤتى بأعداد كبيرة من الميتيما من خارج المنطقة ويُسكنون فيها. ولا تعرف الضرورة التي كانت تدعو إلى هذا الأمر. ولعله يتصل بما يراه جوليان Julien (1993: 209) في أن هذه المقاطعة كانت بالفعل إقطاعة لواسكار Huascar، حصل عليها بمراهنة!

على الرغم من أن المجموعات الإثنية في منطقة وانوكو كانت أقل شأناً سياسياً قبل

مجيء الإنكيين، إلا أن مقاومتهم للسيطرة الإنكية لم تكن قليلة. ففي الحقيقة، انتفض أهل هذه المنطقة فتوجب غزوهم ثانية (جوليان Julien 1993: 205). وعلى نقيض هذا، لم تبدِ الجماعات التي كانت أقوى منهم (مثلا: تشيمو Chimu) المقاومة نفسها بعد فتحها الأول. والأرجح أن الإنكيين اتخذوا تدابير وقائية إضافية لئلا تحدث انتفاضات كهذه بين المجتمعات القوية المفتوحة.

إجمالاً، كانت الفعاليات السياسية والاقتصادية في ظل الإنكيين تختلف كثيراً حسب الرعايا المستعمرين. إذ كان ينبغي من الشخص العادي أن يعمل أكثر لأن على كل من الرجال والنساء التزامات تجاه إمبراطورية الإنكا. وكان بعض الناس يُنقلون من مواطنهم الأصلية، إما جماعات أو أفراداً، وأحياناً لا يرون بعد ذلك أصدقاءهم أو أقاربهم أبداً. أما البنات اللواتي يخُترن ليصبحن نساء مُنتخبات، فكن يؤخذن من عائلاتهن ليكنّ عاملات في الإمبراطورية وبضاعة فيها. وعلى الرغم من إيلائهن العناية الحسنة على ما يبدو، إلاّ إنهن كن يُنتزعَن من عائلاتهن ويؤخذن إلى بلدة غريبة حيث يفرض عليهن العيش مع آخرين لا يعرفنهم. ومع احتمال قيام صداقات بين أولئك النسوة، فلا تعرف الواحدة منهن متى توهب زوجة إلى مسؤول إنكي أو تُختار لتكون خادمةً في معبد إنكي أو مكان من أماكنهم المقدسة. وهذا النوع من الوجود المُرتَهن هو نفسه قَدَر أصحاب الحِرَف الذين كانوا يُنقلون أيضاً إلى مراكز إنكية، على أنهم قد يحيون حياة أكثر اعتيادية فيتزوجون وينجبون بخيارهم.

حاول بعض الكتاب المعاصرين تصوير الإنكيين كجماعة تولي عناية كبيرة لرعاياها، بتوفير الغذاء لهم والملبس، وأسباب اللهو والشراب، في مقابل خدمات يقدمونها. وإزاء هذا، يأتي رعاياهم ويعملون بجد لسادتهم الإنكيين، وكانوا أفضل حالاً مادياً بسبب غزوهم. وواقع الحال أن بإمكان المرء تصوُّر أن الشعوب المستعمرة ربما كانت تخشى الإنكيين وتبغضهم. إذ تشير أدلة المقاومة والانتفاضات إلى أن شعورهم كان مماثلاً لما يشعر به أي شعب يجد نفسه في الظروف نفسها. فالكثير منهم تحالفوا مع الإسبان ضد الإنكيين. وكانت حياتهم مختلفة كثيراً عما كانت عليه قبل فتحهم: فقد كان مفروضاً عليهم عمل كثير، في مناطق بعيدة عن ديارهم غالباً، ويؤخذ أفراد من عائلاتهم وإن طلب أحد ما من مسؤول في الإمبراطورية الإذن لفعل أي شيء كان، فمن العسير أن يوافق. أما

السبل التي أثر بها الإنكيون في مظاهر حياة رعاياهم الأخرى فهي موضوعات الفصول الآتية.

إقامة صلة بما مضى

1 أ. تصوّر نفسك ابن حاكم غُزيت قريته. وأخذوك إلى كوزكو لتتدرب على سياسات الحكومة الإنكية، فعندما يتوفى والدك، قد تحل محله وتنفذ سياسات الإنكيين. فكيف سيبدو لك حال حياتك هناك؟

1 ب. تصوَّري نفسك فتاة شابة غزا الإنكيون قريتك. واختاروك لتكوني ألاكونا allacona وأرسلوك إلى مركز إداري يبعد خمسة أيام مشياً عن ديارك. فكيف ستبدو لكِ حياتكِ هناك؟

2. كان القماش والملبس لهما قيمة كبيرة لدى الإنكيين وشعب الأنديز عموماً، كما تبين في هذا الفصل. فهل للملبس الأهمية نفسها في مجتمعك؟ هل له الأدوار نفسها كما كان الحال لدى الإنكيين؟

1. هل تعمل لصالح الحكومة لبضعة أسابيع في كل سنة أم تدفع ضرائب لها كما نفعل نحن؟ ما منافع كل من هذين النمطين من العمل؟

الفصل الثالث

حياة الإنكيين الخاصة وثقافتهم

المعروف عن أنشطة الإنكيين التعليمية وحياتهم الخاصة شيء يسير، وكذا الأمر بالنسبة إلى رعاياهم، لأن بضعة من المصنفين الإسبان المتقدمين كانوا مهتمين بالكتابة عن حيوات السكان الأصليين اليومية. غير أن بعض الوثائق تلقي نظرة على هذا الموضوع، لاسيما المصادر المحلية مثل غارثيلاسو دي لا فيغا Garcilaso de la Vega (1609/ 1966)، وغوامان بوما Guaman Poma (1936، 1980).

دورة الحياة

مع أن البشر كلهم يولدون وينمون سواسية تقريباً، لكن استذكار أحداث الحياة يختلف في مجتمع ما عن مجتمع آخر. فبالنسبة للإنكيين، تتمثل المحطات الأعظم شأناً بقص شعر الطفل والبلوغ والزواج والموت. ويحتفي الإنكيون بكل التحولات المهمة البارزة في حياة الفرد بطقوس مهمة أيضاً.

الولادة والطفولة

ليس ثمة نشاط خاص يسِمُ ولادة طفل لديهم. إذ ما على المرأة سوى التوجه إلى أقرب نهر جار لتغتسل هي ووليدها. وتستأنف من ثم واجباتها المنزلية. وبعد أربعة أيام يوضع المولود في مهد، حيث يبقى فيه غالبية الوقت لحين تمكنه من المشي (رو Rowe 1946: 282). ويذكر غارثيلاسو دي لا فيغا (1966: 212)، وهو إنكي النسب، أن المرأة عندهم لا تحمل ابنها أبداً، سواء لتلعب معه أو لترضعه، مخافة أن يصير بكّاءً. ويعمد أهل مناطق عدة في الأنديز إلى ربط رؤوس أطفالهم بلوح خشب أو يعصب بقطعة قماش كي يقولبوا الرأس بشكل معيّن يرغبونه. وأتاحت هذه الممارسة لأركيولوجيين تحديد الناس غير المحليين الموجودين في مستوطنات إنكية كما في ماتشو بيتشو Machu Picchu (فيرانو Verano 2003).

كان عند الإنكيين عرف لافت يتمثل بإحجامهم عن تسمية الوليد حتى يُفطم عن صدر أمه، عندما يبلغ عمره نحو عام واحد. ويقترن هذا الحدث المهم بقص شعر الطفل. ويقام حفل كبير لأصدقاء والدي الطفل وأقاربهم، حيث يشربون كثيراً ويرقصون. وبنهاية الحفل يقص رجل من أكبر الأقارب سناً خصلة صغيرة من شعر الطفل، ثم يعطي كل واحد من الحضور هدية للطفل. وتحفظ أظافر الطفل وشعره بعناية. ولا يكون الاسم الذي يعطى إلى الطفل، ولداً كان أو بنتاً، في هذا الحفل اسماً دائماً؛ بل يمنح أو تمنح اسماً جديداً عند سن البلوغ (كندال Kendall 1973: 76).

يقضى سن الطفولة بتعلم الشؤون البيتية. وعندما يكبر الأولاد ويقوى عودهم، قد يساعدون أهلهم في الحقول والعناية بالحيوانات وفي النهاية قد يتعلمون حرفة آبائهم حيث أن غالبية الأعمال متوارثة. أما البنات فقد يساعدن في أعمال منزلية كثيرة من قبيل الطبخ والتنظيف والخياطة، وحتى العناية ربما بإخوانهن الصغار وأخواتهن.

طفل في مهد. تحول الأشرطة الظاهرة في هذا الرسم الطفل من السقوط على الأرض عندما تحمله أمه على ظهرها.

سن البلوغ

كانت نهاية سن الطفولة وبداية سن الرشد تختلف بوضوح عنها الأولاد عنه عند البنات. فالبنت تصبح امرأة مع أول طمث لها، ويقام طقس يَسِمُ هذا التحول البارز. إذ تلزم البنت بيتها ثلاثة أيام، ولا تأكل فعلياً أي شيء، باستثناء قليل من الذرة النيئة في اليوم الثالث. ويجتمع الأقارب في اليوم اللاحق في بيتها، وتغسلها أمها، وتضفر شعرها أيضاً. ثم ترتدي ملابس جديدة وتخرج لتقدم الطعام لأقاربها والشراب. وكما يحدث عند قص شعرها أول مرة، يمنحها اكبر أعمامها شأناً اسماً جديداً، وتتلقى هدايا من الحاضرين كلهم (رو Rowe 1946: 284).

يقام طقس بلوغ سن الرشد بنحو مشترك لجميع الأولاد الذين بلغوا 14 عاماً، على الرغم من أن هذا الحدث يكاد لا يتزامن تقريباً مع مستهل سن الرشد لدى جميع المشاركين في الطقس. ففيما يخص أولاد الطبقة الملكية الذين يعيشون في العاصمة كوزكو، يقام الطقس في شهر ديسمبر في وقت عيد كاباك ريمي Capac Raymi (انظر الفصل الرابع). وهذه المراسم في الواقع سلسلة من الأنشطة تمتد على مدى ثلاثة أسابيع، تسبقها تحضيرات تستغرق وقتاً لا بأس به. فعلى الأمهات تهيئة أثواب جديدة راقية تلبس في الفعاليات المختلفة، وهذه مهمة ينبغي البدء بها قبل شهور من المناسبة.

على الفتيان أن يحجّوا جبل أواناكوري Huanacauri المقدس الواقع خارج كوزكو، في شهر نوفمبر. وغاية رحلة الحجّ هذه الطلب من روح الجبل السماح لهم بإقامة مراسم البلوغ. وعلى كل فتى أن يأتي بلاما كأُضحية. ويعمد أحد الكهنة بمسح دم اللاما على وجه الفتى. ثم يُعطى كل واحد من الأولاد المشاركين مقلاعاً للدلالة على وضعه الجديد كمحارب. ويتبع ذلك رقص كثير، وعلى الفتيان القيام ببعض الأعمال من قبيل جمع القش ليجلسوا أقاربهم عليه، ومضغ الذرة لتحضير التشيتشا chicha للمراسم اللاحقة (كوبو Cobo 1990: 149).

على الفتيان حجّ أوناكوري مرة أخرى، في أثناء مراسم البلوغ، ليقدموا مزيداً من أضاحي اللاما. وفي طريق عودة الفتيان إلى بيوتهم، يعمد أقاربهم إلى ضربهم بالسياط على أرجلهم، كوسيلة لجعلهم أقوياء وشجعاناً. بعدها يقوم المشاركون برقصة مقدسة، في ختامها يشربون بعض التشيتشا التي أسهموا بتحضيرها سابقاً عند الجبل المقدس. ثم

يتلو ذلك أسبوع من الراحة تقام بعده سلسلة من الأضاحي، وضرب السياط، والرقص عند رابية أناوارك Anahuarque، على مقربة من جبل أواناكوري. ثم يشترك الفتيان في سباق يبدأ من قمة الرابية إلى الأسفل (وكثيراً ما يسفر هذا السباق عن إصابات بعضها خطر). وأخيراً، تهدي فتيات من الطبقة الملكية نفسها تشيتشا للفتيان (كوبو Cobo 1990: 131).

يتطلب الجزء الأخير من مراسم البلوغ القيام برحلة إلى تلال أخرى قرب كوزكو، حيث يمنح االفتيان مآزر، كتنويه رسمي إلى أنهم صاروا رجالاً. ثم ينتقل الفتيان إلى عين مقدسة تدعى «كاليسبوكيو Callispuquio،» حيث يعطيهم أقاربهم أسلحة: إذ يمنح العم الاكبر شأناً الفتى ترساً ومقلاعاً وهراوة. ويعمد أقارب آخرون إلى تقديم هدايا ونصائح في كيفية التصرف كرجل إنكي حق. وكانت الفعالية الأخيرة تتمثل بخرم آذان الفتيان ليلبسوا الأقراط، التي كانت أمارة طبقة النبلاء الإنكيين. وهذا ما يسم المشارك بصفة المحارب (كوبو Cobo 1990: 133).

إن طقوسا مماثلة، على الرغم من أنها أدنى تفصيلاً على الأرجح، كانت تجري في الوقت نفسه من السنة في عواصم الأقاليم - ومرة أخرى، لأبناء طبقة الوجهاء. وتشير المراسم الخاصة لأولاد النبلاء إلى أهمية أن يصبح المرء محارباً وفرداً في مجتمع إنكي راسخ. ولا شك أن هذه الطقوس تقام أيضاً لبناء أواصر خاصة بين المشاركين فيها.

الزواج

كان متاحاً للنبلاء الإنكيين وغيرهم من أصحاب الحظوة أن يتخذوا أكثر من زوجة واحدة، هذا على أن عدد النبلاء، ما خلا الملك، الذين يتملكون فعلاً أكثر من زوجة، شيء غير مؤكد. وكان هناك على الدوام تمييز بين الزوجة الرئيسة والأخريات الثانويات. إذ تقام مراسم زواج للزوجة الرئيسة، فيما تؤخذ الزوجات الثانويات ببساطة إلى دار الرجل. ولا يمكن لزوجة ثانوية أن تصير رئيسة حتى لو توفيت الزوجة الرئيسة. ويمنع هذا العرف ظهور شعور الغيرة بل ربما يحول دون أن تعمد الزوجات الثانويات إلى قتل الزوجة الرئيسة.

تلاحظ كندال Kendall (1973: 84) أن من فروض زوجة ثانوية في بيت كبير أن تكون

مربية أولاد الأب الشرعيين. وعندما يبلغ ولد منهم سن الرشد؛ تصير هي مسؤولة عن تبصيره بأمور الجنس، ومن ذلك الاتصال به. وحتى بعد زواجه، تبقى الزوجة الثانوية معه وتنفذ له ما تملي عليها واجبات وضعها هذا في عرفهم.

يظن الإنكيون أن ملوكهم جميعاً نزلوا مباشرة من إنتي Inti، أي الشمس، كبير أرباب الإنكيين. لذا كانوا يعدون ملوكهم مؤلّهين. ولهذا السبب كان مهماً لديهم الحفاظ على سلالة دم الملوك نقية قدر المستطاع. وكي يضمنوا ذلك، وهذا ما حدث بين أوساط أواخر ملوكهم، قضوا أن تكون الزوجة الرئيسة، أو الكويا coya كما يسمونها، أخت شقيقة للملك. مع ذلك، بوسع الملك أيضاً أن يتخذ زوجات أخريات بقدر ما يرغب، ومن هذه الزوجات ينجب أفراد الباناكا panacas.

كان الزواج يترتب، على ما يبدو، إما باتفاق الاثنين نفسيهما أو باتفاق أبويهما (رو Rowe 1946: 285). وكان مهماً، مع ذلك، أن يكون الزواج من أبناء الأيلو ayllu الواحد كي يبقوا على حقوقهم في الأرض. وكانت النساء يتزوجن بين سن 16 و20؛ ويتزوج الرجال في حوالي سن 25 (كندال Kendall 1973: 81). أما مراسم الزواج نفسه فكانت بسيطة نسبياً. إذ يذهب العريس وعائلته إلى بيت العروس، التي تقدمها عائلتها رسمياً إليهم. فتقبلها عائلة العريس بوضع خُفّ في قدمها؛ ويكون الخُفّ من صوف إنْ كانت العروس عذراء، ومن العشب إذا لم تكن كذلك (ولا يذكر الكتّاب الإسبان شيئاً عن كيف عرفوا هذا. إنما معروف أن العذرية لم تكن أمراً مشروطا في الزواج) ثم تسير العائلتان إلى دار العريس. وهناك في داره، تقدم له العروس هدايا، وتبدأ عائلتاهما بتعليمهما واجبات الحياة العائلية ومسؤولياتها. وكحال المراسم الأخرى، تختتم مراسم الزواج بمأدبة وتقديم هدايا للعريسين (رو Rowe 1946: 285).

تؤشر كندال (1973: 82) إلى عرف لافت لدى طبقة النبلاء الإنكيين الساكنين في كوزكو. إذ تنقل عن مصادر تزعم أن الشبان والفتيات، ممَنْ هم في سن الزواج، يصطفّون كلهم في الميدان [البلازا] الرئيس، ويأتي ملك الإنكا ليقرن بينهم ويزوّجهم. ويشير كل من دالتروي D'Altroy (2002) وجوليان Julien (1998) إلى أن المسؤولين الإنكيين في المقاطعات كانوا هم الذين يصدّقون زيجات الشعوب المفتوحة، ولعلهم كانوا يَصفّون أيضاً الذكور المؤهلين للزواج والإناث ويقرنون بينهم، كما لاحظت كندال ذلك لدى

نبلاء كوزكو. ومن الطريف النظر في سبب ظن الإنكيين أن هذا اللون من الهندسة الاجتماعية مهم. ذلك أن كلاً من نساء الإنكا والإناث من بنات النخبة في المقاطعات قد ينظر إليهن بعين الاستثناء: فالنساء الإنكيات يُعطَيْن زوجات لزعماء المقاطعات، ومن الممكن أن يتخذ الرجال الإنكيون نساء المقاطعات زوجات (جوليان Julien 1998). ولعل اختيار شريك الزوجية كان جزءاً من مخطط سياسي لدمج الشعوب المستعمرة بالمملكة، تماماً كعملية أخذ أبناء المستعمرة إلى كوزكو لتثقيفهم على نمط حياة الإنكيين.

الموت ومراسم الدفن

كان آخر طقس في دورة الحياة عندهم يتمثل بجنازة الميت. فعندما يموت شخص ما يُلفُ بكفن. ويحرق جزء من أمتعته وتدفن البقية مع جثته. ويقوم النادبون برقصة بطيئة وهم يدورون حول الجثة قبل دفنها. بعدئذ، تعمد النسوة من أهله إلى قص شعورهن ويضعن عباءاتهن على رؤوسهن كرمز للحداد، بينما يلبس أقارب آخرون السواد (رو Rowe 1946: 286). ويدوم الحداد على كبار القوم عاماً واحداً. ومآتم الكبار لها أشكال أكثر تفصيلاً من شكل الحداد على الإنسان البسيط.

مآتم الملوك خصوصاً مفصلة، إذ تتضمن معاملة استثنائية للجثة ومراسم مخصوصة. فعند موت أحد الملوك، تحفظ جثته ـ على الأرجح في أعشاب. كما يساعد هواء المرتفعات البارد الجاف على تحنيط الجثة طبيعياً. ويضعون محل العيون اشكالاً تشبهها يصنعونها من صَدَف. ولأنهم كانوا يعتقدون أن الملك مؤلّه، فلا يعدّونه ميتاً فعلاً. لذا تحفظ جثته المحنّطة في قصره، ويعتني بها خدمه وأفراد عائلته وتُخرج للمشاركة في الأعياد الكبيرة. ويدوم الحداد عاماً واحداً، تصاغ فيه أناشيد وأشعار عن مآثر الملك الميت، يلقيها نادبون محترفون، نساء ورجالاً على حد سواء. ولانهاء مدة الحداد رسمياً، بعد انقضاء عام، تعقد مراسم مخصوصة يغسل فيها الناس ألمهم وحزنهم برماد قاتم (كندال Kendall 1973: 69).

كانت هناك جملة من ممارسات الدفن في الأنديز على النقيض مما عليه في مجتمعات حديثة. ولم يُعثر على قبر واحد من قبور كبار الإنكيين؛ ولعلها كلها خربها الإسبان على مر الزمان بعد الفتح الإسباني، أو بعد ذلك، بفعل باحثين عن كنوز. لذلك لا علم لنا كيف

مومياء ملك إنكي أُخرجت للمشاركة في احتفال.

كان عِليّة الإنكيين يدفنون موتاهم. ويصوّر غوامان بوما Guaman Poma ملكاً انكياً في صرح جنائزي يدعى تشولبا chullpa. وكانت هذه التشولبا مباني، بلا دعامات، مدورة الشكل أو مستطيلة يمكن فتحها وغلقها كي تتيح إدخال جثث أخرى فيها أو إخراج بعضٍ منها. وكانت مباني التشولبا مستعملة كثيراً في مناطق أخرى من الأنديز، وتوجد نماذج جيدة منها بخاصة بالقرب من بونو Puno في جنوب بيرو.

أدوار النساء

المعروف عن الأدوار التي مارستها النساء في الحياة اليومية بإمبراطورية الإنكا أقل مما هو معروف عن أدوار الرجال فيها، لكن من الواضح أنهن كن يتمتعن بأهمية أساس لأغلب وجوه الحياة. إذ تلاحظ سلفربلات Silverblatt (1987) أن ادوار الذكر والأنثى كانت تتمم بعضها البعض، وكل واحد منهما يحترم إسهامات الآخر بالحياة اليومية. وكما نوقش في الفصل الثاني، كانت للنساء المنتخبات أدواراً مهمة اقتصادية واجتماعية ودينية. وكانت حيوات نساء الكبار لا شك أسهل من حيوات نساء العامة: إذ كانت

لديهن ياناكونا yanaconas ينهضن بالكثير من الواجبات التي تتكفل بها هؤلاء النسوة. بيد أن أنشطة أساس، من قبيل الغزل والحياكة، كانت تقوم بها النساء كلهن، سواء أكنّ من طبقة رفيعة أم متدنية. وكانت الزوجات الرئيسات يتولينّ إدارة شؤون الأسرة وإيكال الواجبات للزوجات الثانويات. وكانت مهمة النساء الرئيسات إدارية أكثر منها عملية: فقد كنَّ يعنين بضمان تسيير أمور الأسرة بسلاسة، وإعداد الطعام والشراب بأرقى مستوى عندما يستضاف أفراد كبار الشأن. والأرجح أن أعمال التحضيرات تقع على عاتق النسوة الثانويات، بخاصة في البيوت التي لا توجد فيها ياناكونا yanaconas.

وتتولى النساء أنشطة منزلية أخرى أيضاً مثل إعداد الوجبات والتنظيف والغسيل، وخياطة الكسوة للعائلة. كما يعنين بالأطفال حتى يبلغوا عمراً يمكّنهم من الإسهام بالأعمال المنزلية بأنفسهم. وهناك داعٍ واحد لربط الأطفال القصَّر بمهودهم مدة طويلة: تحرير يد الأم من الانشغال بالطفل لتلتفت إلى مهام أخرى عليها انجازها.

على الرغم من أن غالبية الإخباريين الإسبان يناقشون أدوار الرجال الكبيرة في المجتمع الإنكي، ترى التأويلات الحديثة لبعض الأخبار أن لنسائهم أدواراً مهمة أيضاً (سلفربلات Silverblatt 1987). فبوسع النساء أن يتملكن الأرض والمواشي لأن الوراثة كانت من طريق أم العائلة وأبيها. لذا فقد كنَّ يسيطرن على بعض الموارد الاقتصادية، على أن مدى تلك السيطرة أمر لا يمكن التثبت منه اليوم. لكن من المؤكد أن النساء كن يلعبن أدواراً رئيسة في أنشطة دينية، لا سيما أن العديد من أرباب الإنكيين الرئيسين - من قبيل القمر - كانوا إناثاً. على هذا الأساس فإن كبار زعماء هذه العقائد كانوا نساء (سلفربلات Silverblatt 1987: chap. 3).

أدوار الرجال

كان كل من الرجال والنساء يعيشون في بيوت والديهم حتى يتزوجوا، وعندها يكوّنون أسرهم الخاصة بهم. وإذا كان الابن من عائلة ملكية، بمقدوره الإقامة في كوزكو والحصول على احتياجاته وعائلته بالجزية المقدمة إلى أفراد الباناكا panaca الخاصين به. أما بنات الأسر الملكية فقد يبقين مع باناكا عائلاتهن أو يتزوجن من أفراد الباناكا نفسه. لذلك، وكحال المترفين في مجتمعات كثيرة، تلبى حاجات أولاد الأثرياء وبناتهم

والنخبة من جانب الدولة أو بموارد العائلة. وهم أيضاً مستثنون من دفع الجزية أو المشاركة بالميتا mit'a. أما ابن الفرد من أيلو غير ملكي فلعله يصبح إدارياً أو مسؤولاً في الدولة، كمحاسب كيبو quipus مثلاً. وقد يخدم في الجيش أيضاً. وربما يتملك أرضاً، على أن من المرجح أن يكون هناك ياناكونا yanaconas يعملن بخدمته.

الظاهر أن المواقع السياسية كلها يشغلها رجال، وغالبيتها مورّثة. أما التراتبية الإدارية التي نوقشت في ما سبق، فيشغلها ذكور، سواء أكانوا انكيين أو من الكوراكا curacas المستعمرين. ويبدو أيضاً، كما قيل، إن النساء كن يتوافرن على تأثير كبير، بخاصة الكويا coyas منهن، اللواتي بوسعهن مناقشة قضايا مع أزواجهن، الملوك. أما إلى أي حد كن موضع استشارة، هن أو الزوجات الثانويات، فذا شيء غير معروف.

التعليم

كان التعليم الرسمي قليلاً في مجتمعات الأنديز: فالأبناء يتعلمون من والديهم وأصهارهم الكبار. وبسبب غياب نظام كتابي لديهم، تنقل المعرفة شفاهاً. وهذا أمر بمستطاع أي أحد تأديته. بيد أن هناك استثناءً يتمثل باستخدام الكيبو quipus، نظام الإنكيين الحسابي.

الوحيدون الذين يتلقون تدريباً رسمياً هم أبناء علية القوم وحكام المقاطعات والنساء المنتخبات. كان الأولاد يتعلمون لمدة أربع سنوات في مدرسة بكوزكو، حيث يتعلمون الكيتشوا Quechua في السنة الأولى، والديانة الإنكية في الثانية، واستعمال الكيبو في الثالثة، وتاريخ الإنكا في الرابعة (رو Rowe 1946: 283). وكانوا يطلقون على المعلمين تسمية أموتا amautas، أي الحكماء. وكان التدريب يجري بالممارسة والتكرار والتجربة. وكان الأموتا يحافظون على الانضباط بالتهديد والضرب ـ على أن هذه الأساليب كانت محددة بضربة واحدة في اليوم، و10 جلدات على أخمص القدمّ!

كانوا يختارون الإناث المنتخبات ممن هن بعمر العاشرة تقريباً من بنات الشعوب المستعمرة. وكنّ يؤخذنّ إلى العاصمة الإقليمية ليتعلمن فنون الغزل والنسيج والطبخ وصناعة التشيتشا chicha، والدين. وتدوم مدة التعليم أربع سنوات، بعدها يؤخذن إلى كوزكو ويقدمن إلى الملك الإنكي، الذي يقرر مصيرهن. وتلاحظ سلفربلات Silverblatt

(1987: 63) أن الشابات من بنات المقاطعات والوجهاء على حد سواء كن يتلقين تدريباً، مع أن ذلك ليس في مدرسة رسمية؛ بل كن يتعلمن في بيوت نساء الوجهاء في كوزكو.

الطعام والشراب

كان الإنكيون ورعاياهم يتناولون أصنافاً كثيرة من الطعام. وكان أغلب غذائهم موطّناً. فقد كان الإنكيون يزرعون ويستهلكون أنواعاً مختلفة من الغذاء، لا سيما الذرة والبطاطا والأوكا والأولوكو ullucu، والكينوا، والتاروي tarwi (نوع من الحبوب)، وأصنافاً عدة من اليقطين معدة بنحو رئيس للغذاء. أما المصادر الرئيسة للحوم فكانت خنازير غينيا والبط، على أنهم كانوا يتناولون لحوم اللاما أيضاً. كانت حيوانات البرية ونباتاتها قليلة الإسهام نسبياً في سلة غذائهم. أما السمك فكان يستهلك في المناطق المحاذية للساحل وقرب بحيرة تيتيكاكا.

كانوا يطبخون طعامهم إما في قِدر أو يشوى على نار مباشرة. وكان الحساء والمَرَق هما الطبقان الرئيسان لديهم، وكانوا ينوّعون كثيراً بتحضيرها (رو Rowe 1946: 220). وطريقة تحضير إحداها، التي سمّاها كوبو Cobo موتيباتاسكا motepatasca (1890 - 1895: الكتاب 14، الفصل الرابع)، تتكون من ذرة تطهى مع أعشاب وفلفل حار حتى تنفلق حبات الذرة. وطريقة أخرى تسمى لوكرو locro، عبارة عن مرق مصنوع من لحم وبطاطا وتشونيو chuño (بطاطس مجففة بالتجميد)، وخضار أخرى، وفلفل حار. وكما هو الحال في الأنديز اليوم، غالباً ما كانوا يستعملون الفلفل الحار وتوابل أخرى ليجعلوا الطعام أكثر شهية. وكانوا يصنعون نوعاً من خبز الذرة أيضاً، إما بخبزه أو تحميصه على الجمر. وكانوا يحمصون الذرة ليتناولوها في ترحالهم. أما الفشار فكانوا يعدونه غذاء ترف.

كان شرابهم الرئيس التشيتشا chicha، التي هي مشروب مخمّر بنحو معتدل مصنوع من نباتات متنوعة، تغلب عليها الذرة. ولتحضيره، تمضغ النساء حبوب ذرة أو بذور أو ثمار معينة، ويضعن عجين ما مضغنه في جرة كبيرة فيها ماء دافئ. وتعمل أنزيمات اللعاب على تعطيل مفعول السكريات الموجودة في العجينة، ما يسمح بتخمره في بضعة أيام. وكلما طال زمن عملية التخمر، صار محتواه الكحولي أشد. وكانت التشيتشا منتج

الشراب الرئيس لدى أهل الأنديز، كما كانت له أهمية دينية هائلة لدى الإنكيين، لأنهم كانوا يستعملونه في المراسم الدينية أجمع. ويذكر كوبو (1979: 27) أنهم لم يكونوا يشربون الماء أبداً، إلا إذا لم تتوافر لديهم التشيتشا أو شراب آخر.

كان الإنكيون يتناولون وجبتين في اليوم: واحدة في الصباح عند الساعة الثامنة أو التاسعة، وواحدة عصراً في الساعة الرابعة أو الخامسة. وليس مؤكداً نوع الطعام المفضل عندهم في هاتين الوجبتين. وكانوا يتناولون طعامهم جلوساً على الأرض. وكانت النساء يأكلن وظهورهن إلى الرجال، قبالة القدور. وكانوا يطبخون طعامهم في قدور فخارية يضعونها على قواعد أو أثافي موضوعة مباشرة على النار. وكان الإنكيون يأكلون في صحون مسطحة، مزيّنة أحياناً بمقابض منحوتة بهيئة رؤوس حيوانات، ويشربون بكؤوس طويلة مصنوعة من الخشب أو الفخار. والاختلاف الوحيد بين علية القوم وغيرهم يتمثل في أن هؤلاء كانوا يستعملون صحوناً وكؤوساً مصنوعة من الذهب والفضة، بدلاً من الفخار (رو Rowe 1946: 220—21).

في المناسبات الخاصة، كان الناس يجلسون على الأرض في صفّيْن متوازيين، بمواجهة بعضهم الآخر، فيما يجلس الأشخاص الأعظم شأناً بينهم على كراسٍ بلا ظهر في صدر الصفين. ويكون الطعام مثل أية وجبة تماماً، فكل عائلة تأتي بطعامها.

كانوا يخزنون الطعام والشراب في قدور كبيرة أو جرار، كانت في العادة مسننة القاعدة. وكان الخزان المنزلي يصنع من سيقان الذرة الملصقة مع بعضها بطين أو بقش أو خيزران، وموضوعة في حفر مبطنة بالطين على الأرضية. وكانت المخازن الخارجية مبنية من اللَّبِن، وكانت في العادة أوسع من المخازن الداخلية. وكانوا يخزنون نتاج موسم الحصاد في مبانٍ خارجية، تسمى كولكا collcas، ويأتون بها إلى الداخل عندما يحين وقت حاجتها.

كانوا يحفظون اللحم والسمك بطريقة التجفيف بالتجميد، وتستعمل هذه العملية أيضاً في صناعة تشونيو chuño من البطاطا. وكانوا يقومون بهذا التدبير عموماً في فصل الشتاء، وقتما يكون الجو بارداً وجافاً في المرتفعات. إذ كانوا يرطّبون البطاطا بالماء، ويطرحونها على الأرض ليتركوها تتجمد في الليل. وعندما ترتفع درجة الحرارة في النهار، تذوب آثار الثلج من البطاطا ويتبخر الماء الذي عليها مجففاً اللُّب. ويكررون

العملية حتى تجف البطاطا ولا تفسد. أما اللحم فيقطّع إلى شرائح رقيقة، ويُدَقّ، ثم يترك ليتجمد في الليل ويجفّ تحت شمس منتصف النهار الحارة. ويطلق على هذا النوع من اللحم تشاركي charqui (ومنها جاءت تسمية جركي jerky[1]). مكّنت طريقة التجفيف بالتجميد الإنكيين من خزن كميات كبيرة من الغذاء لاستخدامات الإمبراطورية. كما أن للغذاء المجفف ميزة سهولة النقل من مكان إنتاجه إلى مكان خزنه.

لم يكن الإنكيون يستعملون مُسكرات غير التشيتشا chicha، هذا على أنهم كانوا يستعملون مُخدريْن آخريْن - الكوكا coca والتبغ البري - بوصفهما مخدريْن معتدليْن. والكوكا، التي يشتق منها مخدر الكوكايين الحديث، شُجيرة صغيرة تنمو على سفوح التلال الشرقية. وكانوا يلوكون وريقاتها مع كمية معينة من الليمون المجفف كي يخلّصوه من المادة الفعالة، مادة الكالويد[2] التي تخدّر الحواس باعتدال. وكان استعمالها محصوراً بعليّة القوم والنخبة الدينية. وكحال التشيتشا chicha، كانت الكوكا تستخدم بكثرة في المراسم الدينية، وحتى اليوم، ما زالت تلعب دوراً كبيراً في طقوس الفلاحين الأنديزيين. وأما التبغ، الذي لم يكن يزرع، إنما كانوا يجمعونه من البرية، فقد كان يؤخذ كنشوق ويستعمل كرُقْية ضد الحيوانات السامة (رو Rowe 1946: 292).

اللباس والزينة

كانت ملابس رجالهم ونسائهم بسيطة جداً. فقد كانت النساء يرتدين قطعة قماش واسعة تلف أجسادهن، مشدودة عند الخصر بحزام ومشبوكة بدبوس عند الكتف. وقطعة قماش أخرى، عباءة، توضع على الأكتاف وتثبت على الجبهة بدبوس كبير، يسمّونه توبو tupu. وكثيراً ما كان التوبو يصنع من النحاس، لكن قد يستعمل أبناء الطبقة الرفيعة دبابيس من فضة أو من ذهب. أما الرجال فيلبسون تُنِك tunic[3] على قطعة تغطي العورة، ويُلف على الخصر وما بين الفخذين. والتُنِك هذا يشبه رداء البُنش poncho[4] الحديث كثيراً،

(1) أي شرائح اللحم المقدَّد المجففً (م).
(2) مادة الكالويد alkaloid: صنف من مركبات النتروجين العضوية في جذر النبات التي لها تأثيرات فيزيولوجية واضحة في البشر (م).
(3) رداء فضفاض بلا أقدام يغطي الفخذين أو الركبتين (م).
(4) رداء يلبس أصلاً في أمريكا الجنوبية، مصنوع من قطعة سميكة من قماش صوفي في وسطه فتحة للرأس (م).

فهو قطعة قماش واسعة مطوية ومخاطة من جوانبها كلها سوى فتحات متروكة للذراعين والرأس. ويلبس الرجال أيضاً قطعاً صوفية أو قطنية تحت الركبتين وحول الكاحلين. وفي الجو البارد، يلبس الرجال عباءة فوق أثوابهم (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 187—88).

ينتعل الرجال والنساء أخفافاً بسيطة مصنوعة من نبات بري منسوج، كالقطن، أو من وبر الحيوانات الجَمَلية مع نعل من جلد غير مدبوغ. ويربطونها بأقدامهم بأشرطة صوفية ربطاً محكماً. وتربط بها أحياناً حلى ذهبية أيضاً. ويلبس الرجال والنساء أغطية رأس، أحدها يعد من المؤشرات الرئيسة على الهوية الإثنية. ففي الحقيقة، لكل جماعة إثنية غطاء رأس تنفرد به. ويلبس علية القوم من الإنكيين أيضاً تيجاناً من فضة وذهب.

ومع أن لباس الإنكيين الأساس كان بسيطاً، إلا أنه غالباً ما كان مزيناً بإتقان برسوم

ملابس امرأة إنكية نبيلة. لاحظ تثبيتها للعباءة بتوبو tupu [دبوس].

ملابس رجل إنكي نبيل. ويبدو أن تصميمها معتنى به
كثيراً لا سيما أن مرتديها هو الملك بعينه.

ملونة بألوان زاهية تشي بمعلومات رمزية عن واضعيها. فتصاميم رسوم أردية التُنِك التي يلبسها رجال الإنكيين كانت موحدّة إلى حد كبير، عاكسة رمزية الانتماء إلى جماعة اجتماعية خاصة (مثلاً: الانتماء إلى الباناكا panaca الملكية). ويلبسون أردية التُنِك الناعمة في مناسبات خاصة، وقد تكون منقوشة من الأعلى إلى الأسفل، فيما تحتوي أردية التُنِك اليومية على رسم واحد مربع الشكل يلتف حول الخصر، ومربع في الحافة السفلى ومثلث مقلوب عند العنق (رو Rowe 1946: 234).

أما اللباس الذي كان يحتل مقاماً رفيعاً فهو ذاك الذي يزين قماشه بريش مأخوذ من طيور استوائية زاهية الألوان. ويحدث أحياناً أن يغطّى رداء التُنِك كله أو العباءة بالريش، وأحياناً أخرى، نسبة معينة منه. ويزين أيضاً رداء كبار الإنكيين بقطع زينة رقيقة من ذهب، أو من معادن أخرى، كترميز إضافي عن منزلتهم الاجتماعية.

كان الرجال الإنكيون يبقون على شعرهم قصيراً. أما نساؤهم فيتركن شعرهن طويلاً، ويفرقنه من الوسط. ولم يكنَّ يقصصن شعرهن إلاّ في الحداد أو أمارة على الخزي (رو

1946 Rowe: 236). وكان رجالهم يعصبون شعرهم بعصابة منسوجة خصيصاً لهذا الأمر أو بحبل. وكان ملوكهم يلفون عصابتهم مرات عدة على الرأس، وتتضمن أهداباً، تتعلق فيها عصابة الرأس على الجبين. وفي عصابته أيضاً درّة صغيرة من صوف معلّقة بقضيب (رو 1946 Rowe: 235). وكانت هذه الشراريب والدرة شعارات المُلْك: فلا يجوز لأي أحد آخر غيره لبس هذه الأشياء. كما تعصب نساؤهم شعورهن بعصابة من قماش، مغطاة بقطعة من قماش ناعم.

كان رجال الإنكيين ونساؤهم على حد سواء يلبسون حِليّا. ويظهر أن النساء كنَّ يستعملن دبابيس توبو tupu وقلائد فقط. وكانت حليّ الرجال الرئيسة هي سَدّادات الأذان، التي كانت شارة كبارهم. وهذه السدادات عبارة عن قضيب يمر عبر شحمة الأذن ويدور حول الرأس بقطر قياسه زهاء إنشين. وكانوا يصنعونها من الذهب، أو الفضة، أو من مواد أخرى غيرهما. ويلبس الرجال أيضاً أساور. وعندما يبدي الجنود شجاعة في الحرب، يمنحون أقراصاً معدنية يعلقونها حول رقابهم، كما يلبسون قلائد من أسنان بشرية مأخوذة من أعدائهم المهزومين (رو 1946 Rowe: 236).

ولا يعرف سوى ذلك غير القليل عن أزياء الإنكيين المثالية أو زينتهم. فهذا مارتان دي موريوا[1] Martín de Murúa، وهو كاتب إسباني متقدم، يذكر أن نساء الإنكا كنَّ يربطن خيوطاً فوق الركبتين وتحتهما ليجعلن أفخاذهن وسيقانهن غليظة، فقد كان هذا يعدّ علامة حُسن خاصة (ذكره رو 1946 Rowe: 237). ويبدو أن الإنكيين كانوا يصبغون أيضاً وجوههم، ليس لأغراض جمالية، إنما عند الحرب والحداد.

الترفيه

لا يعرف سوى النزر القليل عن أنشطة الإنكيين الترفيهية، على الأرجح بسبب قلة توافر الوقت الذي لا ينشغلون فيه بأنشطة المعيشة اليومية. ويصدق هذا الحال على الأطفال كما على الراشدين. أما بالنسبة للشعوب المستعمرة، فصحة هذا الأمر مضاعفة.

---

(1) هو فري مارتان دي موريوا Fray Martín de Murúa (1525–1618 إسبانيا)؛ كان راهباً في أخوية الرحمة وإخباري أصله من إقليم الباسك. وهو مشهور بعمله الموسوم «تاريخ بيرو العام Historia general del Piru»، الذي كتبه في المدة 1580–1616، ويعد أقدم تاريخ مصوَّر عن بيرو (م).

الألعاب والرياضات

كان أطفال الإنكا يلعبون بكرات غزل، وقطع فخارية مدورة تصنع خصيصا كألعاب. وكان الراشدون يلعبون ألعاباً تستعمل نرداً فيه خمسة أعداد وليس ستة. كما يمارسون ألعاباً بلوح خشب وحبات فاصوليا بمجموعة ضد أخرى، لكن كيف كانوا يمارسون هذه الألعاب فهذا أمر غير معروف (رو Rowe 1946: 288—89).

كان الإنكيون يقامرون أيضاً. ومع أن رو Rowe (1946: 289) يرى أن الألعاب كانت للمتعة أكثر منها للربح، يذكر جوليان Julien (1993: 289) أن لعبة تسمّى ايلوسكاس aylloscas كانت تمارسها الطبقة الملكية (ولعل آخرين كانوا يلعبونها أيضاً) ويراهنون فيها على ممتلكات بأكملها. وهذا يوحي بوجود مراهنات عالية الثمن بين كبار القوم، على الأقل.

كانت ألعاب المهارات مهمة أيضاً في تدريب الأولاد على طقوس البلوغ (انظر في ما سبق باب «دورة الحياة»). فقد كانوا يجرون سباقات ركض ومباريات مصارعة ليتعرفوا إلى قدرات الشباب وأدوارهم كمحاربين. وبسبب من أن المشاركة في المصارعات كانت جزءاً مهماً من الرجولة، ليس هناك شك كبير في أن هذه الألعاب كانت تدار بمقاصد جادة، وأن مستوى المنافسة كان عالياً. وتتحدث روايات عن إصابات في بعض المشاركين فيها، إلى هذا الاستنتاج. فهذه الألعاب تهيئ الشباب لأنشطة أكثر جدية ألا وهي الحرب.

الفن

لم يكن لدى الإنكيين واسطة خاصة يمكن تحديدها كفن بالنحو الذي تعد فيه الرسوم الحديثة أو المنحوتات فناً. فالفن لديهم موجود على فخاريات وأقداح خشبية وملابس. ولعل ما من شك كبير في أن وظيفة الفن لديهم كانت تتخذ مقاماً ثانوياً. فلم يبلغ فنّهم مستويات الجمال التي تعزى لثقافة الموتش Moche أو الناسكا Nasca التي سبقتهم، إنما كان يؤدّى بعناية وكان جذاباً. ويرجّح أن هذا يُردُّ في جزء منه إلى ميل الإنكيين إلى استخدام أبرع الحرفيين من المناطق المفتوحة لينجزوا لهم أعمالهم الفنية.

ثمة انتقاد شائع يرى أن الفن الإنكي تكراري يعوزه الخيال في مجال طرح الموضوع. فقد كان الإنكيون يستعملون عدداً ضئيلاً نسبياً من العناصر الزخرفية، بخاصة الأشكال المثلثة، ورسوم الريش، والمربعات. كما كانوا يستعملون أشكال خضراوات وزهور،

وحيوانات اللاما، والأسود الأمريكية، والأشكال البشرية، على أنهم كانوا يرسمونها في غالبية الأحيان بأسلوب منمق وهندسي. ويُعزى جزء من هذا إلى أن الفن الإنكي كان يُنتَج جماعياً، وجزء آخر إلى أن غرض الفن لديهم كان يتمثل بنقل رسائل رمزية عن سلطة الإنكيين. ولا ريب في أن تنوع الأشكال وتراكب الألوان أدنى حجماً مما كان عليه الأمر في مجتمعات سبقتهم.

لم يكتب لبعض مظاهر الفن الإنكي أن تدوم كي تقوَّم تقويماً حديثاً. وكانت هناك روايات تقول إن جدران كوريكانتشا Coricancha كانت مكسوة بالذهب، وبأن ملك الإنكيين كان يمتلك حديقة ذرة من ذهب وفضة وأنواعاً من حيوانات اللاما ورعاتها مصنوعة كلها من معادن ثمينة أخرى (دالتروي D'Altroy 2002: 299). كما يرجح أن بيوتهم كانت مجصصة ومدهونة. وكانت وسيلة التعبير الفني المرجحة القماش، ولم يبق الفتح الإسباني أو صروف الزمن إلاّ على القليل منها.

قد يجد المرء خصيصة جمالية في أعمال الإنكيين الصخرية، بنحو كانت فيه صخور الدعامات الضخمة مُطبَقة بإحكام على حافاتها المجوفة؛ ومعالجة الضوء والظل على الجدران المبنية بهذا النمط شيء بهيج. وقد أشارت سوزان نايلز (1993: 157) إلى أن العديد من مباني الصخور المطبّقة التي اشتهر بها الإنكيون قد بناها باتشاكوتي Pachacuti، وبأنها تعكس منظوره الشخصي عن العالم؛ وكان للملوك الذين جاءوا بعده طُرز معمارية مختلفة. وهذا ما يوحي بأن السمات الفنية الأخرى المقترنة بالإنكيين قد تعزى إلى ملوك بعينهم ولأذواقهم الشخصية.

الموسيقى والرقص

تنعم الموسيقى الأنديزية بشعبية واسعة بداعٍ من توحيدها الممتع بين آلات من قبيل المزمار الأنديزي، والقيثار والقيثارة. وتختلفُ أيضاً إيقاعات موسيقاهم المتميزة عن الموسيقى الحديثة. ولا يزال من غير المؤكد كيف كانت طبيعة هذا النوع من الموسيقى. ولا شك في أن القيثارة ظهرت بعد الإنكيين، لأن الإسبان هم من أدخلوها إلى الأنديز. إلاّ أن للمزامير (المصنوعة من قطع قصب بأطوال متباينة كي تنتج أنغاماً متباينة) تاريخاً قديماً في هذه المنطقة، لذا لعلها تعكس تواصل الأمزجة بين الماضي والحاضر. ولا يعرف

ما إذا كانت الموسيقى التي تعزف على هذه الآلات قديمة قِدَم الآلات نفسها.

ثمة آلات أخرى يرجح أن الإنكيين استعملوها (عُرِفَت إما من خلال روايات إخباريين أو من عيّنات أركيولوجية) تضم نايات بسيطة وطبولاً وأبواقاً من أصداف محار ورَقّات وأجراساً وخشخاشات. ويظهر أن الموسيقى كانت مهمة في حفلات تسلية العمال الذين كانوا يجيئون للعمل لصالح الإنكيين، وفي أوقات المهرجانات وفي الحرب. وتذكر كيندال Kendall (1973: 50) أن هناك موسيقيين كانوا يتدربون على الأداء في البلاط الملكي، وكانوا يعزفون سوية على نايات عدة لتضخيم حجم الموسيقى. ويتحدث كل من رو (1946: 290) Rowe وكيندال Kendall عن ناي يُشبه آلة الفلوت الحديثة. وكان يستعمل في أغاني الحب، وكان الآلة الوحيدة التي تستعمل في عموم الأنديز.

كان الرقص مقتصراً على المهرجانات أو الطقوس؛ فلم يكن لفكرة الرقص، كوظيفة اجتماعية خالصة، من وجود. وكان الرقص أحياناً محدداً برجال أو بنساء، وأحياناً أخرى كان كلا الجنسين يشتركان بالرقص. وكما كان حال الرقص في البلاطات الملكية في أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، كان الرقص الإنكي رسمياً جداً، بداع من أن على كل مشارك أن يطابق حركاته تماماً مع حركات الآخرين.

الأدب

كان الأدب الإنكي بجملته شفاهياً طبعاً. وكان يضم حكايات وأغاني وفنوناً أدائية، كانوا يتناقلونها شفاهاً، وعليه فقد كانت موضع تغيّر وتأويلات شخصية. ويلاحظ رو (2946: 320) Rowe وجود أربعة أنواع أدبية لديهم على الأقل: ابتهالات وترانيم ومسرحيات وقصائد حكائية وأغان. أما الابتهالات والترانيم فقد كانت تضفي ثناء رائعاً على أرباب الإنكيين، يُشبه كثيراً أناشيد العهد القديم. ولم يبق من مسرحياتهم سوى مثالين، بترجمة رديئة.

يشتمل جُل الأدب الانكي على قصائد حكائية تدور حول الدين والأساطير والتاريخ. والعديد من الأساطير التي نوقشت في الفصل الرابع كانت تُتَناقَل كقصائد حكائية. ومثل حكايات الفايكنغ Viking[1] الكبرى، كانت هذه القصائد الحكائية موضوعة

(1) مع ظهور الممالك الاسكنديناقية، كانت هناك شعوب شمالية، عرفت باسم الفايكنغ Vikings في مطلع العصر

كي تُستَظهَر حرفياً ويعاد إلقاؤها على الجموع. أما المسرحيات فكانت تُقدَّم كجزء من رقصات الجمهور، بممثل أو اثنيْن ترد عليهما جوقة. ويحتمل أن المسرحيات الدرامية كانت تشدد على موضوعات دينية.

يظهر أن الغناء والشعر (وهما لا ينفصلان في العبارات الإنكية لأن معظم أغانيهم ليست سوى شعر مُنغَّم) هما أقل مظاهر أدبهم كلها تغيراً (رو Rowe 1946: 322). وكان موضوعها الحب في الأعم الأغلب ـ بخاصة الحب الضائع ـ متضمناً إشارات كثيرة إلى الطبيعة. ومن بين أقدم القصائد لديهم قصيدة يتذكرها غارثيلاسو Garcilaso من طفولته (ترجمت في كتاب رو Rowe 1946: 322):

في هذا المكان
سوف تهجعين
وعند انتصاف الليل
سآتي.

ولو لم يسعَ القساوسة الإسبان ورجالاتهم الرسميون سعياً حثيثاً إلى دمغ الأدب الإنكي بوصفه عاكساً لمعتقداتهم وأعرافهم الوثنية، لعُرِفَ الكثير على الأرجح عن ذلك الأدب. وقد يكون هذا هو السبب في أن قصائدهم أدنى عرضة للتغير: فلعلها كانت تُتناقَل بين العائلات وكان طابعها الديني ضئيلاً.

الحياة الخاصة، والإمتاع، والتعليم لدى الشعوب المستعمرة

الحياة الخاصة

تفاصيل جوانب الحياة الخاصة لدى الشعوب المستعمرة أكثر ندرة مما لدى الإنكيين. ولا شك في أنهم كانوا يتوافرون على طقوس بدورة الحياة خاصة بهم، ولعل الكثير

الوسيط، مُثّلوا على إنهم يمتهنون السلب، ويرجع جزء من ذلك إلى كثرة استعمالهم العنف، لكن الفايكنغ كانوا بحارة كباراً، وتجاراً ومحاربين أشداء. فتحوا مناطق عدة ووصلوا إلى شواطئ البلطيق في روسيا، وعلى أيديهم عرف العالم ظهور أول دولة روسية بلغت تخومها الشرق. واتخذت «ظاهرة الفايكنغ» أطواراً عدة بفعل الكثير من أنشطتهم ونفوذهم. وانحسر عصر الفايكنغ عند تأكيد سلطات الممالك المركزية، واعتناق البلدان الاسكندينافية المسيحية. ولديهم حكايات منظومة تروي قيمهم الاجتماعية (م).

من تلك التفاصيل تماثل تلك التي لدى الإنكيين لأن جُلَّ مظاهر الحياة اليومية، على ما يظهر، هي نفسها في مناطق واسعة من الأنديز. ولا نعرف ما إذا كانت هناك جماعات اجتماعية أخرى تمارس طقوس قص الشعر والتسمية في عيد المولد الأول. ويرجح أن أفراد جماعات مستعمرة كانوا يقيمون طقوس سن البلوغ، لكنها كانت على الأرجح أقل إعداداً من تلك التي وصفت سالفاً في ما يخص الفتيان عندما يبلغون الرابعة عشرة.

كان الزواج لدى الشعوب المستعمرة يُنظَّم بيد المديرين الإنكيين. ومع أن الأفراد كانوا أحراراً في اختيار زوجاتهم، لا يعد الأزواج مقترنين رسمياً حتى يقرر مدير المقاطعة الإنكي ذلك. ويحدث ذلك عندما يصطف الشُبان المؤهلون للزواج في جانب الناس وتصطف البنات في الجانب الآخر. وعلى كل ولد أن يختار فتاة ويجعلها خلفه. فإن حدث واختار فتيان اثنان الفتاة نفسها، يناقش المسؤول الإنكي المسألة مع الأطراف المعنية جميعاً ثم يقرر مِن نصيب مَنْ تكون. ثم على الآخر الخاسر اختيار واحدة أخرى. وعندما يقترن الجميع ببعضهم، يعمد المسؤول إلى منح كل زوج منهم مباركة الملك، ومن ثم بوسعهم الزواج كل على وفق أعرافه (رو Rowe 1946: 285). وكانت العادة الشائعة أن يكون للرجل زوجة واحدة، لكن إن كان الرجل كوراكا curaca، فقد يمنح زوجة ثانية مكافأة له على خدمة حسنة قدمها إلى الإنكيين.

تتنوع عادات الشعوب المستعمرة وطقوسهم الخاصة بالدفن تنوعاً واسعاً. ففي منطقة كوزكو Cuzco، كانت هناك قبور صغيرة على شكل خلايا نحل تبنى لعامة الناس في كثير من الأحيان في كهوف أو على وجوه منحدرات صخرية. أما في وادي كولكا Colca بجنوب بيرو، فيجري الدفن أحياناً في جدران مصاطب.

وفي المنطقة المحيطة ببحيرة تيتيكاكا Titicaca، كانت المدافن في أبراج مدورة أو مستطيلة كانوا يسمونها تشولبا chullpas. وكانت معظم هذه العادات سابقة على الفتح الإنكي واستمرت كجزء من سياسة الإنكيين في السماح للشعب المستعمر بالإبقاء على ثقافتهم السابقة قدر الإمكان.

في ما يخص تقسيم العمل بين رجال الشعوب المفتوحة ونسائها، تلاحظ سلفربلات Silverblatt (1987: 4–14) أن هناك نزراً ضئيلاً من المهام التي تتحدد بجنس الشخص قبل الفتح الإنكي. فعلى الرغم من أن النساء كن يتولين مسؤولية أنشطة الأسرة، إلاّ إنهن كنَّ

مدفن تشولبا Chullpa في منطقة بحيرة تيتيكاكا Titicaca. ويظهر الرسم تقديم تشيتشا chicha إلى الأرباب في أثناء دفن متوفى.

يساعدن أيضاً في زراعة الحقول وحصادها ورعي الحيوانات وجمع الحطب، وينجزن أعمالاً أخرى. وبنحو مماثل، مع أن الرجال كانوا يعنون بنحو رئيس بالأنشطة الزراعية، فقد كانوا يزاولون أيضاً العديد من أعمال النساء ـ بل حتى الغزل والحياكة لو اقتضى الأمر. لذا بالكاد كانت أعمال الذكور تنعزل عن أعمال الإناث؛ فقد كان الاثنان يعدّان متتاميْن ومتكافئيْن.

تغير هذا الحال في أعقاب الفتح الإنكي. إذ كان الإنكيون يرون جُلَّ الرجال جنوداً، والنساء صانعات قماش. وهذا ما أدى إلى ظهور بوادر انعدام المساواة بين الجنسين لأن الرجال كانوا يشاركون في أنشطة سياسية كجنود وإداريّين في الإمبراطورية. وقد كان الزعماء الذكور هم من يخطون بمناصب سلطة في الإمبراطورية، وليس النساء (سلفربلات Silverblatt 1987: 15—16).

مع أن النساء المنتخبات كنّ أكثر أهمية في الأنشطة الاقتصادية في الإمبراطورية

الإنكية، إلاّ أن عوام النساء كنّ يحظين بأهمية أيضاً. فقد كانت النسوة معفيّات من دفع الجزية، بيد أنهن كن جزءاً من الأسرة الملزمة بذلك. لذا، عندما يذهب زوجها أو ابنها بعيداً للإيفاء بالتزام الميتا mit'a، تساعد المرأة في إنجاز التزامات الأسرة الأخرى من قبيل العمل في الحقول. وكما ذُكر في ما سبق، قد ترافق النساء أزواجهن في نشاط الميتا. فضلاً عن ذلك، يقع إنتاج القماش الذي تطلبه الإمبراطورية على عاتق النساء لأن غالبية أعمال النسيج كانت من شغل المرأة.

كحال نظيراتهن بنات الوجهاء، كانت نساء الشعوب المستعمرة يتولين إعداد غذاء أسرهن، وأعمال التنظيف والعناية بالأطفال. وكانت المهمة اليومية ـ وهي على الأرجح مهمة شاقة ـ تتمثل بالحصول على الوقود للنار. ففي مناطق الغابات الكثيفة، مثل الروابي الغربية، قد يكون هذا عملاً بسيطاً نسبياً؛ لكن في مناطق أخرى فإن العثور على الخشب أو روْث اللاما من أجل إيقاد النار قد يأخذ بضع ساعات. ومن المرجح أن معظم الغابة الأصلية في منطقة المرتفعات قد تعرض للقطع في زمان الإنكيين. زد على ذلك، كانت المرأة ترجع من رحلة طويلة لجمع الوقود ومعها طفل أو اثنان تحملهما فتعاني تعباً كبيراً من المشي، فضلاً عن وزن الخشب الثقيل. وعليه ليس هناك من شك في أن المرأة كانت مرهقة في نهاية اليوم.

يصبح الرجل مؤهلاً للعمل في الميتا وأداء ما عليه من فروض أخرى وقتما يتزوج وينشئ أسرة؛ إذ تحصل عائلته على قطعة ارض تتملكها لمنفعتها الخاصة، ويصار إلى تقييمها كل سنة للتأكد من تلبيتها حاجات عائلته. وعلى الرجل، بالاشتراك مع جماعته، أن يعمل في حقول الدولة الإنكية وطبقة رجال ديانتها. وعليه المشاركة في مناوبات الميتا، خادماً الإمبراطورية بأية صفة تقتضيها. فقد كانت هناك ثلاثة أنشطة تتمثل بالخدمة العسكرية، والأعمال العامة، والتعدين (كيندال Kendall 1973: 85). أما إذا كان رجل ما موهوباً في حرفة معينة، فقد يختارونه للعمل لصالح الإمبراطورية متفرغاً كحرفي في أحد مراكز المقاطعات أو في مجموعة خاصة في المنطقة التي يعيش فيها في الأنديز (انظر الفصل الثاني) أو ربما قرب كوزكو.

كانت فرصة تحسين الفرد من مقامه في الحياة ضئيلة الاحتمال. إذ أن مقام النبيل أو العاميّ متوارث. مع ذلك، قد يفوز رجل ما بدرجة تقدير أكبر من خلال البروز بمآثر يصنعها

في الحرب. وليس مؤكداً ما إذا بإمكان رجل عاميّ أن يصبح كوراكا بما أن تلك المناصب كانت مدّخرة لزعماء الشعوب المستعمرة. وإلى جانب الأعمال في الحقول، تتطلب إحدى مهام الرجل البيتية القليلة صناعة أحذية لأفراد عائلته (كيندال Kendall 1973: 85). ومن غير الواضح كيف كان الرجال يساعدون في صيانة البيت أو تنشئة الأطفال.

كان طعام العوام من الناس وشرابهم مثل ما يتناوله الإنكيون من طعام وشراب. والفارق الوحيد بينهم هو أن أبناء طبقة النبلاء الإنكيين كانوا يستعملون صحوناً من ذهب أو فضة، بينما صحون العوام من فخار أو خشب.

يحتمل أن غالبية الناس من غير الإنكيين كانوا يرتدون ملابس بسيطة متشابهة تتكون من ثوب وتُنك. وكثيراً ما يمكن تحديد الهوية الثقافية بنوع غطاء الرأس؛ وقد يكون نوع الحزام، وحمالات الكتف، والحقائب النسيجية، علامات مميزة تخص مجموعة محلية بعينها (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 175–77). لذا فقد كان للقماش والملبس أكثر من وظيفة؛ فقد كانت تشكل نسق اتصال بصري يتيح للإنكيين تعيين ثقافة الفرد ومقامه الاجتماعي ببساطة من النظر إلى ملابسه أو ملابسها. وكان هذا الأمر ينفعهم بنحو خاص في تتبع حركة شعب مستعمر معين في أرجاء الإمبراطورية.

كان نمط قص الشعر لدى رجال ونساء الشعوب المفتوحة متنوعاً تنوعاً واسعاً. فعلى خلاف الإنكيين، كان العديد من الجماعات المستعمرة يزاولون عادة تغيير شكل الرأس. فسكان وادي كولكا Colca، اشتهروا بهذه الممارسة، والوسائل التي بها يعصبون الرأس كانت طريقة للتمييز بين الجماعات المحلية الأخرى. (أولوا موغوليون Ulloa Mogollón 1586/ 1965: 327). وكان التحوير يتم بربط رأس الوليد بلوح خشبي أو لفّه بشرائط قماشية لشهور، أو حتى لسنوات، كي تصير الجمجمة مسطحة أو مخروطية الشكل تدريجياً مع نمو الفرد. وبقدر ما بوسع الباحثين أن يحددوا، فإن سبب تحوير شكل الرأس جمالي: إذ كانت تلك الجماعات تجد أن شكل الرأس المصطنع أمر يبعث على المسرة.

الإمتاع

الراجح أن هناك تبايناً قليلاً في أنشطة اللهو والمتعة بين الشعوب المستعمرة والإنكيين. ذلك أنه لم يكن لدى الشعوب المستعمرة من وقت الفراغ إلاّ

القليل للهو وإقامة علاقات اجتماعية: إذ أن متطلبات عمل الإنكيين الإضافي من شأنها أن تستنفد معظم وقتهم فراغهم. بل حتى في يومنا هذا، يعمل مزارعو الكفاف من الصباح إلى الليل وما لديهم إلاّ الوقت القليل لأنشطة اللهو والمتعة.

تشير المعلومات التي يوردها غوامان بوما Guaman Poma (1980) إلى أن الراقصين من المقاطعات غالباً ما كانوا يرتدون أزياء متكلفة جداً وأقنعة، لكن لا يعرف سوى القليل عن هذه الأزياء. ولعل الأنشطة الفنية لدى الشعوب المفتوحة، البادية على خزفياتهم وأشياء أخرى، كانت تتمايز بنحو معين في كل منطقة. وكما نوقش في الفصل الأول، تتميز ثقافات الحقبة الانتقالية المتأخرة التي سبقت الإنكيين بالمفردات الثقافية الفريدة، ويمكن تسمية الكثير منها بالفنية.

التعليم

لم تكن لدى الشعوب المستعمرة مدارس، باستثناء تلك التي يقيمها الإنكيون لأبناء الكوراكا curacas وتدريب النسوة المنتخبات. كان التعليم كله غير رسمي، قائم على أساس مراقبة القريب الأكبر سناً أو والدي الطالب.

لم تتغير الحياة الخاصة، بجملتها وتفصيلها، لدى أفراد الشعوب المستعمرة تغيراً كبيراً على يد الإنكيين، باستثناء ما يخص السيطرة على الزواج والأنشطة الاقتصادية. وكانوا يبقون على العائلات معاً، إلاّ حينما يُختار شخص منها ليكون عاملاً متفرغاً لعمله لدى الإمبراطورية.

إقامة صلة بما مضى

1. ما أحداث دورة الحياة المهمة لديكم وتحتفلون بها، وكيف تحتفلون بها؟ لماذا تعتقدون أن طقوس الإنكيين مختلفة عما لديكم، هذا إنْ كانت تختلف عما تمارسونه؟
2. جد مقطوعة موسيقية من الأنديز مُسجّلة (استعن بـ«مركز المصادر» لمعرفة الموضع الذي يمكنكم العثور عليها فيه) وانظر كيف تختلف عن الموسيقى الحديثة.

الفصل الرابع

ديانة الإنكيين وعلمهم وتقويمهم

لم يكن لـ«العلم،» وهو منظومة منهجية من مبادئ تحكم كيفية فهمنا للعالم، من وجود في زمان الإنكيين. وكما هو الحال في معظم المجتمعات القديمة، كانت جميع تفسيرات الظواهر تصاغ بعبارات دينية. وهكذا، فبدلاً من أن يُفسَّر خسوف القمر على أنه مرور الأرض بين القمر والشمس، كان هناك اعتقاد بأن أفعى أو نمراً يلتهم القمر (دالتروي D'Altroy 2002:151). ومع ذلك، يتضح أن الإنكيين كانوا يتوافرون على معرفة متطورة بالرياضيات والفلك، استعملوها في بنائهم الأنشطة الدينية. علاوة على ذلك، أبدوا أيضاً فهماً واضحاً بمبادئ الهندسة في إنشائهم المدرجات والمباني. وكانت هذه المعرفة، على ما يرجح، مجال أفراد استثنائيين صمت الإخباريون عن ذكرهم صمتاً كبيراً.

لقد كان الفاتحون الإسبان ينظرون إلى أية ديانة، ما خلا المسيحية، على أنها شرّ، وأية معتقدات دينية غيرها بأنها عبادة شيطان. لذلك، فقد بذلوا جهداً استثنائياً لسحق ديانة السكان الأصليين. كما أن عناية الإسبان في القضاء على الديانة المحلية الأصلية قادتهم أيضاً إلى توثيق ممارساتها بكمّ جيد، فأتاحوا لنا بذلك لمحة عن معتقداتهم الروحية.

الدين

كانت ديانة الإنكيين معقدة للغاية وتشكّل جزءاً أساساً من الحياة الإنكية. فقد كانت ديانتهم تشدد على الالتزام بالرسميات والطقوس، وكانت معظم الأنشطة تركز على الممارسات الزراعية، وعبادة الرب، أو علاج المرض. لهذا السبب، كان لدى الإنكيين مجموعة كبيرة من الكهنة، كانوا يديرون ممارسات الدولة الدينية الرسمية، ومنهم آخرون موضع استشارة للمساعدة في أمور شخصية الطابع. وعلى الرغم من انفصال البيروقراطية الدينية عن الحكومية، بيد أن من الخطأ القول بوجود فصل بين الكنيسة والدولة. فلم تكن هناك إجراءات حكومية تتخذ، سوى القليل منها، من دون استشارة الأرباب. ففي الواقع، كلما كان لنشاط معين أهمية زائدة، زادت أهمية الطقوس الدينية

التي كانت ضرورية لنجاح المشروع. بالإضافة إلى هذا، كانت البيروقراطية الدينية تعتمد على فتوحات الدولة لتوفير الغذاء والإمدادات المطلوبة لتسيير شؤونها.

الميثولوجيا

الأساطير حكايات أو خرافات تخص أناساً أو أحداثاً من الماضي، بخاصة تلك التي تحاول تفسير سبب تكوين العالم أو شعب ما. وأساطير الكثير من المجتمعات محض خيال لا أساس لها في الواقع، كأساطير اليونان. ولعل لبعض الأساطير أساساً في الواقع، على أنها وعبر سنين طوال من النقل وتواتر النقل صارت حكاية أكثر منها حقيقة. والميثولوجيا الإنكية تحتوي على نماذج من كلا النوعين. كما أن الأساطير، التي تتعلق بأصل العالم قد استعملها زعماء سياسيون في العديد من المجتمعات لتسويغ نظام العالم كما يرونه هم، لا سيما في الحالات التي تشهد تفاوتاً ملحوظاً بين الناس. وقد استعمل الزعماء الانكيون، بالتأكيد، أساطيرهم لمثل هذه الأغراض.

على وفق ما يرى رو Rowe (1946: 315)، فإن أساطير الإنكا كلها، التي سجّلها إسبان، إما توضح من أين جاء الإنكيون (أساطير الأصل) أو أنها تصف أحداثاً تاريخية. أما هل توافر الإنكيون على أنواع أساطير أخرى، فهذا أمر غير معروف.

تسوّغ أسطورة أصل الإنكيين علوّ شانهم الاجتماعي على سائر الناس. فكان أبوهم المؤسس وأول ملوكهم مانكو كاباك Manco Capac، طبقاً لما يذكر غوامان بوما. وقد خرج هذا الملك إلى الأرض من كهف في مكان يدعى باكاريكتامبو Pacariqtambo، يرافقه ثلاثة أشقاء وأربع شقيقات. وبعد سنوات عدة انتقلوا إلى كوزكو مع مجموعة أشخاص آخرين من الموالين لهم، كانوا قد جاءوا هم أيضاً من كهوف في باكاريكتامبو (انظر المقدمة). ثم أصبح أحد الأشقاء يثير الخشية لدى الآخرين لشدته الاستثنائية فأُعيد إلى باكاريكتامبو، حيث وضع في الكهوف الأصلية نفسها وأوصدوها عليه. وبقي شقيق آخر في جبال أواناكوري Huanacauri، حيث أنشأ طقوس سن بلوغ الذكور. وبعدها تحول إلى حجر وصار لاحقاً شخصاً مهماً في عبادة الإنكا. واستمر الشقيقان الآخران مع أخواتهم الأربع بالعيش في كوزكو. وعند وصولهم وادي كوزكو، غرَسَ الإنكيون عصا ذهبية في الأرض، كانت علامة على أن هذا المكان سيكون محل إقامتهم الدائمة.

وحوَّل شقيقهم الثالث نفسه الى صخرة تحرس المكان. وبتوجيه من الشقيق المتبقي، مانكو كاباك، أخرج الإنكيون شاغلي المكان الأصليين وأقاموا العاصمة كوزكو (غوامان بوما Guaman Poma 1980: 80–87).

وفي رواية أخرى لهذه الأسطورة، يذكر غارثيلاسو دي لا فيغا Garcilaso de la Vega (1966: 52–53) أن مانكو كاباك وشقيقته (التي كانت أيضاً زوجته) سافروا إلى باكاريكتامبو Pacariqtambo من بحيرة تيتيكاكا Titicaca، ومن ثم إلى كوزكو. وبعد تأسيس كوزكو، جال مانكو في أنحاء الإمبراطورية، ونظَّم المجموعات الإثنية وجاء لهم بالحضارة.

الاختلافات بين هاتين الروايتين مهمة، لأنها تؤثر في العلاقات الاجتماعية لدى الشعب، الذي عاش مع الإنكيين في وادي كوزكو. ففي رواية غوامان بوما، خرج مانكو كاباك وشقيقته من باكاريكتامبو يرافقهما من هناك آخرون، وأصبح هؤلاء الآخرون إنكيين امتيازاً. ولأنهم كانوا يرافقون حاكم كوزكو الأصلي، يحظون هم أيضاً بمقام «الإنكيين». أما في رواية غارثيلاسو دي لا فيغا، فإن مانكو كاباك وشقيقته وحسب هما مَنْ أتيا من بحيرة تيتيكاكا؛ وبالتالي لم يكن الإنكيون امتيازاً «إنكيين» في الأصل. وقد مُنحوا هذا اللقب في وقت لاحق. لذا فان الاختلافات بين الروايتين تعكس اختلافاً في ما إذا كان أصل الإنكيين امتيازاً يعود لأزمنة قديمة أم صاروا إنكيين عندما وصل الزوجان الملكيان إلى وادي كوزكو.

ثمة وجهة نظر مثيرة للاهتمام بشأن هذه المسألة يقدمها بريان بور Brian Bauer (1992: 30). إذ يلاحظ أن غارثيلاسو كان الحفيد الأكبر لاوايانا كاباك Huayna Capac وبالتالي فهو إنكيّ ملكي. ومن ثم فإن من وجهة نظر غارثيلاسو دي لا فيغا، إن الإنكيين امتيازاً نالوا مقامهم كإنكيين من أسلافه الذين أسبغوه عليهم. لكن غوامان بوما كان من اوانوكو Huánuco ولذلك لم يكن إنكياً. لذا ما كان يرى في الاختلافات بين الإنكيين دماً والإنكيين امتيازاً، أنها ذات شأن.

مهما يكن الأمر، إن تضمينات أسطورة الأصل هذه واضحة وهي أن نسل مانكو كاباك وزعماء الإنكيين هم الانكيون النبلاء الوحيدون، وأن الآخرين تابعون لهم. كما تسوّغ الأسطورة التقليد الملكي الإنكي في زواج الملك من شقيقته (لأن مانكو كاباك

فعلها). زد على ذلك، أن هذا يفسر وجود بعض المواضع المقدسة بالقرب من كوزكو (حيث تحوّل الشقيقان إلى حجر)، وأهمية طقوس بلوغ الذكور لأنها كانت تُجرى للإنكيين على يد أحد إخوتهم الأصليين قبل أن يتحول إلى حجر ((Rowe 1946: 318).

هناك أسطورة أخرى مهمة تصف كيف نشأت الأرض. فقد كان الإنكيون يؤمنون بفيراكوتشا Viracocha، الذي كان في الوقت نفسه الإله الذي خلق العالم، ورجل يسافر في أصقاع الأرض ليقوم بمآثر كبيرة. فقد أنشأ فيراكوتشا العالم والسماء بكواكبها كلها، وجاء لهم بالشمس والقمر من جزيرة في بحيرة تيتيكاكا لينيران. ثم انتقل إلى تياواناكو Tiahuanaco فصنع الناس والحيوانات من طين. ووصف لكل قبيلة ملابس تختلف عن الأخرى. وأعطاهم ثقافات متمايزة، وبعث بها إلى الأرض، ليظهروا بها في أوطانهم. ثم راح يتنقل في أنحاء العالم كلها ليعرف ما إذا كان جميعهم يتصرفون بنحو صحيح. وعندما وصل إلى الإكوادور، ألقى تحية الوداع ومضى في المحيط الهادئ. ويذكر رو Rowe (1946: 318) كيف أن رواية غارثيلاسو دي لا فيغا عن أسطورة الأصل تبدو أنها تجمع بين أسطورة فيراكوتشا وأسطورة مانكو كاباك.

تفسّر أسطورة فيراكوتشا بعبارات بسيطة كيف أن الأرض والكواكب، والناس جميعاً من خلق كائن إلهي. وبهذا المعنى، فهي تُشبه رواية خلق الرب للعالم في الكتاب المقدس. ويشير رو Rowe (1946: 316) إلى أن الإنكيين استعملوا أجزاءً من أساطير أصل شعوب أخرى، من الذين كانوا في منطقتهم وغيرهم على حد سواء، بخاصة الذين كانوا في منطقة بحيرة تيتيكاكا، بغية التوصل إلى أسطورة تفسر العالم على النحو الذي تصوروه هم. وفي مقال لاحق، يلاحظ رو أن نقطة انطلاق مانكو كاباك عبر البحار كانت تتوغل تدريجياً في الشمال، الأمر الذي يعكس توسع عالم الإنكيين المعروف بالنحو الذي فتحوه (ذكره دالتروي D' Altroy 2002:144).

الآلهة

كان لدى الإنكيين آلهة كثيرة، لكل واحد منها مجال معين من النفوذ والسطوة. وكان أشدها سطوة فيراكوتشا Viracocha، الخالق. ولم يكن هذا الإله ذكراً ولا هو بأنثى. ورأى الإسبان تماثيل عدة لهذا الكائن في معابد متعددة. وكان أحد تلك التماثيل، وهو من

الذهب الخالص، في كوزكو؛ وكان طوله يبلغ نحو 4 أقدام. كانت ذراع التمثال اليمنى مرفوعة ويطبق أصابع قبضته، باستثناء الإبهام والسبابة (روRowe 1946: 293). وأعطى فيراكوتشا الآلهة الآخرين ما لديهم من سلطة. ولهذا السبب كانوا يرون في فيراكوتشا السطوة الأكثر غوراً في العالم، وأما الآلهة الأخرى فكانت أكثر منه قرباً وأثراً وتحكماً في أفعال البشر. لذا كان الأفراد أكثر انشغالاً بإقامة طقوس للآلهة الأخرى.

كان الآلهة الثلاثة الكبار الذين تحت فيراكوتشي هم إنتي Inti، أي الشمس؛ وإلآبا Illapa، أي الرعد أو إله الطقس؛ وماما ـ كيلا Mama–Quilla، وهي القمر. أما إنتي، وهو أقواهم، فكان إله الزراعة. وكان هذا الإله ممثلاً بقرص ذهبي تخرج منه أشعة وفي وسطه وجه بشر. وأما إلآبا، ويلي الأول قوة، فكان مقترناً بالمطر. وكان يصوَّر عادة كرجل في السماء يرتدي ملابس مشعة، ممسكاً بهراوة حرب في يدٍ ومقلاع في اليد الأخرى. وأما ماما ـ كيلا فكانت امرأة وهي زوجة الشمس. ولا يبدو أن للقمر وظيفة خاصة، لكن دورة القمر هي أساس التقويم الطقوسي الإنكي.

كان الإلهان المقيمان في السماء، إنتي وإلابا، مهمّين للإنكيين، لا شك لأن السماء كانت مصدر كل من الشمس والمطر اللذين يديمان الغلال. وكانا مهمين أيضاً آلهة الأرض، باتشا ـ ماما Pacha–Mama، وآلهة البحر، ماما ـ كوتشا Mama–Cocha، وكلاهما ينظر إليهما كأنثيين. فقد كانت باتشا ـ ماما مهمة للإنكيين لأنهم مزارعون، فيما كانت ماما ـ كوتشا مهمة لجماعات الصيد المقيمة قرب المحيط. وكانت ماما ـ كوتشا أيضاً المصدر الأساس للماء كله، بما في ذلك الأنهار والجداول، ومياه الري. ومن هنا كانت مهمة حتى للإنكيين الساكنين كوزكو. وكان تحت هذه الآلهة آلهة متنوعون مرتبطون بالنجوم أو الكواكب، التي تؤدي وظائف مختلفة. فعلى سبيل المثال، بعض النجوم يرقب قطعان الإبل، وبعض آخر يرقب الحيوانات البرية، وغيرها أيضاً يرقب الزرع والبذور (دالتروي D'Altroy 2002: 149–50؛ رو Rowe 1946: 295).

تشكل آلهة الإنكيين الرئيسة كلها عبادة رسمية. وعلى الرغم من أن المباني الدينية العبادية كان يطلق عليها «معابد الشمس» من جانب الإسبان (ما يوحي بأنها كانت تستعمل حصراً من جانب كهنة إنتي)، إلاّ أنها كانت تضم آلهة أخرى والكهنة الذين يخدمونها. بيد أن الأرباب الأكثر أهمية، من قبيل فيراكوتشي، وإنتي، وإلابا، فكانت

تُمثّل بصور. ويظهر أن ماما ـ كيلا، وباتشا ـ ماما، وماما ـكوتشا لم يكنّ ممثلات بصور، وكذا الحال بالنسبة للآلهة الأقل شأناً.

أواكا والأرواح

أواكا

بالإضافة إلى الآلهة التي سبق ذكرها، يتوافر الإنكيون على جملة من المعتقدات الأخرى بالقوى الخارقة. وينطوي الجزء المتفشي لدى الناس من الحياة الدينية الإنكية على الاعتقاد بأن العديد من الأماكن والأشياء كانت تحمل في طياتها قوى خارقة. وكانت هذه الميزات الخارقة تسمى أواكا huacas. ومن غير الواضح ما إذا كانت الأشياء والأماكن هي الأرواح ذاتها، أو ببساطة هي مواضع تسكنها أرواح. وكانت معظم الأواكا huacas معالم محلية في مستوطنة ما، ذات معنى لسكانها فحسب. ويبدو أن أكثر تلك الأماكن

ملك إنكي يتحدث إلى أواكا huacas، موجودة في دائرة. وتتضمن الأواكا مومياوات أسلاف وجبالاً وصخوراً وعيون ماء.

شيوعاً هي الينابيع، والصخور. كما كان لدى الإنكيين تمائم يعتقدون أنها تخبئ قوى خارقة للطبيعة وتؤدي وظيفة أواكا محمولة (Rowe 1946: 297).

كانوا يفردون أيضاً توقيراً خاصاً لجثث الموتى، التي كان ينظر إليها مثل أواكا. فقد كانت أجسام ملوك الإنكا تُحنَّط بعد موتهم وتوضع في معابد، ويخرجونها في أثناء الأعياد ومراسم التعبُّد. علاوة على ذلك، كان ملوك الإنكا الموتى يُعدّوْن مشاركين فاعلين في أنشطة الباناكا panacas التابعين لهم، وبالتالي كان الطعام والشراب يُقدَّم لمومياواتهم.

ثمة عنصر فريد في الديانة الإنكية كان يتمثل بنظام السيك ceque (باور Bauer 1998؛ زويدما Zuidema 1990، 1964). وكان السيك هذا عبارة عن متتالية من خطوط مستقيمة غير مرئية تتشعّب خارجة من كوريكانتشا Coricancha في كوزكو، ممتدة إلى الأفق ولربما إلى ما وراءه. وكانت هناك بموازاة السيك سلسلة من 385 أواكا، منها 328 تمثل التقويم الطقوسي، طبقاً لما يرى زويدما (انظر مادة «العلم والتقويم» لاحقاً في هذا الفصل). ويلاحظ باور (Bauer 1998) أن الاواكا تشتمل على ينابيع وحجارة وقصور ومعابد، وكهوف ومقابر وأماكن أخرى عدة. يفيد نظام السيك في غرضين: لتنظيم الفضاء الجغرافي في أنحاء كوزكو، وترتيب الأواكا وفقاً لأيام السنة. وكان لكل لأواكا يوم خاص تقام فيه الطقوس، ومختلف الفئات الاجتماعية في كوزكو مسؤولة عن طقوس الأواكا. وكان الباناكا panacas الملكيون مسؤولين عن بعض الأواكا، أما الأيلوس ayllus غير الملكيين، والإنكيون امتيازاً، فكانوا مسؤولين عن الأواكا الأخرى. وكان هذا النظام يعزز من الفروق الاجتماعية بين هذه الجماعات.

مواضع مقدسة كبيرة ووسطاء وحي

فضلاً عن المواضع المقدسة والأواكا القريبة من كوزكو، كانت هناك غيرها في أماكن بعيدة، ومعظم هذه كانت مهمة للجماعات المحلية التي استعمرها الإنكيون. وكما مرّ ذكره، أخذ الانكيون أصنام الشعوب المحلية المستعمرة وصورها إلى كوزكو كجزء من فتوحاتهم، لكنهم لم يكونوا يبجلونها. أما الاكبر شأناً لديهم فكانت الجبال العالية، التي كانوا يعتقدون أنها أرواح ذات سطوة كبيرة يطلق عليها أبوس apus. وقد عُثِر على مواضع مقدسة مقامة على العديد من أعلى القمم في جنوب الأنديز، بمحاذاة الحدود

التشيلية الأرجنتينية. ومع أن هذه المواضع المقدسة المكتشفة تتباين عن بعضها بعض، إلا أنها تشترك في ما بينها في بعض السمات. ففيها عادة ما يشبه المنصة تدفن فيها أشياء مهمة وأضاح. وكانوا في بعض الأحيان يضحون بأطفال، كجزء من طقس كاباك اوتشا Capac Hucha (انظر الملاحظة الجانبية). والأكثر شيوعاً فيها أزواج من تماثيل بصورة بشر صغيرة وحيوانات اللاما، تتوزع كلها تقريباً واحد من ذهب وآخر من فضة. وأما أصداف السبونديلوس Spondylus، الموجودة في مياه الإكوادور الساحلية، فهي أيضاً شيء مشترك بين تلك المواضع. ويحتمل أن تقديم هذه القرابين هو من أجل استرضاء أو تضرع للأبوس apus ذوات السطوة، التي كانت مصدر الماء. فإذا كانت تلك المواضع المقدسة جميعها في المرتفعات العالية تشكل جزءاً من طقوس كاباك أوتشا، فهذا يشير إلى أن هذه الطقوس كانت تقام فقط في أثناء أوقات عصيبة بصفة خاصة.

خوانيتا.. فتاة الجليد

في العام 1995، عثر جوّالون على مومياء ضحية إنكية قُدّمت قرباناً، لُقّبت «خوانيتا Juanita،» على قمة جبل أمباتو Ampato في جنوب بيرو. كان على خوانيتا شال فيه خطوط حمر وبيض جميلة مثبّت بتوبو tupu أي دبّوس من فضة، في أعلى ثوبها. ويلف خصرها حزام متعددة الألوان. وكانت لها ضفيرة طويلة قد رُبطت بحزامها بسلسة ظريفة من وَبَر الألباكا. كانت قد قُتلت بضربة على رأسها، ربما كجزء من طقس كاباك أوتشا. كما عُثِرَ على طفليْن آخرين مدفونيْن دونها بـ 1,500 متر. كما عُثِرَ على تماثيل صغيرة مصنوعة من ذهب وفضة، وأصداف سبونديلوس، أُلبِسَت مثل ملابس الضحايا المقدَّمين قرابينَ، يتممها غطاء رأس، إلى جانب أوعية شرب. وبعد ثلاث سنوات من ذلك الاكتشاف، عُثِرَ على موقع قرابين مماثل فوق قمة جبل لوليليكو Llullaillaco في الأرجنتين، على ارتفاع 6,739 متراً. ومثل حال خوانيتا، كان الضحايا الثلاث المقدمون قرابينَ مدفونين بعناية في أرضية ترافقهم قطع خزفية؛ وأكياس طعام؛ وتماثيل صغيرة لبشر ولحيوانات اللاما من ذهب وفضة، وأصداف سبونديلوس، وما يزيد عن

20 تمثالاً صغيراً مرتدياً ملابس، مماثلة لتلك التي وجدت على جبل أمباتو. تشير هذه القرابين الطقوسية إلى أن الإنكيين كانوا يسعون إلى استرضاء آلهات الجبال ذات السطوة، أحياناً بتقديم أغلى القرابين البشرية، ألا وهي: الأطفال.

جانب آخر مهم من ديانة الأنديز يتمثل بوجود وسطاء وحي، حدد الإسبان العديد منها. فقد كان معظمها وسطاء وحي مناطقية تحظى بأهمية في ثقافاتهم المحلية، ووجود هذه جميعها يسبق التوسع الإنكي تاريخياً، بيد أنها بقيت على وظيفتها في العهد الإنكي. وكانت وسيطات الوحي هذه أشكالاً خارقة للطبيعة بوسعها الإيحاء بإجابات عن تساؤلات حول المستقبل. وكانت تمثل أقوى أشكال الرجم بالغيب، ولم تكن تُستَشار إلاّ لدواع مهمة، من قبيل وقت مهاجمة عدو، أو ما إذا أصاب الملك مرض. وقد تكون وسيطات الوحي عبارة عن صور بشرية أو أشكال أخرى. وقد وصف كوبو Cobo وسيط وحي في باتشاكاماك Pachacamac، الواقعة على الساحل الوسطي جنوب مدينة ليما، وربما يعد أقوى الوسطاء مهابة، بأنه صورة خشبية منحوتة في «شكل عنيف ومخيف». وهناك وسيط وحي مهم على مقربة من كوزكو عبارة عن سارية مزينة بعصبة ذهبية مربوط بها ثديان ذهبيان. وكان عليها ملابس امرأة لطيفة، مع صف من أشكال صغيرة على كل جانب (كوبو Cobo 1990:108).

الأورواح الشريرة

كان الإنكيون يعتقدون أنه يمكن التحكم بكل من قوى الخير والشر لمصلحة البشر أو ضدهم. وكانت أرواح الشر ترهب الإنكيين. فعلى خلاف الآلهة والأواكا، التي نوقشت في ما سبق، التي كانت كانت تُعدُّ مساعدة للبشر، إلاّ إذا لم تراع الطقوس المناسبة لها، كانت الأرواح تُعدُّ دوما شراً وتقصد إيقاع الأذى بالبشر.

الآخرة

كانت معتقدات الإنكيين بما بعد الحياة أقرب إلى المعتقدات بالنعيم والجحيم. فأما

الإنسان الطيب فيمضي للعيش مع الشمس، حيث كانت الحياة هي نفسها على وجه الأرض، سوى أن الطعام والشراب هناك وفير دوماً. وأما المسيئون فيروحون للعيش تحت الأرض، حيث كانوا على الدوام في برد وما لديهم غير الحجر يأكلوه. على أن طبقة النبلاء الإنكيين يمضون إلى النعيم مهما كان وصفهم (رو Rowe 1946: 298). وكان الإنكيون يعتقدون أن روح الميّت تحمي ذراريها من الشر وتحب أن يُخرَج جسدها في الأعياد كي يُقدَّم له الطعام والتشيتشا chicha. وكانوا يرون في الأجداد أيضاً وسطاءً ذوي شأن بين الأرزاق ومصادر الموارد الطبيعية مثل الماء (غوز Gose 1993). والحال هذه، كانوا يرون توقيرهم أمراً حاسماً في نجاح الأنشطة الزراعية.

القائمون على الدين

كان الكهنة والكاهنات المرتبطون بالمواضع المقدسة الرسمية والآلهة مختصين دينيين متفرغين تماماً لهذا العمل، تديم حياتهم جزية الشعوب المفتوحة. وما حقيقة أن ثلث الجزية تذهب إلى دعم الديانة الإنكية الرسمية إلا دليلاً على عديد الناس الداخلين فيه. كانت لديهم تراتبية كهنوتية توازي تقريباً هرم الدولة الإداري. إذ كان الكهنة مصنفين طبقاً لرتبة الموضع المقدس الذي يعملون فيه. فقد كان أعلى الكهنة مرتبة هم أولئك الذين كانوا يعملون من أجل الشمس. وفي القمة كان هناك كاهن أكبر، وكان من أقارب الملك المقربين وإذاً فهو متصل بالشمس. وكانت هناك أيضاً تراتبية للأفراد في كل موضع مقدس: فالخدم يتلون الكهنة في المسؤولية عن المراسم.

كان الإنكيون يتعبدون آلهتهم الكبيرة جميعها في المعابد نفسها، ولكل منها موضع مقدس خاص بها. ومواضع الآلهات الكبيرة ـ الشمس، فيراكوتشا، الرعد، وغيرها ـ كان لديها القيّمون عليها، وكلما كبرت أهمية الموضع المقدس، كان عدد القيّمين عليه أكبر. واختلاف القيّمين يستتبع وظائف مختلفة لهم: على سبيل المثال، كان بعضهم يتولى العرافة، وآخرون القرابين، أما الباقون فمسؤولون عن الأنشطة اليومية. وكانت أماكن العبادة الرسمية الإنكية تتوافر على مجموعة خاصة بها من النساء المُكرّسات، أي ماماكونا mamaconas، اللواتي اخترن من بين النساء المنتخبات. وهؤلاء النسوة يقمن بما تقوم به النساء المنتخبات الأخريات، من صنع التشيتشا chicha والمنسوجات للمعابد، لكن لا

يتاح لهن الزواج أو إعطائهن زوجات لمسؤولين. وكانت تتولى المسؤولية عنهن امرأة من أعلى طبقة النبلاء. ويتضح أن الماماكونا العاملات في معبد معين كن يخدمن آلهة ذلك المعبد المختلفة كلها، ولم يكن مقتصرات على خدمة الشمس.

فضلاً عن مواضع عبادة الإنكا، هناك مواضع مقدسة محلية عدة مرتبطة عادة بالأواكا huacas (التي سبقت مناقشتها). فقد يكون لأواكا معبد أو لا يكون لها حتى بناء، لكن عادة مايتوافر لمعظمها ما يشبه من القيّم عليها. ويقول رو (Rowe (1946: 299 إن هذا القيّم كان في العادة رجلاً مسناً لا يقوى على المساعدة في مهام أخرى. ولم تكن هذه المواضع تحظى بدعم الضريبة الزراعية الإنكية، بل يدعمها الأفراد الذين يقدّسونها.

بالإضافة إلى المختصين بالدين، الذين كانوا يرأسون الممارسات العبادية الإنكية والأواكا، كان هناك معالجون وسحرة. فقد كان المعالجون أفراداً يزعمون أنهم يتصلون بالأرواح وتخبرهم كيف يشفون الأمراض. أما السحرة فيزعمون القدرة على التحدث إلى الأرواح، لذا يُستشارون عندما يجد إنسان ما في نفسه حاجة إلى معلومة، من قبيل تحديد المكان الذي بعثر فيه على شيء كان قد فقده، أو ماذا يحدث في مكان ما بعيد. وكان السحرة يعيشون بين السكان المحليين، وكان هؤلاء يخشونهم كثيراً (رو Rowe 1946: 302–3).

كان السحرة البارعون المقيمون قرب كوزكو يستعملون مجمرات نار صغيرة للتحدث مع الأرواح. وحسب ما يذكر رو (1946) Rowe، فقد كان أولئك السحرة يستعملون أسلوباً في الحديث مع الأرواح يجعلونه يبدو وكأن النار تتحدث إلى الشخص. وكان هؤلاء الأفراد يُستَشارون حصراً في عظائم الأمور، ويحصلون على أجور جيدة لقاء خدماتهم هذه.

الطقوس

كانت الطقوس، بمعنى تطبيق المعتقدات الدينية، مظهراً جوهرياً من مظاهر الحياة بالنسبة للإنكيين. فقد كان أحدهم يقيم طقوساً لئلا تتعرض حياته ورفاه معيشته للخطر، أو ليدرأ الأرواح الشريرة عن نفسه. فإذا أُجريت الطقوس بالنحو الصحيح، فبالإمكان تجنب المصائب.

الأضاحي

تكاد الطقوس جميعها عندهم تجري بتقديم أضاحٍ من نوع ما، ومعظم هذه الأضاحي خنازير غينيا أو لاما، لكنهم يضحون أحياناً بأطفال. وكانوا في الغالب يقدمون للواكالاما أو خنازير غينيا. ويخصون آلهتهم الكبيرة بحيوانات لاما ملونة متميزة يقدمونها أضاحي لها. وكانوا يضحون بالحيوان بذبحه. وكانوا يقدمون أيضاً طعاماً، وتشيتشا، وكوكا، إلى الاواكا كأضاحٍ. وكانوا في العادة يحرقون الطعام والكوكا، فيما كانت التشيتشا تُصَبُ على الأرض (رو Rowe 1946: 306–7). وقماش الكومبي cumbi مادة أُضحية أيضاً، لا سيما للشمس. وتستعمل الأصداف البحرية والذهب والفضة وطحين الذرة، كقرابين أيضاً.

كانت أكبر المراسم شأناً، التي تقام عند الكوارث الطبيعية، والحروب، وتتويج ملوك جدد، تتطلب تقديم أضاحٍ بشرية. وتوحي روايات ينقلها إخباريون أن الأضاحي البشرية كانت تقدَّم عادة في نطاقٍ ضيق، يحضرها شخص واحد أو اثنان، لكن قد يحضرها من زهاء 1,000 إلى 4,000 إنسان(دالتروي D'Altroy 2002: 172). وكانت مراسم كاباك أوتشا Capac Hucha وإيتو Itu من أكثر الطقوس تبجيلاً وتأثيراً، لأنها تتطلب أضحيات بشرية. فالأول ينطوي على فعاليات متصلة بالإيديولوجيا والإمبريالية الإنكية، بينما يجري الثاني خلال أوقات الكوارث مثل ما بعد الزلازل (دالتروي D' Altroy 2002: 172). وكان كثيراً ما يتطلب الاثنان تقديم أضاحٍ أطفالاً تتراوح أعمارهم بين 10 و 15. وكان ينبغي للأطفال، وهم دائماً من غير الإنكيين، أن يكونوا سالمين جسدياً. وتنطوي عملية التضحية بتقديم وليمة للطفل، ولداً كان أم بنتاً، كي لا يمضي إلى فيراكوتشا جائعاً. وبعد الوليمة، يخنقون الطفل، ثم يذبحونه، أو يشقون صدره ليخرجوا قلبه ويقدموه إلى الآلهة وهو لا يزال يخفق (رو Rowe 1946: 306). ويقدَّم الأطفال أحياناً أضاحي إلى جبل يُعدُّ أواكا باصطحابهم إلى قمته، ويسقونهم شراباً حتى يثملوا، ومن ثم يقتلونهم (راينهارد Reinhard 1992: 99–101، 1996، 1999). ووصفت مولينا Molina (1988) طقس كاباك أوتشا كبيراً خاصاً اشتمل على أطفال طافوا بهم في كوزكو قبل تقديمهم أضاحي، ثم أُرسل آخرون إلى الأواكا الكبيرة في أصقاع الإمبراطورية، حيث تمت التضحية بهم.

وكانوا يقدمون في مواضع مقدسة أدنى أهمية أشياء أخرى مثل الذهب والفضة.

قد تبدو ممارسة التضحية بطفل قاسية بالنسبة للقارئ، لكن على المرء أن يتذكر أن التضحية تجري حصراً لأكبر الدواعي الدينية شأناً. وكانوا يقدمون بشراً في مثل هذه الأحداث لأنهم كانوا يعدون البشر أثمن شيء يمكن التضحية به للآلهة. ويحتمل أنهم كانوا يقدمون الأطفال أضحيات، بدلاً من الكبار، لأنهم أكثر نقاء روحياً من البالغين. وعلى الرغم من أنها كانت بلا شك تجربة عاطفية مؤلمة لعائلات الأطفال المضحّى بهم، إلاّ أن اختيارهم كان يعد شرفاً كبيراً للطفل وأسرته على حد سواء.

احتفالات عامة أخرى

كان العديد من الاحتفالات العامة مرتبط بتقاويم ومناسبات خاصة. فقد كانت بعض الاحتفالات تجري على أساس يومي، مثل التضحية بالخشب والطعام والقماش للآلهة إنتي. أما الاحتفالات الأكثر تفصيلاً ـ بما فيها تقديم الأضاحي والرقص والولائم، وربما سرد الأحداث التاريخية المهمة ـ فكانت تعقد خلال أوقات الأزمات، أو عند تتويج ملك أو وفاته، وخلال شهور التقويم المتنوعة.

كانت أكثر الحفلات الشهرية أهمية هي كاباك رايمي Capac Raymi (ديسمبر)، ايموري Aymoray (مايو)، وإنتي رايمي Inti Raymi (يونيو). ويقدّم برنابه كوبو Bernabé Cobo (1990) وصفاً مفصلاً لهذه الاحتفالات وغيرها. إذ كان احتفال كاباك رايمي يجري ببداية موسم الأمطار ويشمل انقلاب الشمس الصيفي، الذي يؤشّر إلى أطول يوم في السنة. وكانت أهم الشعائر التي تقام فيه تتمثل بطقوس بلوغ الذكور (الموصوفة في الفصل 3). وكانت احتفالات الآلهة الأخرى، بخاصة الإنتي، تقام أيضاً خلال هذا الشهر. وتأكيداً لأهمية الطقوس، على سكان كوزكو غير الإنكيين جميعهم مغادرة وسط المدينة على مدى الأسابيع الثلاثة التي تجرى فيها الطقوس. فقد كانوا يمكثون في مناطق خاصة بالقرب من الطرق الرئيسة المؤدية إلى موطنهم الأصلي. وعندما يعودون في نهاية الاحتفالات، كانوا يُعطوْن قطعاً من دقيق الذرة مخلوط بدماء اللاما المضحى بها. وكان يقال لهم إن تلك القطع هدايا من الآلهة إنتي لهم، لكن هذه القطع ستحيط الآلهة علماً إن تكلم أحدهم بسوء عن الآلهة أو الملك. ويعقب أيام عدة من الرقص وشرب

التشيتشا، عودة سكان المقاطعات إلى كوزكو، ويختتم الشهر بإجراء تضحية خاصة في آخر يوم منه. وللاحتفال بنهاية طقوس البلوغ، وبالتالي دخول مجموعة من الفتيان مرحلة الرجولة، تُسلِّم المقاطعات ضريبة الطعام إلى كوزكو في هذا الوقت (رو Rowe 1946: 309).

يقام ايموري في شهر يوافق مايو من التقويم الحديث، احتفالاً بحصاد محصول الذرة. إذ يأتي الناس بالذرة من الحقول، وهم يرقصون ويترنمون بأغان تناشد الذرة ألا تنفد قبل موسم الحصاد القادم. ولا يزالوان يترنمون ويرقصون حتى يتجمع الناس سويةً في المدينة، حيث يضحون بعدد كبير من حيوانات اللاما. وتوزع لحوم اللاما النيئة على الإنكيين جميعاً، صغاراً وكباراً، فيأكلون بعضاً منها مع ذرة محمّصة. ثم يضحون بثلاثين لاما أخرى وتحرق لحومها على كل أواكافي كوزكو، وأكثر أواكا أهمية تتلقى كمية كبيرة من اللحم، فيما تحصل أقلها أهمية على أقل كمية من اللحم.

في وقت لاحق من هذا الشهر، يزيد تقديم قرابين اللاما إلى الآلهة إنتي شكراً على محصول الذرة. ثم يتجمع الناس في حقل مقدس بالقرب من كوزكو، حيث يجلب الفتيان الذين كانوا قد حصلوا على رموز الرجولة في مراسم القبول، أكياساً صغيرة من حصاد الحقل إلى المدينة. بعدها يعود الجميع ويحرثون الحقل كرمز لأهمية حصاد الذرة. وتقام الطقوس لآلهة الذرة، مامازرا mamazara، أيضاً في بيت كل عائلة لضمان توفير ما يكفي من هذه الحبوب.

كان إنتي رايمي، الذي يحتفل به في يونيو ، أكثر مهرجان أهمية يقام للإله الشمس، إنتي Inti. ويقام هذا المهرجان بأكمله على تل بالقرب من كوزكو يسمى «مانتوركالا Manturcalla»، ولا يتاح حضوره إلا للإنكيين الذكور من ذوي الدم الملكي حصراً. ففي اليوم الأول منه، ينحرون 100 لاما بُنّية اللون. وفي الأيام اللاحقة، يضحون بالمزيد من حيوانات اللاما، ليس لإنتي Inti فحسب إنما للإلهين فيراكوتشا Viracocha وإلابا Illapa أيضاً. وكانوا ينحتون تماثيل عديدة ويلبسونها ثياباً من قماش الكومبي cumbi الرائع، ويعمدون إلى حرقها في نهاية المهرجان. ويؤدون رقصة خاصة أربع مرات في اليوم، ويكثرون من شرب التشيتشا. وبعد تقديم الأضحيات إلى مانتوركالا، يتوجّه نصف المشاركين إلى التلال القريبة لتقديم مزيد من الأضاحي، بينما يبقى الآخرون يرقصون.

ويصار إلى دفن تماثيل لاما صغيرة من ذهب وفضة وأصداف بحرية، على التلال الثلاثة القريبة. وتستدعي ذروة المهرجان التضحية بلاما صغيرة خاصة يقدمونها لفيراكوتشا، الذي يأتي أفراد مهمّون بصورة عنه حاملينها على محفّات إلى مانتوركالا. بعد ذلك، يجمعون فحم الأضاحي وعظامها المحترقة ويودعونها في مكان قريب من التل، ويقفلون أجمعهم راجعين إلى كوزكو ليواصلوا الترنم والرقص في ما تبقى من اليوم.

لكل شهر من الشهور الأخرى طقوسه أيضاً، ما يجعل تقويم السنة مترعاً بالفعاليات الاحتفالية (انظر المناقشة اللاحقة). زد على ذلك، كانت هناك مراسم عامة لأحداث خاصة مثل قيام حرب أو وقوع كارثة طبيعية. ومع اختلاف الأحداث عن بعضها، تبقى المراسم هي نفسها. فكما هو الحال مع مراسم القبول، يُرسَل غير النبلاء كلهم بعيداً عن كوزكو، ويحجم سكانها جميعهم عن تناول الملح والفلفل الحار والتشيتشا، ويمتنعون عن ممارسة النشاط الجنسي. ويؤتى برسوم فيراكوتشا، وإنتي، وإلابا، إلى الساحة الرئيسة، جنباً إلى جنب مومياوات الملوك (التي كانوا يعدونها أيضاً آلهة)، ويقدمون الأضاحي ـ بما في ذلك التضحية بأطفال. ثم يرتدي الأولاد تحت سن 20 سنة ملابس خاصة ويطوفون الساحة نحو ثماني مرات، يتبعهم رجل نبيل ناثراً الكوكا على الأرض. ويمضي الأولاد ليلتهم في الساحة يؤدون الصلاة لفيراكوتشا، والشمس، لتخليصهم من المشكلة التي استدعت إقامة المراسم. وعند حلول الصباح، ينهي الجميع صيامهم بوليمة فاخرة ويشربون الكثير من التشيتشا، على مدى يومين (رو Rowe 1946: 311).

مراسم أخرى

فضلاً عن المراسم التي تقام على وفق التقويم ولما فيه خير الإمبراطورية، كانوا يجرون مراسم لأغراض أخرى. وتتوزع هذه الأخيرة على ثلاث فئات عامة: الكهانة، والعلاج، والشعوذة. أما الكهانة فهي محاولة التنبؤ بأحداث المستقبل. وهذا ما كان الإنكيون يمارسونه على نطاق واسع، وهم الذين نادراً ما كانوا يفعلون شيئاً من دون محاولة التكهن مسبقاً بنتيجته.

وكي يقرأ الفرد منهم طالعه، عليه التوجه إلى وسيط روحاني يطلب منه معرفة مسألة ما. ويقال إن الوسيط الروحاني كان يجيب بتعبير لا يفهمه غير كهنة الوسيط أو مصاحبيه.

وفي ما يخص التكهنات الأدنى شأناً، يعمد الكهنة إلى التضحية بحيوان لاما، ويخرجون رئته، وينفخون بأحد أوردته. وتشير علامات انتفاخ الوريد للكاهن ما إذا ستكون العاقبة إيجابية أم سلبية. ويمكن إجراء المراسم نفسها بخنازير غينيا، على أن هذه كانت تستعمل مع التكهنات الأدنى شأناً. بل إن هناك أشكال كهانة أبسط من هذه تتمثل بعدّ مجموعة حصى ومعرفة ما إذا كان العدد زوجياً أو فردياً؛ وشكل آخر يتكون من مضغ نبات الكوكا، ثم بصق عصيره في الكف، وينظر المرء كيف يسير السائل على الأصابع، وشكل آخر يتمثل بحرق شحم لاما أو أوراق كوكا ويتفحص المرء الطريقة التي تحترق بها (رو Rowe 1946: 303–4). ويتضح أن الكهنة المسؤولين عن تأويل هذه العلامات يتوافرون على قدر كبير من التأثير في اتخاذ قرار بشأن ما ستكون عليه الأمور.

يمكن استشارة السحرة في التكهن بالمستقبل من طريق التحدث إلى الأرواح الشريرة. وغالباً ما كانوا يفعلون ذلك بأن يشربوا حتى يثملوا، مما يتيح لهم رؤية الأرواح والتحدث إليها. وكان أفراد يستعملون هذا النوع من الكهانة لدواع شخصية. وكانوا يمارسون السحر لغرض إيقاع مصيبة، أو حتى الموت، بشخص آخر. وكثيراً ما كان يجري بنحو أقرب إلى الشعوذة الحديثة، وذلك بتصوير شكل الشخص المعني وثقبه بأدوات حادة أو حرقه. وكانوا يمارسون وسائل أخرى تتمثل بالحصول على أشياء من جسم الضحية، مثل شعره أو أظافره أو جلده، أو أسنانه ـ وجرحها كوسيلة لإيقاع الأذى نفسه بالضحية. على أن ممارسة السحر كانت ممنوعة. فلم يكن الموت مصير الساحر لوحده إن أُكتِشف أمره، بل إن عائلته كلها ستلقى المصير نفسه.

قد تُفسَّر أحداث غير عادية على أنها نذير خير أو شر، وعادة ما تُحمَل على الأخير. فقد كانوا يعدّون الخسوف والنيازك والشهب أمارة على سوء حظ مؤكد. أما قوس قزح، ونعيب بومة، أو عواء كلب فكانت أيضاً علامات على أشياء سيئة وشيكة الحدوث. وكانت الأحلام بشارات مهمة عن حدوث خير أو نزول شر، على الرغم من أن الشخص هو الذي يتولى تأويل مغزى حلمه، فلم يكن هناك مؤولون متخصصون بالأحلام.

كان الأفراد يقيمون شعائر أخرى تتعلق بالعلاج. فلم يكن الإنكيون يؤمنون بوجود أسباب طبيعية لمرض؛ بل يظنون أن الأمراض كلها تسببها عوامل خارقة للطبيعة. وعليه، كي يتخلص المرء من مرض ما، ينبغي منه استرضاء الروح التي كانت سبباً للمرض. وعادة

ما ينطوي هذا الاسترضاء على تقديم أضحية معينة للروح الغاضبة، أو إلى أواكا معين. وكان هناك معالجون متخصصون بهذا النشاط، تندبهم الأرواح لهذا الأمر. إذ تمنح الأرواح المعالج الطاقة والمعرفة للشفاء.

كانت عملية العلاج تنطوي على مجموعة أنشطة متنوعة أخرى إلى جانب تقديم الأضاحي. إذ كانوا يرون في طائفة مختلفة من النباتات طاقات شفاء. وفي الواقع، أُختبرت بعض من هذه الأعشاب لاستعمالات حديثة، وتجرى حالياً بحوث لتحديد ما إذا كانت لها قيمة تجارية معينة.

كانت الطقوس المتعلقة بالعلاج تعتمد على ما يعتقد أنه سبب المرض. فإذا كان يُعتقد أن المرض سببه تخلّف في إقامة طقوس مناسبة إلى أواكا معين، عندها يُنصَح بإجرائها، مع نفخ مسحوق الذرة وأصداف بحرية باتجاه الاوكا. أما إذا كان يُعتَقد أن المرض ناجم عن جسم غريب في جسم الشخص، يعمد المعالج ببساطة إلى تدليك المريض ومصّ مناطق الألم في الجسم. وعادة ما كان المعالج يُخرِج شيئاً يزعم أنه سبب المرض من قبيل شيء حاد، أو مادة نباتية ما، أو حيوانية (رو Rowe 1946: 313). فإذا تحدد أن سبب المرض شعوذة، ينبغي أن يعالج ساحر المريض. وقد يكون الشخص نفسه أو غيره ما دام ليس هناك تفريق واضح بين العلاج والسحر.

يذكر كل من كوبو Cobo وغوامان بوما Guaman Poma أساليب علاج مفصلة جداً كانت تجرى بخاصة لأمراض خطرة. إذ كانوا يعمدون إلى تنظيف غرفة صغيرة تنظيفاً تاماً؛ وبعد ذلك يفركون جدرانها وأرضيتها بمسحوق ذرة أسود، وكانوا قد حرقوا الذرة فيها؛ ثم يكررون هذه الطريقة مع مسحوق ذرة أبيض. وبعد أن تتطهر الغرفة بهذا النحو، يأتون بالمريض، أو المريضة، ويمددونه على ظهره في وسط الغرفة. وبعدها ينومونه أو يضعونه في حالة من الخَدَر، ربما من طريق تنويم مغناطيسي. ويدّعي المعالج أنه يفتح بطن المريض ويخرج أشياءً غريبة، مثل ضفادع وثعابين، ثم تُحرَق لأنها مسببات المرض.

ثمة ممارسة طبية لدى الإنكيين مثيرة للاهتمام، كانت معروفة عند مجتمعات الأنديز السابقة أيضاً، ألا وهي فتح الجمجمة، أي شق الجمجمة لكشف الدماغ. ولا شك في أن هذه العملية كانت تجرى لإخراج الأرواح الشريرة، لكن هذا كان يشكل خطراً إضافياً جرّاء العمل على مركز الجسم العصبي؛ وتعد مفخرة للمعالجين الإنكيين أن العديد من

هذه العمليات كانت ناجحة لأن الجماجم التي اكتشفت تحمل دليلاً على التئام الشق قبل الوفاة. وتبيّن جماجم أخرى وجود فتحات عدة تشير إلى أن العملية أجريت أكثر من مرة. ويبدو مرجحاً أن المريض كان في حالة سكر أو خدر بفعل مخدرات، لأن من شأن هذه العملية أن تكون مؤلمة جداً.

العلم والتقويم

من غير المؤكد ما إذا كانت علوم الإنكيين أكثر تطوراً من العلوم في مناطق أخرى من عالم القرن السادس عشر. لا شك أن ملاحظات الإنكيين الفلكية وتقاويمهم لم تكن بمستوى دقة جماعات أخرى كالمايا Maya، على سبيل المثال. ومع ذلك، من الواضح أنهم كانوا يفهمون مبادئ علمية ورياضية عدة، بخاصة تلك المطلوبة في مجال الهندسة، لأنهم شيدوا أبنية ضخمة لا تزال قائمة حتى اليوم.

أما بخصوص الرياضيات، فيُعرف من دراسات تناولت الكيبو quipus أن الإنكيين كانوا يستعملون نظام عدّ عشري. كما أنهم أدركوا مفهوم الصفر لأن هناك مكاناً لـ «لا وحدات» في الكيبو. ومع ذلك، ما كانوا يستعملون الكيبو مثل عدّاد[1] لإجراء عمليات جمع أو طرح أو ضرب، بسرعة. لذا كان محاسب الكيبو يستعمل، لهذه الأغراض، حصى أو حبوباً أو حجيرات مماثلة لما في العدّاد (رو Rowe 1946: 326؛ انظر الشكل في الصفحة 50 كمثال عن رقعة العدّ). وما إن ينتهي المحاسب من إجراء عملية الحساب، حتى يسجل الرقم على الكيبو.

كان على الإنكيين استعمال وحدات قياس موحّدة لتخطيط أعمال البناء الكبيرة لديهم. على سبيل المثال، كي يتمكن المهندسون الإنكيون من استدعاء العدد المناسب من عمال الميتا mit'a لمشروع ما، ينبغي أن يتوافر لديهم نظام لتحديد حجم العمل المطلوب. ومع أن الكتاب الإسبان يختلفون في وضع المعادل الإسباني لوحدات القياس الإنكية، إلا أن من غير المؤكد إلى أي مدى كانت تلك المقاييس دقيقة. ويذكر رو Rowe (1946: 323 ودالتروي D'Altroy (2002 : 246—47) أن وحدات الطول كانت تستند إلى أعضاء

(1) إطار فيه صفوف أسلاك أو أخاديد على طولها تنزلق خرزات، تستعمل للعد والحساب. وعادة ما تستعمل لتعليم الأطفال العدّ (م).

جسم الإنسان. فقد كانت هناك وحدات تعدل المسافة الممدودة بين الابهام والسبابة (5–6 إنشات)؛ وراحة اليد (8 انشات)؛ الساعد، أو الذراع (18 انشاً)، طول رجل، أو قامة (64 إنشاً). وكانت هذه الوحدة الأخيرة تستعمل كمقياس ثابت، وكانت هناك عصي بهذا الطول مدّخرة للاستعمال الرسمي. وكانت تدعى أيضاً إستادو estado، كما لوحظ في الاقتباس المأخوذ عن كوبو Cobo بشأن شبكات الطرق (انظر الملاحظة الجانبية الواردة في الفصل الثاني).

كانت لديهم وحدات لقياس المساحة أيضاً، وهنا قياسها هو توبو topo. ويبدو أن التوبو مساحة مستطيلة الشكل تبلغ تقريباً 50 قامة في 25 (300 قدم في 150). وبهذا تشكل هذه المساحة 0,8 فداناً[1]. وكان التوبو يستعمل أيضاً كوحدة مسافة سَيْر، تساوي تقريباً إما 4،5 أميال أو ستة أميال، استناداً إلى المرجع المذكور، كوبو. وكانت أقصر وحدة قياس مسافة قائمة على أساس خطوة رجل متوسط الطول، التي تُحسب بما يقرب من 4 أقدام (والخطوة هي المسافة بين المكان الذي توضع فيه القدم والمكان الذي تُنقَل إليه القدم نفسها مرة أخرى، وهذا يعني نقلتين).

ولقياس كمية من الحبوب، كان الإنكيون يستعملون يقطينة كبيرة تَسعُ 26 كوارتاً[2]. ولم تكن لديهم وحدة قياس ثابتة للوزن، على الرغم من أنهم كانوا يستعملون ما يشبه القسطاس لقياس ما يعدل استيعاب اليقطينة. وكانوا يعدّون الزمن طبقاً للمسافة التي تحركت فيها الشمس في ذلك اليوم، ووقت الساعة طبقاً لموقع الشمس في تلك اللحظة (رو Rowe 1946: 324–25).

كان الإنكيون يقومون بمشاهدات فلكية، لكنها تعنى فقط بالشمس والقمر وبعض الكواكب. وكانوا يعدّون معظم الأجرام الفلكية آلهة، مثلما كان الحال لدى الكثير من الشعوب القديمة. ومن هنا لم تكن دراسة حركاتها مهمة بقدر أهمية تبجيلها. لهذا السبب، يذكر الباحث البارز في الحضارة الإنكية، توم زويدما Tom Zuidema (1982b: 59) أن من المحال فهم الفلك لدى الإنكيين من دون مناقشة علاقته بالتقويم الإنكي

(1) فدّان أو أكر، وحدة لقياس مساحة الأرض يعدل 4,840 ياردة (والياردة مقياس طول يعدل 3 أقدام، أو 0,9144 من المتر) (م).

(2) كوارت quart وحدة لقياس كمية السوائل، تعدل ربع غالون، ويعدلها في نظام المقاييس البريطاني تقريباً 1,13 لتر، وفي المقاييس الأمريكية 0,94 من اللتر (م).

وطقوسه (انظر المناقشة اللاحقة).

يلاحظ إخباريون إسبان وجود أعمدة تنتصب على التلال الواقعة خارج كوزكو، حيث يمكن تعيين الانقلاب الشمسي من أحد الميادين في وسط مدينة كوزكو. على أن هناك اختلافات بين الحسابات من حيث عدد الأعمدة ومواقعها، ولم يتمكن باور وديربورن Bauer and Dearborn (1995) من تحديد أي منها على الأرض. وقد يكون مرد ذلك، كما يلاحظان، إلى أنشطة البناء في المنطقة أو تدمير الإسبان لها بعد الفتح. ويلاحظ أفيني Aveni (1997) وجود كشاف فلكي في كوريكانتشا Coricancha فيه قاعات داخلية ترصد الانقلاب الشمسي في الصيف والشتاء. ويرى كل من ديربورن ووايت Dearborn and White (1982) أن توريون Torreón في ماتشو بيتشو تمتلك محاذاة فلكية مع الانقلاب الشتوي، حيث يُعرف الانقلاب من خلال عنقود عمودي متدل من الشباك يلقي ظلاً يصطف مع أخدود طويل في صخرة موضوعة في وسط الغرفة.

من غير الواضح أية أجرام سماوية وضع الإنكيون بها فعلاً جدولاً. ويرى ديربورن ووايت Dearborn and White (1982) أن الإنكيين وضعوا ملاحظات فلكية عن مجموعة كواكب الثريا من مدينة توريون، على الرغم من أن أفيني Aveni (2001) يشكك بوجود هكذا ملاحظات وبمحاذاة الانقلاب الشمسي. وخير دليل على وجود نقطة لمراقبة الانقلاب الشتوي في ماتشو بيتشو هو كهف إنتيماتشي Intimachay (ديربورن Dearborn، شرايبر Schreiber، ووايت White 1987).

التقاويم الإنكية

كان الإنكيون يستعملون، على ما يبدو، تقويمَيْن مختلفَيْن، واحداً للنهار وآخر لليل (موريس وفون هاغن Morris and von Hagen 1993: 180–83). كان التقويم النهاري قائماً على أساس الدورة الشمسية، وكان طوله تقريباً 365 يوماً. وكان يستعمل للأنشطة الاقتصادية، مثل الزراعة والتعدين والحرب وأعمال البناء. وكانت حركة الشمس ذات أهمية خاصة لتقويم الإنكيين الزراعي، ذلك أنه يستعمل لتحديد الغرس. وكما ذُكر سابقاً، كانوا يتصورون أربعة أبراج في الآفاق شرقي كوزكو وغربها لتحديد موقعي شروق الشمس وغروبها في شهر آب، وهو وقت زراعة الذرة والبطاطا. وكانت زاوية

النظر من أوشنو ushnu في الميدان (البلازا) الرئيس بالمدينة. فعندما كانت الشمس ترتفع على البرج الأول في الأفق الشرقي وتغرب من على البرج المقابل في الأفق الغربي، فهذا يُعيِّن متى ينبغي زراعة المحاصيل في آب. وعندما ترتفع الشمس من بين برجين مبنيين على مقربة من بعضهما في أقصى الجنوب، فهذا يُعيِّن وقت البذار العام في سبتمبر (باور وديربورن Bauer and Dearborn 1995).

كان التقويم الليلي مستنداً إلى الدورة القمرية، التي تتكون من 29,5 يوم بين الأهلّة. وهذا ما يجعل العام، يتكون من 345 يوماً حسب، ومن شأن هذا أن يبعد التقويمَيْن النهاري والليلي عن التزامن في ما بينهما. ويلاحظ كل من باور وديربورن Bauer and Dearborn (1995: 61—62) أن إخباريين يذكرون أن الإنكيين حلّوا هذة المشكلة باستعمال تقويم قمري مدته 30 يوماً، ما يُدخِل تعديلات على كل شهر للإبقاء على التقويمَيْن متزامنين.

ويسعى باور وديربورن Bauer and Dearborn (1995: 55—56) أيضاً إلى البرهنة على أن الإنكيين توافروا على فئة متخصصين تعلموا ممارسة الرصد السماوي. وتسوّغ روايات إخباريين وبعض من أدق ما رواه المدوّنون، كما لوحظ سابقاً، وجود مثل هكذا مجموعة. أما مَنْ كان هؤلاء الناس وما هي طبيعة مقامهم فهذا أمر غير معروف.

ثمة مشكلة واضحة متعلقة بربط التقويم النهاري، المستند إلى الشمس، بالتقويم الليلي، المستند إلى القمر. إذ أن التقويم الأخير أقصر بمدة 11 يوماً عن التقويم الأول. ويشير باور وديربورن Bauer and Dearborn (1995: 62) ألى أن الإنكيين كانوا يستعملون شهراً أمده 30 يوماً ويدرجون أياماً إضافية متى ما اقتضى الأمر للحفاظ على التقويم متزامناً مع الدورات الشمسية. وهذا لا يوحي بأن الإنكيين كانوا في حاجة إلى وسائل معينة ليحددوا بدقة الانقلابات الشمسية كي يتسنى لهم الإبقاء على تقويمَيْهم منسجميْن.

ما هو واضح عن تقويميْ الإنكيين الاثنين أنهما يستعملان لتحديد وقت إقامة المراسم المهمة، وليس مجرد تحديد الوقت. وهذا يتصل بمعتقدات الإنكيين في أن لا شيء يحدث هكذا عَرَضاً، إنما وراؤه دوماً قوة خارقة للطبيعة (انظر المادة السابقة الخاصة بالديانة). ويورد الجدول آتي الذكر الأنشطة الزراعية والمراسم المهمة في التقويم النهاري، مشيراً إلى الشهور بتسمياتها الحديثة أينما وردت (جُمِع من دالتروي D' Altroy 2002:152—53؛ وكيندال Kendall 1973: 149—50، 198—200؛ وراجع مادة «الديانة» للاطلاع على

وصف لأبرز المراسم). وكما مرّ تواً، لم يتمكن الإنكيون من ضم مدتيْن زمنيتيْن متساويتيْن مع بعضهما إلى كل شهر؛ بل انهم كانوا يسجلون مرور السنة بالأنشطة والمراسم التي تقتضيها عبادتهم في أوقات مختلفة، والتي قد ترتبط في العادة بدورة الشمس. لذلك فإن ربط التقاويم الإنكية بالتقويم الحديث هو من أجل اعطاء فكرة تقريبية ليس إلاّ.

التقويم النهاري (من اليوم الأول)	التقويم الليلي
يناير (23 ديسمبر). زراعة الكوكا.	كاباك ريمي Capac Raymi . كانت احتفالات بلوغ الأولاد جزءاً مهما من كاباك ريمي، كما كانت مهمة الطقوس الأخرى المتعلقة بالشمس، ويؤتى في هذا الوقت أيضاً بالجزية للدولة الإنكية وطبقة رجال ديانتها إلى كوزكو من المقاطعات.
فبراير (22 يناير). تنظيف الحقول من الأعشاب الضارة.	كاماي كيللا Camay quilla. تستكمل احتفالات بعض مراسم البلوغ المتبقية من الشهر السابق، إلى جانب مراسم أخرى تقام لفيراكوتشي، أكبر الآلهة.
مارس (21 فبراير). جني محصول البطاطا ومحاصيل درنية أخرى.	هاتون بوكوي Hatun-pucuy. إقامة مراسم لزيادة الذرة ومحاصيل أخرى.
أبريل (23 مارس)	باتشا- بوكوي Pacha-pucuy. إقامة المزيد من الطقوس لضمان نضوج المحاصيل بنحو حسن.
مايو (22 أبريل). حماية حقول الذرة من الغزلان والثعالب، واللصوص.	أيريهوا Ayrihua. مراسم توقير الملك الانكي وإقامة الاحتفال بحصاد محصول الذرة.
يونيو (23 مايو). جني الذرة.	أيموراي كيللا Aymoray quilla. احتفالات ببدء الحرث.
يوليو (23 يونيو). جني كميات كبيرة من البطاطا ومزروعات أخرى.	إنتي رايمي Inti Raymi. إقامة طقوس مهمة للشمس.
أغسطس (23 يوليو). خزن البطاطا ومحاصيل أخرى؛ تنظيف قنوات الري.	تشاوا - أواركويذ Chahua-huarquiz. إقامة احتفالات لنظم الري.
سبتمبر (23 أغسطس). زراعة محصولي الذرة والبطاطا.	ياباكويذ Yapaquiz. تقديم أضاحٍ إلى الآلهة جميعاً، لاسيما تلك المتصلة بقوى الطبيعة.

أكتوبر (23 سبتمبر).	كويا رايمي Coya Raymi. تطهير مدينة كوزكو، ويؤتي بالأوثان المقدسة لدى الشعوب المستعمرة ليقدموا الولاء للملك.
نوفمبر (22 أكتوبر)	كانتاراي K'antaray. إقامة احتفالات لضمان هطول مطر كاف.
ديسمبر (22 نوفمبر). سقي حقول الذرة.	إيماركا Aymarca. إقامة مهرجان الموتى، وإخراج جثث الملوك الموتى من قبورهم ليتلقوا القرابين والطعام.

كان التقويم الليلي يركز كثيراً، كما يلاحظ من الجدول، على الاحتفالات غير الزراعية، هذا على أن بعض الشهور كانت تشهد طقوساً تحتفل ببعض المحاصيل أو تراها تتصل بأنشطة من قبيل الري. وتتبدى أهمية الذرة لدى الإنكيين من خلال شأن شهريْ مايو ويونيو، في كلا التقويميْن، اللذيْن يشهدان احتفالاً بحصادها. أما التقويم الليلي، المستند إلى دورات القمر، فكان مهماً في تحديد وقت الطقوس. إذ يبدأ الإنكيون تقويمهم في شهر ديسمبر بمهرجان كاباك رايمي Capac Raymi (كوبو Cobo 1990:126).

لم تكن معظم جماعات ما قبل الإنكيين في حاجة كبيرة إلى وحدات قياس ثابتة، ولربما لم تتوافر لديهم مثل تلك الوحدات. ومن المرجح أن الكثير من الشعوب المفتوحة انتبهت لحركات الشمس والقمر والنجوم، وعيّنت مرور الزمن من خلالها، كما فعل الإنكيون. ويلاحظ بور وديربورن (1995) Bauer and Dearborn أن جماعات اجتماعية كثيرة كانت تضم متخصصين يتولون رعاية مثل هكذا ملاحظات فلكية. أما هل كانت عندهم تقاويم مفصّلة، فهذا شيء غير معروف.

إقامة صلة بما مضى

1. العلم والدين شيء واحد أساساً لدى الإنكيين. فهل ترانا نفصل تماماً بين الاثنين في ثقافتنا؟

2. كانت في كوريكانتشا Coricancha حديقة تتكون من نباتات مصنوعة من ذهب وفضة. حاول باستخدامك القصدير (كبديل عن الفضة)، أن تصنع أنموذجاً دقيقاً لنبتة معينة؟

3. كيف يختلف تقويم الإنكيين عن تقويمنا الحالي؟

الفصل الخامس

ماتشو بيتشو:
بلدة إنكية قديمة متلفعة بالسحاب

ماتشو بيتشو Machu Picchu. هذا الاسم يستحضر رؤى عن جدران حجرية قديمة مبنية من صخور موضوعة بإحكام على طول سلسلة رواب يغمرها الضباب فوق نهر أوروبامبا Urubamba. وهذه الصورة دقيقة، وإن كانت تتناسب بنحو كبير مع مناخ الصيف، وقتما تكون الظروف ملائمة. وهذا الموقع أحد أكثر المواقع الأثرية إثارة للإعجاب في العالم، لذا فهو ليس موقعاً أركيولوجياً تراثياً عالمياً فحسب، بل سُمي أحد عجائب العالم السبع الجديدة في العالم في 2007.

جزء من سبب الاهتمام بماتشو بيتشو هو موقعها الجغرافي المثير، بيد أن الجزء الآخر هو الغموض الذي يكتنف غرض الإنكيين من ورائها. فعلى خلاف غيرها من المواقع، مثل وأنوكو بامباHuánuco Pampa أو تومبامبا Tomebamba في الإكوادور، لا تتوافر وثائق إسبانية تشير إلى هذا الموقع، ويبدو أن الإسبان الأوائل لم يعرفوه قطّ. فقد أهملت ماتشو بيتشو وهجرت كنتيجة للفتح الإسباني، لتغطيها الغابات التي نمت على مدى 350 سنة اللاحقة. ففي حين كان المزارعون المحليون على دراية بالتأكيد ببقاياها، إلا أنها بقيت ضائعة على باقي أهل العالم الحديث حتى العام 1911(i). ففي 24 يوليو من ذلك العام، قاد هيرام بينغهام الثالث Hiram Bingham III، وهو أستاذ تاريخ ومستكشف في جامعة ييل، بعثة في محاولة للعثور على فيلكاباما Vilcabama، آخر مدن الإنكيين. وكان يرافقه في بعثته ضابط في الجيش البيروفي وسائس بغال محلي اسمه ميلتشور أرتيغا Melchor Arteaga، فأخبره هذا الأخير بينغهام عن الموقع، فتسلق بينغهام التل التي يقع فيها وعثر على أطلال المدينة (بينغهام Bingham 1913). ورجع إليها في 1912 ثم في 1914–1915 لدراسة الأطلال بمزيد من التفصيل (بينغهام Bingham 1948،1930).

تقع ماتشو بيتشو في نهاية سلسلة جبلية طويلة تنحدر من جبل سالكانتي Salcantay، وهو أحد أعلى قمتيْن في المنطقة، وأحد أكبر الجبال قداسة لدى السكان المحليين في يومنا

هذا. يقوم الموقع على مرتفع بين قمتيْن عاليتيْن على طول هذه المرتفعات، ماتشو بيتشو إلى الجنوب وويانا بيتشو Huayna Picchu إلى الشمال. ويشق نهر أوروبامبا Urubamba طريقه ملتوياً كثعبان حول موقع من ثلاثة جوانب. وتقع هذه المستوطنة على ارتفاع 8،000 قدم فوق مستوى سطح البحر وفي منطقة غابات جبال عالية، أو سيخا ديه لا مونتانيا[1] Ceja de la montaña. لذا فإن القمم العالية المحيطة بالموقع توهم أنه على علوٍ شاهق، في حين أنه في الواقع أدنى بـ 2,000 قدم من كوزكو، عاصمة الإنكيين، ما يجعلها مكاناً أشدّ حرارة ورطوبة.

لن يتاح لنا مطلقاً أن نعرف بالضبط لماذا بُنيت ماتشو بيتشو في مكانها ذاك. إذ تشير دراسات جيولوجية إلى أن أحد الأسباب يتمثل بوجود نبع دائم يمكن أن يوفر الماء الكافي لسكان الموقع (رايت وفالنسيا زيغارا Wright and Valencia Zegarra 2000). ثم أنها منطقة تربتها جيدة وتسقط فيها الأمطار بمستويات جيدة. وقد رأى يوهان راينهارد Johan Reinhard (2007) سبباً آخر لإقامة هذا الموقع في هذا المكان يتمثل في أهيمته الكونية لدى الإنكيين. ذلك أن قمتيْن لهما شأن لديهم تتكللان بالثلوج، هما فيرونيكا Verónica وسالكانتي Salcantay، تقعان بالقرب من الموقع، ويعدّان إلى اليوم آبويْن apus جباريْن، أي أرباب الجبال. كذلك هناك موجّهات فلكية مهمة في أماكن في الموقع (انظر الفصل الرابع). زد على ذلك، كان لدى باتشاكوتي Pachacuti، ملك الإنكا الذي أمر بتشييد الموقع، أسلوب خاص يمكن تمييزه في الموقع (نايلز Niles 2004: 62–64). لذا من الواضح أنه قد اجتمعت أسباب جغرافية وكونية ودينية لاختيار مكان الموقع.

لماذا بُنيت ماتشو بيتشو؟

لاحظ بينغام Bingham في كتابات له عن ماتشو بيتشو أنها ربما كانت فيلكابامبا Vilcabama، ملاذ الإنكيين الأخير، وتامبو ـ توكو Tampu–tocco، المكان الأصلي الذي تحدّر منه الإنكيون، بل حتى إنه ملجأ للأكلاكونا acllacona ما دام التحليل الأصلي لمواد عظمية قد أشار إلى وجود نسبة كبيرة من هياكل عظمية تعود لإناث مقارنة بالذكور في الموقع (إيتون Eaton 1916). ولا تزال هذه القصص تروى على الرغم من بروز أدلة من

(1) أي «حاجب (عين) الجبل» (م).

بحوث أجريت مؤخراً في الموقع تقول العكس.

في ملخصها عن عمل بارع نشر حديثاً عن ماتشو بيتشو، تشير لوسي سالازار (2004: 26) Lucy Salazar إلى أن جميع الدلائل الحالية، إثنوتاريخية وأركيولوجية، توحي بأنها كانت مِلكية ملكية، مستوطنة إنكية من نوع فريد. وتلاحظ أن جون رو (1987) John Rowe قد حدّد ماتشو بيتشو بوصفها حيازة ملكية تعود لباتشاكوتي Pachacuti في وثيقة إسبانية مكتوبة في العام 1568، أي بعد مضي 36 عاماً فقط على الغزو الإسباني. تذكر هذه الوثيقة منطقة تدعى «بيتشوPicchu» تحاذي نهر أوروبامبا على أنها أرض تعود لباناكا panaca باتشاكوتي. فلأن هذا الملك كان قد غزا هذه المنطقة، فمن المنطقي أنه أخذ أرضها وصيّرها دار استراحة ليحيي ذكرى انتصاراته في هذه المنطقة.

كانت العقارات الملكية مِلكاً لملوك الإنكا وباناكاهمpanacas . فعندما كان أحد ملوكهم يغزو منطقة جديدة، يعمد إلى فرز مساحات معينة ويجعلها لمثل هذه العقارات. وكانت العقارات تستعمل لأغراض مختلفة، لكن معظمها تستعمل كدور استراحة واستجمام للعائلة المالكة هرباً من ضغط العاصمة كوزكو. والحقيقة أن العديد من هذه العقارات يقع في وادي أوروبامبا، ومن المرجح أن السبب في ذلك يعود إلى أنها أوطأ مستوى وأكثر دفئاً، على أن ذلك أيضاً نتيجة وجود الكثير من الأراضي بالقرب من كوزكو، قد وضع الملوك الأوائل عليها أيديهم وعمروها (نايلز 2004 Niles: 52).

في المستوى الأركيولوجي، تدعم الأدلة المأخوذة من الموقع هذا الاستنتاج أيضاً. وكما سيناقش في وقت لاحق، فإن وجود عمال البناء الممتازين، وانتشار المصاطب حيث يمكن زراعة محاصيل، ووجود المباني المتنوعة، والفخاريات، كل ذلك يؤيد الفكرة القائلة إن هذا الموقع قد بُني بأوامر من باتشاكوتي Pachacuti (سالازار 2004 Salazar: 26–27).

كيف كان باتشاكوتي يستعمل عقاره هذا في ماتشو بيتشو؟ إن الغرض الرئيس من وراء حيازة عقار، كما لاحظت سوزان نايلز (2004) Susan Niles، كان يتمثل في إعالة الملك وباناكاه بما يليق بالمستوى الملكي وهم في مكان بعيد عن كوزكو. وهذا الأمر يتطلب عدداً كبيراً من الخدم، ويسمونهم ياناكونا yanaconas، الذين يقدمون الخدمات الأساسية للعائلة المالكة. كما كانوا يستقدمون حرفيين متخصصين، كامايوك camayocs كما كانوا يسمونهم، ليوفروا للعائلة المالكة من القماش أجوده، والمجوهرات، وغيرها

من السلع. وكان هؤلاء الخدم والحرفيون يعكسون تركيبة الإمبراطورية، وكان الملوك يستقدمون أفراداً من الإثنيات المفتوحة ليخدموا في هذه الأغراض (نايلز Niles 2004: 57). وتشير المعلومات المستقاة من مدافن في ماتشو بيتشو إلى صحة هذا الأمر (انظر المناقشة المذكورة في وقت لاحق).

كانت العقارات الملكية تستعمل كأماكن للاسترخاء والعمل على حد سواء. أما أنها تستعمل للاسترخاء، فذلك لأن بعض العقارات يحتوي على حدائق، وكانوا يزاولون الصيد في منطقة الغابات المحيطة بمباني العقارات الرئيسة. وبوسعنا أن نتصور إقامة حفلات موسيقى ورقص فيها بوصفها جزءاً من الأنشطة الملكية، وإقامة ولائم للعائلات التي تحل ضيفا عليهم، والشخصيات البارزة، وكان هذا أمراً مهماً لديهم. وأما أن العقارات كانت أماكن عمل، فلأنها كانت تشهد لقاءات بمسؤولين من الدولة وزوّار أجانب على حد سواء. ولعله كان من الضروري إجراء طقوس مهمة في التقويم الإنكي هناك بينما الأسرة في زيارة أيضاً.

كي يمكن استعمال العقارات لوظائف من هذا القبيل، كان ينبغي أن تضم مساحات واسعة من الأراضي الزراعية والمرافق السكنية المخصصة بالملك، وأهله وأقاربه، وزواره، وما يعيل سكان هذه المستوطنة. وكان مطلوباً توافر مبان مخصصة للقاء الزوار، وورش العمل، ومخازن الغذاء والحرفيات. وكانت هناك حاجة لوجود حظائر لحيوانات اللاما والالباكا. ولأن الدين كان بتلك الأهمية في الحياة اليومية مثلما هو من الأنشطة الملكية، فقد كانت مباني الطقوس لها اعتبار مهم في العقار أيضاً.

تجدر ملاحظة أن ماتشو بيتشو ربما لم تكن مأهولة على مدار السنة، باستثناء عدد قليل من الأفراد دائمي الإقامة فيها، من الذين يحافظون على الممتلكات ويزرعون المحاصيل. وترجّح سالازار Salazar (2004: 27) أن العائلة المالكة كانت تشغل هذا الموقع خلال فصل الشتاء، ما دام المناخ في ماتشو بيتشو أكثر دفئاً منه في كوزكو. ولعل عدد سكان الموقع في هذا الوقت قد ارتفع إلى ما لا يقل عن 750 شخصاً، من بينهم العديد من الخدم والحرفيين المتخصصين، كما عرفنا من الأعمال الأركيولوجية.

تعكس أجزاء الموقع المختلفة هذه الوظائف، التي تُجرى فيها. ويمكن للمرء أن يرى، على خريطة الموقع، المصاطب الزراعية المنتشرة، التي تقع على الجانب الجنوبي من الموقع،

ملاحظات الخريطة:

1. قطاع توريون.
2. مدرج النافورات.
3. معبد النوافذ الثلاث.
4. أنتيواتانا.
5. البلازا (الميدان) الرئيس.
6. قطاع الأبواب الثلاثة.
7. قطاع الملاط.
8. قطاع السجون.
9. قطاع الشعب.
10. المصاطب الجنوبية الزراعية.
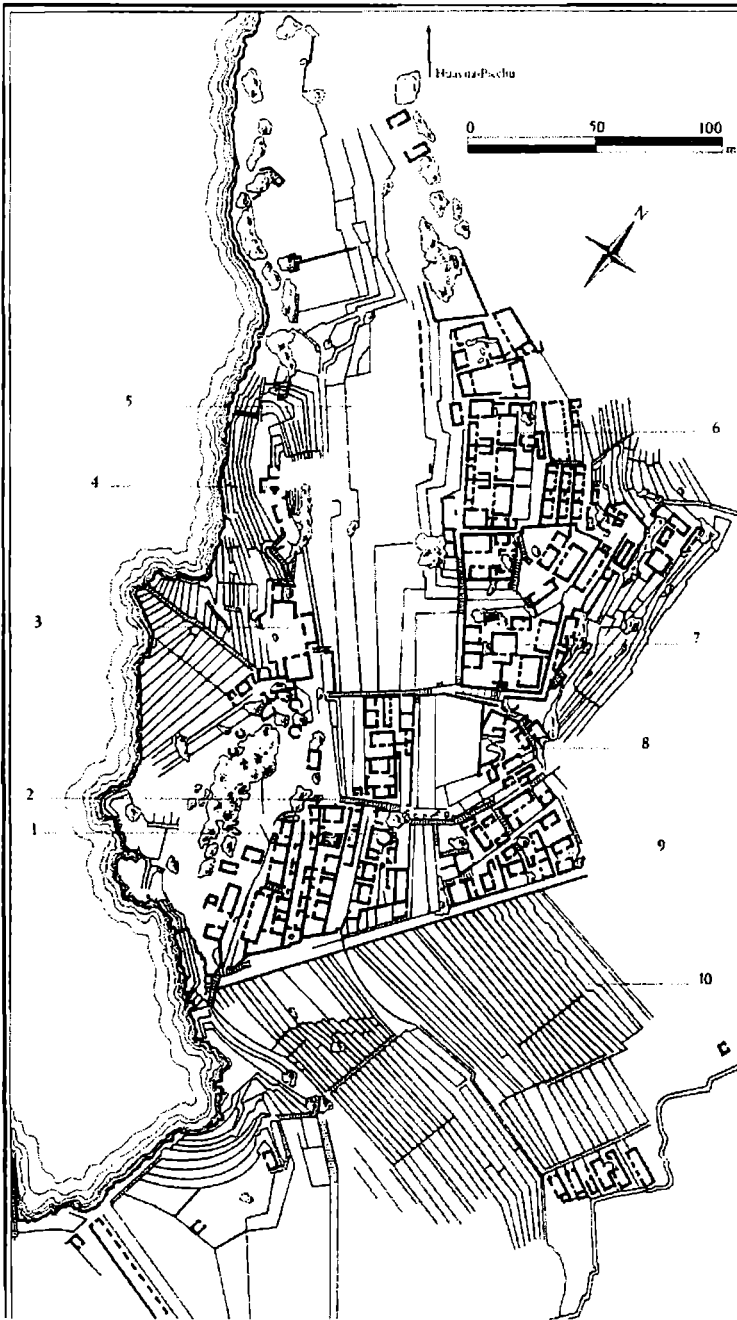
خريطة ماتشو بيتشو Machu Picchu، وفيها إشارت مهمة. الخريطة الأصلية رسمها سيزر داتينا Cesare Dattena، مأخوذة عن «عالم الإنكا. تطور البيرو في عهد ما قبل كولومبس، 1000–1534 ب. م» The Inca World. The Development of Pre-Columbian Pern, A.D. 1000–1534». تحرير: لورا لورينتشيك مينيللي. حقوق الطبعة الإنكليزية في العام 2000 لمطبعة جامعة أوكلاهوما، نورمان أوكلاهوما. نُشرت بترتيب خاص مع هيئة تحرير «كتب جاكا،» ميلانو، إيطاليا.

وكذلك قطاع الجانب الغربي، على منحدر حاد للغاية. وقد حددت أبحاث حديثة جرت على طول الجانب الشرقي من الموقع، تحت مبان رئيسة، وجود المزيد من المصاطب. وعلى الرغم من وجود عدد كبير من المصاطب الزراعية، ترى دراسات أجريت على كميات الذرة والبطاطا، التي يمكن زراعتها في هذه المصاطب، أن 55 شخصاً فقط يمكن أن يفيدوا منها (رايت وفالنسيا زيغارا Wright and Valencia Zegarra 2000: 58)، ما يشير إلى أن كميات كبيرة من المواد الغذائية كانت تُنقَل إلى المركز وقت وجود العائلة المالكة وضيوفها في هذا المكان. ومن المثير للاهتمام أن الأشخاص الخمسة وخمسين، الذين يمكن أن يعتمدوا في معاشهم على المصاطب، ربما هم شاغلو العقار الدائمين.

كانوا يأتون بالماء إلى الموقع ليس من أجل الزراعة، بل للشرب والاغتسال، إذ تسقط في هذه المنطقة أمطار تكفي لتلبية الاحتياجات الزراعية (رايت وفالنسيا زيغارا Wright and Valencia Zegarra 2000). وتأتي إمدادات الماء الرئيسة من نبع يقع على بعد ما يزيد عن 727 متراً إلى الجنوب من العقار الرئيس، ويوفر هذا النبع ما يكفي من ماء لسد احتياجات السكان على مدى معظم أوقات العام. وخلال موسم الجفاف، وفترات الظمأ، يعمد
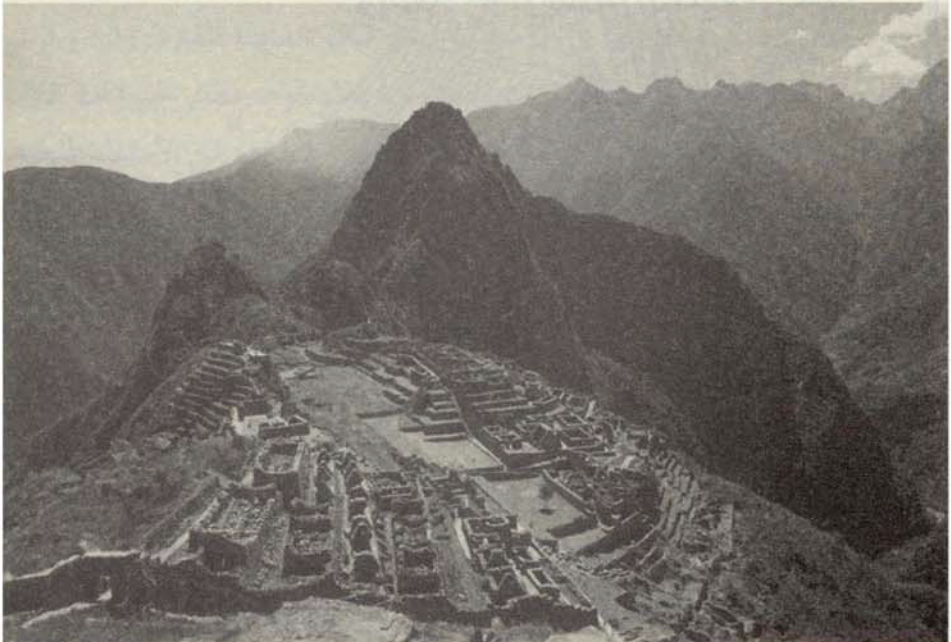
مشهد لماتشو بيتشو من الجنوب

الخدم، كما يحتمل، إلى جلب الماء من نهر أوروبامبا. وينقل الماء بقناة مبنية بناء جيداً وراء المدرجات الزراعية، عبر قناة مائية، ومن ثم إلى سلسلة من نافورات (وهذه في الواقع أشبه بأنابيب يسقط الماء منها في حوض تحتها) تنزل على طول الدرج الرئيس بين توريون Torreón، أو معبد الشمس، ومقر إقامة الملك. وليس من قبيل الصدفة أن تكون النافورة الأولى متاخمة لمدخل مقر إقامة الملك، إذ أن هذا يمكنه من الحصول على أول ماء يأتي من النبع (رايت وفالنسيا زيغارا Wright and Valencia Zegarra 2000).

يمكن التعرف بسهولة إلى أجزاء مهمة من الموقع من طريق سمات معمارية مختلفة(ii). فأبواب المداخل مزدوجة العضادة، وأخرى مجوفة العضادة داخلها عضادة أخرى، تشير إلى أهمية المباني، كما هو الحال مع براعة البناء وسماته الخاصة. أما الفصل المكاني فيها فهو طريقة أخرى لتحديد أهمية المبنى. فبهذا النحو، يمكن رؤية أهمية قطاعات البلازا، الميدان، المقدس والأنتيواتانا Intihuatana، التي تقوم على الجانب الغربي من الموقع. وتتحدد وظائفها الطقسية بفصلها عن أماكن المعيشة، والدعامات الصخرية الخاصة والمباني، ومن عدم وجود حطام منازل هناك. وبالمثل، لمقر الإقامة الملكي بابان لتحديد الدخول إليه، والأعمال الحجرية أفضل مستوى بكثير، وهناك حجارة كبيرة على عتبتيْ البابين. كما أنها البناية الوحيدة في الموقع كله، التي تضم حديقة خاصة ومرحاضاً (سالازار Salazar 2004: 31–32).

الجزء الشمالي الشرقي من هذا العقار، المطل على الميدان الرئيس، معروف الآن بكونه منطقة مساكن النخبة، وربما لأفراد آخرين من باناكا panaca الملك. فهناك ثلاثة مجمعات رئيسة، يرجح أن كل منها كان مسكناً لأسر قريبة. وللمواضع المقدسة حضور في المجمعات كلها، ربما لمزاولة الاشخاص عباداتهم لآلهة معينين. فضلاً عن ذلك، هناك مبان صغيرة رديئة البناء متجاورة تقع خارج المجمع، يرجح أنها كانت تؤوي خدم النخبة (سالازار Salazar 2004: 29).

يعتقد أن ما يزيد عن 30 مبنى من المرافق البالغ عددها 127 مبنى في الموقع لها وظائف دينية، لأنها تعكس الأنشطة الاحتفالية في الموقع (سالازار Salazar 2007). ويقع توريون Torreón، أي معبد الشمس، في الجزء الجنوبي من الموقع وبالقرب من مقر إقامة الملك فوق كهف صغير. وكما سبق أن ذكر في الفصل الرابع، تجد خطوط المحاذاة الفلكية

بادية في هذا المبنى. ويبرهن الشكل نصف الدائري على أنه رمز عن قوس قزح، الذي هو إله ذو شأن لدى الإنكيين (سالازار Salazar 2004: 37). فتماثل توريون، وهو مرصد لمراقبة السماء، مع كهف تحته يمثل موطن الأجداد والماء، يعكس المظاهر الرئيسة في ديانة الإنكا.

يصل المرء، بعد مقر الإقامة الملكي وإلى الغرب منه، إلى الميدان المقدس، الذي يشتمل على ما يسمى بالمعبد الرئيس ومعبد النوافذ الثلاث. ويلفت المعبد الرئيس الناظر لضخامة حجم الكتل التي استعملت في بنائه والمذبح المهيب في وسط جوانبه الثلاثة. أما معبد النوافذ الثلاث فمشهده استثنائي من ماتشو بيتشو والجبال في الجهة المقابلة له من نهر أوروبامبا.

عندما يرتقي المرء سُلّماً مشيداً بعناية فائقة إلى الشمال، يصل إلى إنتواتانا Intihuatana، «المكان الذي تُربط فيه الشمس؛ الصخرة المستطيلة». وكانت وظائف هذه الصخرة موضع تكهنات كثيرة. والتفسير الأكثر شيوعاً من بينها هو أنها لا تلقي بظلالها في منتصف نهار الانقلاب الصيفي. بيد أن الدراسات التي أجراها أركيوفلكيون[1] تذهب إلى غير ذلك. فكما سيناقش لاحقاً، قد تعني هذه الصخرة ترميزاً عن الجبال، التي يمكن رؤيتها في ما وراء الصخرة وتظهر ظلالها مكررة على الصخرة.

وبالحديث عن الصخور، هناك العديد منها متناثر حول الموقع يحمل دليلاً على نحت مدروس. ويرجح أن هذه الصخور كانت أواكا huacas ولها دلالة دينية للناس الذين كانوا في الموقع، لكن ليس بالضرورة للملك وأسرته. على أن بعضاً منها كانت كبيرة بنحو ملحوظ ووضعت في مكان بارز للإيحاء بأنها مكتنفة على محتوى مقدس بالنسبة للإنكيين؛ والانتياواتانا Intihuatana إحداها، كذلك المذبح في المعبد الرئيس والصخرة الكبيرة داخل توريون. ثمة صخرة أخرى تقع في الطرف الشمالي من الميدان الرئيس، تسمى «الصخرة المقدسة» بسبب موقعها ومكانها على منصة بنيت لها خصيصاً. ويلاحظ أكثر الناظرين أن شكلها يشبه شكل الجبل الخارجي الذي يقع وراءها، على أن التماثل ليس دقيقاً. ويلاحظ آخرون أن المشهد من الجانب المقابل للصخرة المقدسة

---

(1) Archaeoastronomers، والأركيوفلك Archaeoastronomy (وتكتب أيضاً archeoastronomy) حقل يعنى بدراسة كيفية فهم الماضين الظواهر السماوية، وكيف استعملوها، وما هو دور السماء في ثقافاتهم (م).

يعكس صورة جبال بوماسيلو Pumasillo، التي في الغرب. ولعل جزءاً من قدسية الصخرة يتصل بشبهها الجبال في كلا الاتجاهين، ما دام معروفاً أن الجبال كانت آلهة مبجلة لدى الإنكيين (راينهارد Reinhard 2007: 73). ويلاحظ المؤلِّف أن المشهد من كل من شمال إنتيواتانا Intihuatana وجنوبها مرآة لمشهد جبال ويانا بيتشو Huayna Picchu وماتشو بيتشو، على التوالي.

ويتكون معبد النسر، الذي يقع على الجانب الشرقي من الموقع أسفل مساكن النخبة، من مجموعة معقدة من غرف تحتها كهوف. ويستمد اسمه من صخرة منحوتة على شكل رأس نسر. وغرض هذا المبنى لإقامة مراسم جنائزية وطقوس على حد سواء، لذا قد يشبه توريون في وظائفه السماوية والأرضية المهمة.

أما المعبد الأخير، الذي اكتشف حديثاً، فهو معبد القمر، الواقع على طول المنحدر الشمالي الأدنى من واينا بيتشوHuayna Picchu، على بعد نحو مسير ساعة عن الجزء الرئيس من الموقع. وهذا المعبد داخل كهف، وأطلق عليه المعاصرون هذه التسمية قاصدين به أن داخله يضاء خلال اكتمال القمر (راينهارد Reinhard 2007: 82). أما هل كان هذا هو غرض الإنكيين فهذا أمر غير مؤكد. ويذكر راينهارد Reinhard أن هذا الكهف متجه أيضاً إلى الجبال التي عبر النهر، لذا قد يكون نقطة مراقبة الانقلاب الشتوي.

لقد لاحظ راينهارد Reinhard (2007)، وهو مستكشف ومتسلق مرتفعات عالية، أن في ماتشو بيتشو، على العموم، العديد من نقاط المراقبة يمكن منها رؤية أعلى جبال المنطقة، أو السلاسل الجبلية النازلة منها. ويرى، ورأيه هذا معقول، أن ما دام الإنكيون يتعبدون الجبل وآلهة سماوية، فتوجهات المَراقِب الفلكية وغيرها إلى الجبال تعكس أهمية تلك الآلهة. وفي حين أننا لا نعرف ما الطقوس التي كانت تقام في هذه المعابد، أو إلى أية آلهة كانت مكرسة، إلاّ أنها تبعث دائماً برسالة قوية عن أهمية الدين لدى الإنكيين.

ثمة مبنى آخر في الموقع يجدر ذكره ألا وهو كالانكا callanca الذي يقع في أقصى الجنوب الغربي من الموقع، بمحاذاة الطريق الرئيس القادم من كوزكو، الذي قد يكون بمثابة بيت ضيافة للنبلاء الزوار. ومن شأن هذا أن يفصل الإنكيين عن غيرهم جسدياً ورمزياً. وهناك سلسلة من الغرف على طول الجانب الجنوبي الغربي من المستوطنة، مجاورة للبوابة الرئيسة، من المرجح أنها كانت تتلقى مواداً غذائية وبضائع أخرى تأتي من كوزكو على

ظهور اللاما وتخزن فيها. وقد تكون في هذا الجزء من الموقع حظائر. ويقع مَحْجَر الموقع بجوار هذه المنطقة، بينها والميدان المقدس.

يربط سُلَّم النافورات جُزئيْ الموقع الغربي والشرقي. وسُمّي بهذا الاسم لأن 16 نافورة تَحِفُّ به. ولعل الميدان الرئيس في ماتشو بيتشو كان يستعمل لجمع الناس فيه لغايات احتفالية واجتماعية على حد سواء. وليس مؤكداً ما إذا كانت هناك أية دلالة في اختلاف مستويات الميادين. وعُثِرَ على مقابر للخدم المقيمين في ماتشو بيتشو تحت المباني الرئيسة على الجانب الشرقي من المستوطنة.

أخيراً، تجدر الإشارة إلى أن أوينا بيتشو Huayna Picchu، القمة الشاهقة الواقعة في الطرف الشمالي من الموقع، لابد من أن لها وظائف طقسية ما دامت على قمتها مبان وإطلالات على الجبلين الرئيسين، سالكانتيSalcantay وفيرونيكاVeronica . وترتبط القمة بالموقع الأدنى من طريق سُلَّم مبني بناءً حسناً.

وكتعليق ختامي على تصميم الموقع بعمومه، أجرى مهندس مدني، كينيث رايت Kenneth Wright، دراسة منهجية لسمات البناء (رايت وفالنسيا زيغارا Wright and Valencia Zegarra 2000). فلاحظ أن الإنكيين شيدوا 172 مبنى على 21 فداناً، وهي الجزء الرئيس من الموقع، على أساسات عميقة من شرائح الصخور، مع 129 مصرفاً لإبعاد مياه الأمطار عن المنطقة الرئيسة. ويقدر كينيث رايت أن 60 بالمائة من أعمال البناء يتركز على أساسات المصاطب والمباني، وكان هذا الجهد الهائل هو الذي جعل المباني تدوم قائمة بعد مضي ما يزيد عن 500 عام في بيئة مطيرة حرجية.

ناس ماتشو بيتشو

كان المقيمون في ماتشو بيتشو يتوزعون على مقامين اجتماعيين: النخبة والعامة. فأما النخبة فهم الملك وأسرته، وأما العامة فهم الخدم الكثيرون والحرفيون الذين يرافقون الأسرة الملكية إلى مقر استراحتهم هذا، فضلا عن المقيمين الدائمين الذين يعنون بالموقع.

ولم يُعثَر على أي شيء من رموز النخبة في ما يزيد عن 100 قبر كشفت عنها أعمال حفر آثاري في الموقع. ويرجح أن السبب الرئيس من وراء هذا هو أن أجساد أفراد العائلة المالكة، الذين ماتوا في ماتشو بيتشو، قد أُعيدت إلى كوزكو لتدفن بالنحو الذي يليق

بها. وأما جثة الملك فلابد من أنها أعيدت وحُنِّطت. ثم أن معظم قبور الموقع قبور بسيطة نسبياً، مدفونة فيها أشياء قليلة وليست قبوراً متقنة البناء، على أن هناك بعض الاستثناءات. وغالبيتها قبور كهفية بسيطة تقع بمحاذاة حافات الموقع الشرقية، مع أن هناك دليلاً على وجود مدافن أخرى في جزء الموقع الرئيس. بيد أن تحليلات حديثة للمدافن وفرت معلومات جديدة جمة عن هذا التقليد الشعبي الشائع لديهم (سالازار Salazar 2004، 2007).

واحدة من النتائج التي تعاكس آراءً سابقة عن الموقع بيَّنتها التحليلات الإضافية للهياكل العظمية، التي أشارت إلى تماثل عدد الذكور تقريباً مع عدد الإناث (فيرانو Verano 2003). وبالتالي فالفكرة القائلة إن الموقع كان مخصصاً كمأوى للأكلكونا acllaconas فكرة مغلوطة.

كما ذُكِرَ آنفاً، قد يكون الخدم والحرفيون، الذين جيء بهم إلى هذه الممتلكات، من أي مكان من الإمبراطوية، لكن جُلَّهم أُخذوا من بين الجماعات التي غزاها الملك الذي يعملون في ممتلكاته. ولهذا الرأي ما يدعمه من دلائل في جوانب عدة مستندة إلى دراسات جرت على هياكل عظمية من مدافن ماتشو بيتشو وأشياء القبور المدفونة معها. إذ نظر جون فيرانو John Verano (2003)، وهو متخصص في الهياكل العظمية، في كل من سمات وجوه الهياكل العظمية وأنماط عمليات تحوير الرأس، التي كانت بادية عليها. فأشارت سمات الوجوه إلى أن الكثير من الخدم كانوا في الحقيقة من ساحل بيرو الأوسط أو الشمالي، في حين أشارت أنماط الرؤوس المحوَّرة إلى وجود أناس من الجماعات الساحلية وكذلك الجبلية، ويحتمل أن الأخيرين من النجود القريبة من بحيرة تيتيكاكا.

تدعم الأشياء، التي تدفن مع الميت، الرأي القائل أن معظم الخدم المدفونين هناك جاءوا من خارج كوزكو، ذلك أن المواد معروفة عند جماعات من مناطق أخرى غير كوزكو (سالازار Salazar 2007). فأولئك الناس كانوا مدفونين مع خزفيات معروفة في مواطنهم وأخرى بأشكال إنكية. وقد دفنت نساء عدة مع كلاب، ويبدو أن الكلاب حيوانات منزلية محببة (سالازار Salazar 2007). ولمّا كان الأفراد من مقام متدنٍ بلا شك، فقد دُفِنَ العديد منهم مع بعض الأشياء القيّمة من قبيل دبابيس شالات، وملاقط صغيرة، ومرايا. وعليه، بوسعنا فهم أن يكون المرء خادماً ملكياً، فهذا يعني أنه قد يحصل على مكافآت من

بعض ممَنْ يخدمهم. من ناحية أخرى، بُنيت هذه المدافن كلها بأسلوب كوزكو المحلي، وليس بأسلوب مواطن الأفراد الأصلية، ما يشير إلى أن الإنكيين كانوا يسيطرون على طُرز المدافن بصرامة كبيرة (سالازار Salazar 2007: 175). كما كشفت دراسة هياكل الخدم العظمية والأشياء المدفونة معها في الموقع عن الكثير من جوانب حياة هؤلاء الناس، معلومات لم تتحها غالباً مصادر أخرى من قبيل الوثائق التاريخية، التي تنحو إلى التركيز على الطبقة الحاكمة حصراً. وكان وضع هؤلاء الأفراد الصحي جيداً بنحو عام، على الرغم من أنهم عانوا من تنخر أسنانهم بنحو كبير، ولعل سبب ذلك الكربوهيدرات العالية التي يحتويها الطعام الذي كانوا يتناولونه (برغر Burger 2004: 88). وكانت أطوال أجسامهم كأطوال ساكني المنطقة اليوم تقريباً. ولم تبدُ على هياكلهم العظمية أضرار سوى الشيء الطفيف، ما يدل على العمل اليدوي الشاق الذي زاولوه، هذا وبدت على بعضها أضرار. واستناداً إلى دراسات كيميائية للعظام، فإن جزءاً من نظامهم الغذائي النباتي يتألف من 60 الى 70 في المائة من الذرة، بالإضافة إلى البطاطا والبقوليات.

من يملك حرفيات ماتشو بيتشو؟

أجرى هيرام بينغهام مشروعيْ حفريات في ماتشو بيتشو: أحدهما في 1912 والآخر في 1914—1915. وأجريت بعض الدراسات في وقت مبكر عن مواد من الموقع، وآلت الكثير من المواد إلى مخازن متحف بيبوديPeabody في جامعة ييل. وفي أواخر التسعينيات، ظهر نزاع على ملكية المواد، هل تعود إلى بيرو أم إلى متحف بيبودي. فقد رأى مسؤولو بيبودي أن المواد تعود إلى جامعة ييل كجزء من اتفاقيات أصل البعثات. أما المسؤولون البيروفيون فرأوا أن الاتفاقيات أشارت إلى أن المواد الآثارية المكتشفة إنما تأخذها البعثة إلى ديارها على سبيل الإعارة فقط. وأرادت جامعة ييل المواد للدراسة، وقد وفرت البحوث التي أجريت عليها حتى الآن المعلومات القيمة الواردة في هذا النص الذي بين يدي القارئ. واحتجت بيرو بأن أصل تلك المواد منها، والشعب يريد إعادتها لأنها جزء من تراثه؛ لا سيما أن هذه الحجة صارت تنتشر بين بلدان مثل بيرو، والمكسيك، ومصر، واليونان،

في محاولة لاستعادة المواد التي أخذت منها من طريق الفتوحات وأعمال السلب والنهب، أو البحث العلمي. ويبدو أن ثمة حلاً وسطاً في طريقه إلى التحقق، على الرغم من عدم وجود اتفاق يظهر في الأفق الراهن.

لعل بقايا الغذاء في المدافن لا تعكس أنواع الحيوانات التي كانوا يستهلكونها بالفعل على أساس يومي، بل هي بالأحرى المواد الغذائية التي كانت تقدم للميت كوجبة خاصة عند دفنه. ومع ذلك، يمكننا توقع أن هذه البقايا عموماً تعكس ما كان متاحاً للخدم. في ضوء هذا، من المثير للاهتمام أن ما يزيد عن 90 في المائة من اللحوم كانت تؤخذ من الألباكا واللاما، مع كثرة النوع الأول. وهناك نقص ملحوظ في عجول الإبليات[1]، مما يشير إلى أن الإبليات المسنّة فقط جيء بها إلى الموقع، ربما بهدف إنتاج ألياف. وبعد الانتفاع منها لهذا الغرض، ذبحوها، وسمحوا للخدم باستعمال لحومها في قرابين الدفن (برغر Burger 2004: 93). وعثر جورج ميلر George Miller (2003)، وهو عالم في الحيوأركيولوجيا[2]، على وجود لغزلان وقوارض صغيرة، مما يشير إلى أن بعض هذه الحيوانات كانت متاحة لهم أيضاً. وفي معرض تفسير رائع يقدمه، رأى ميلر أن بعض أجزاء الأيل التي عثر عليها كانت دليلاً على استعمال عطر الإغراء[3] في صيد الأيل أو من أجل منع الأيائل من دخول الحقول في أثناء مواسم الحصاد (ميلر Miller 2003: 57).

ثمة نقطة أخيرة مثيرة للاهتمام عن دفن الأفراد ذوي المكانة الأدنى في ماتشو بيتشو تتمثل بوجود أدلة قليلة على أن هؤلاء الناس كانوا إما عمالاً زراعيين أو صنّاع فخاريات: فلم يُعثر فيها على أية أشياء مستعملة في هذه المهن. لكن، هناك أدلة على معادن، بخاصة البرونز، وهذا ما يبعث على الدهشة نظراً لطبيعة هذا النشاط التخصصية الشديدة

(1) حيوانات ثديية من عائلة الجمليات تشمل الإبل واللاما وقريباتهما (م).

(2) حيوأركيولوجيا Zooarchaeology أو أركيوحيوان Archaeozoology (وتترجم أحياناً بالمستحاثات) حقل يعنى بدراسة بقايا الحيوانات في المواقع الأركيولوجية. وتتكون بقايا الحيوانات أولاً من أجزاء صلبة من أجسامها من قبيل العظام والأسنان والأصداف البحرية. ولعل مثل هكذا بقايا نبين مدى إحجام القدامى عن تناول لحوم بعضها، فضلاً عن كشف الحيوانات المستعملة في النقل أو الزراعة أو أعمال أخرى، أو للتدجين، أو للزينة والملبس، وصناعة بعض الأدوات، الخ. وتساعد دراسة هذه البقايا الأركيولوجيين على فهم استرتيجيات بقاء الماضين وتفاعلاتهم الاقتصادية مع بعضهم، وتستكمل الصورة لدى الناس المعاصرين عن أنماط البيئات التي سكنها البشر الذين سبقوهم (م).

(3) عطر يستعمله صيادون يغري الغزلان والايائل والدببة وغيرها ويجتذبها الى الفخ (م).

(سالازار Salazar 2007: 177). وفي الواقع، يشير محتوى البرونز المعدني إلى أنهم كانوا يحاولون في هذا الموقع عمل سبائك من نحاس وبزموت، على عكس السبيكة المعتادة من النحاس والقصدير.

ماتشو بيتشو في سياق أوسع

كانت ماتشو بيتشو حيازة ملكية مهمة تعود لباتشاكوتي Pachacuti وأفراد باناكاه panaca، ولا يمكن فهمها بمعزل عن غيرها. وكان الموقع في نهاية المطاف امتداداً لشبكة الطرق الإنكية في هذه المنطقة. وفي الوقت الحاضر، تنتهي الطريق عند الموقع، لكن الاستكشافات التي جرت في شمال المنطقة وشرقها لم تكن واسعة، لذا فمن غير المؤكد ما إذا كان الطريق مستمراً عبرها. والممر الإنكي الشهير الذي طورته الحكومة البيروفية للسياحة ينطلق من أعلى نهر أوروبامبا من ماتشو بيتشو ويصعد إلى قمة جبل عال فوق الموقع، ويصل إلى ما كان يحتمل أنه الطريق الرئيس إلى أعالي كوزكو، ومن ثم يمر بمواقع إنكية عدة متوجهاً إلى العقار الملكي.

هناك أيضاً مواقع إلى الغرب من ماتشو بيتشو مرتبطة بدروب بالطريق الرئيس المؤدي إلى هذا الموقع. فموقع لاكتاباتا Llactapata ، الذي تقع على بعد 4,5 كيلومترات جنوب غرب ماتشو بيتشو، قد تبين أن فيه محاذاة فلكية مرتبطة بماتشو بيتشو، فضلاً عما يزيد عن 80 مبنى، من بينها أبنية راقية (زيغلر Zeigler 2008). ويحتوي ثيرو سان ميغيل Cerro San Miguel، الواقع إلى الغرب مباشرة وعبر النهر من ماتشو بيتشو، على منصة منبسطة في أعلاه في وسطها حجر منتصب. ومن جانب الحجر، يتحاذى تقريباً إنتواتانا Intihuatana وجبل فيرونيكا على طول خط الاعتدال، ما يشير إلى وظيفة طقسية (راينهارد Reinhard 2007:112).

بناء على هذه الملاحظات وغيرها، رأى يوهان راينهارد Johan Reinhard (2007) أنه ينبغي فهم ماتشو بيتشو في سياقها الأوسع الجغرافي والمقدس. وقد حدّد إشارات عدة في الموقع إما تقترن بأحداث فلكية، مثل الانقلاب الشمسي والاعتدالات، أو أنها تقترن بجبال معينة. وعلى هذا الأساس، سعى للبرهنة على أن ماتشو بيتشو لم تكن مجرد مقر استراحة لطبقة الكبار، بل هي موقع مقدس فيه تقام طقوس لآلهة الإنكيين، سماوية

وأرضية على حد سواء. وفي حين أن الأمر قد يكون كذلك، فمن المرجح أيضاً أن المواقع القريبة منه تفيد لأغراض أكثر عملية من قبيل الأمن والتبادل الاقتصادي مع المناطق البعيدة عن ماتشو بيتشو.

خلاصة القول، في مقابل كونه مكاناً لإخفاء الأكلاكونا acllacona لإنقاذها من الإسبان، أو مكانا لجأ إليه الإنكيون هرباً من الغزو، يمكننا الآن أن نرى ماتشو بيتشو على ما كانت عليه: عقار ملكي يحوزه الملك باتشاكوتي Pachacuti وعائلته وأقاربه. فمن الصعب تسميتها مدينة، استناداً إلى حجمها وعدد سكانها. ثم أنها كانت مكاناً تؤمه النخب للاسترخاء والتمتع بمناخه المؤاتي، فضلاً عن إدارة شؤون الدولة وإقامة بعض الطقوس عند الحاجة. وكان يضم فريقاً كبيراً من الخدم عندما كانت العائلة المالكة تأتيه بزيارة، فكانت على الأرجح تعج بأنشطة ابتداءً من إنتاج الغذاء إلى الصيد. إلا أن هذا المكان كان في غالبية أوقات السنة مستوطنة صغيرة يسكنها عدد قليل من الأسر يقتصر عملها على الحفاظ على المباني من زحف أدغال الغابة عليها، وإدامة جريان الينابيع والقنوات، وزراعة المحاصيل لإدامة حياتها. وعاشت تلك العائلات وماتت هناك، وأكثرهم كانوا بعيدين عن ديار آبائهم وأجدادهم. وكانوا يدفنون مع قرابين من طعام وأدوات كانوا يستعملونها في حياتهم اليومية. ونحو العام 1540، ربما هُجر الموقع برمته من جرّاء انهيار الإمبراطورية التي كانت تديم وجوده. أما العائلات التي كانت تعيش هناك فقد انتقلت إلى أماكن أخرى بنحو دائم، ودثّرت الموقع غابات السحاب، لتنساها الذاكرة ويغيب العلم بها على مدى 370 عاماً اللاحقة.

وضع الموقع اليوم

في حين أن موقع ماتشو بيتشو كان دائماً مكاناً يحظى بشعبية، إلا أن صعوبة الوصول إليه النسبية (إذ على المرء أن يستقل قطاراً من كوزكو إلى الموقع ومن الموقع إليها) دائما ما تحول دون اطلاع الكثيرين عليه. فخلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات، أسهم مشكل الإرهاب بنحو ملحوظ في الحد من الزيارات إلى مناطق بيرو كلها، فتدنى الوضع الاقتصادي عموماً. نتيجة لذلك، شرعت الحكومة البيروفية ببرنامج جديد هدفه تسويق كوزكو وماتشو بيتشو كمركزين لديانة الأنديز والتصوف فيها، وهي مقاربة

موجهة لزيادة حجم التجارة السياحية الشعبية في المجال الروحاني (فلوريس أوتشوا 2004 Flores Ochoa: 114). ومع كبح الإرهاب في مطلع أعوام التسعينيات، راحت بيرو تجتذب أعداداً كبيرة من السياح مرة أخرى. وانطلقت جولات للترويج للطابع الروحي في ماتشو بيتشو وأهميته، وازدادت الكتابات عن الموقع، وكان الكثير منها خيالياً يسترعي اهتمامات جموع «العصر الجديد». وفي العام 1999، أنشأت الحكومة البيروفية حَرَم ماتشو بيتشو التاريخي، على مساحة تقرب من 80,535 فداناً تضم الموقع، و«قافلة الإنكا» ومواقعها، والمناطق المحيطة بها ذات الأهمية الثقافية والطبيعية (فلوريس أوتشوا 2004:113 Flores Ochoa). وكان الغرض من ذلك توفير الحماية القانونية لهذا الموقع والمواقع المجاورة.

قد تصبح ماتشو بيتشو ضحية نجاحها. ففي أعوام التسعينيات، كانت هناك خطة لبناء نظام سيارة أسلاك (تلفريك) ليصعد إلى الموقع من محطة السكة الحديد السفلى لزيادة حجم الذاهبين إلى الموقع. وكان من شأنه أن زاد من عدد السياح الذين يمكنهم زيارة الموقع إلى 3,200 شخص في اليوم الواحد، أو حتى أكثر، إذا ما فُتحَ الموقع لمدة 24 ساعة في اليوم، مع نصب أجهزة صوتية وضوئية. وهناك استشاريون خاصون ينصحون بأنه ينبغي السماح لـ 2,200 سائح فقط في اليوم (فلوريس أوتشوا 2004:120 Flores Ochoa). وكان السياح في السابق ينزلون من القطار في مدينة آغواس كالينتيس Aguas Calientes عند أسفل الموقع ويستقلون حافلات صغيرة إلى الموقع. إلاّ أن من شأن نظام سيارة الأسلاك أن يرتّب آثاراً بيئية وأركيولوجية كبرى مثل تدمير الغابات القديمة في المنطقة، وإجراء تحويرات على مقبرة للإنكيين، وضعضعة التل الذي يقوم عليه الموقع بنحو خطير.

وأدت اضرابات واسعة في العامين 1999 و2000 ضد نظام التلفريك إلى إلغائه في نهاية المطاف. وخلال الانتخابات الرئاسية في العام 2001، طرحت هذه المسألة مرة أخرى، واتفق المرشحون البارزون على ترك الحَرَم على حاله. وعندما انتخب أليخاندرو توليدو Alejandro Toledo، أدى اليمين رئيساً للبلاد في موقع ماتشو بيتشو، ترميزاً لدعمه طابعها المقدس (فلوريس أوتشوا 2004 Flores Ochoa: 122).

واليوم، يجذب الموقع مئات الآلاف من الناس من جميع المشارب، ولأسباب كثيرة مختلفة. فموقعه المثير ومعالمه البديعة التي تشف عن حُسن الهندسة الإنكية، يثير إعجاب

كل من يزوره. وحتى مع زحام السياح، ينتزع الموقع تقدير الزوار لجماله وتصميمه، على أن بالوسع العثور على أماكن هادئة بعيداً عن حشود الزائرين. وما من صورة التقطت تنصف حقاً روعة ماتشو بيتشو وموقعها الجغرافي. وبوصفها مكاناً مقدساً، ومقر استراحة ملكي سابق، ووجهة سياحية لأناس من شتى أصقاع العالم، تستحق ماتشو بيتشو بوضوح تسميتها موقعاً أركيولوجيا في التراث العالمي.

ملاحظات

i. في العام 2008، أشار تقرير صحافي إلى أن رجل أعمال ألماني، اسمه أوغستو بيرنز، عثر على الموقع في العام 1867 فنهب الكثير من ثرواته في ذلك الحين (شبكة بي بي سي الإخبارية BBC News 2008). وإذا ما صح هذا الكلام، فلربما يوضح غياب بقايا مدافن كبار الإنكيين عن مركز الموقع.

ii. إن وصفاً كاملاً للأطلال يخرج عن غَرَض هذا الكتاب. ومع ذلك، يمكن العثور على طواف بارع بين الأطلال، مع مواقع المناطق الكبرى كلها ووظائفها في كتاب رايت وزاغارا Wright and Zagarra (2000، الفصل العاشر).

إقامة صلة بما مضى

1. تصوّر نفسك صحافياً جاء إلى ماتشو بيتشو لإجراء لقاء مع الملك لصالح الصحيفة التي تعمل فيها (إن وجدت في ذلك الزمان صحف). ماذا تريد أن تعرف من الملك؟ كيف تظن أنه سيجيب عن أسئلتك؟
2. لو ذهبت إلى ماتشو يتشو، فأي جزء من الموقع ستزوره أولاً؟ لماذا؟

الفصل السادس

الحياة اليومية في إمبراطورية الإنكا:
إعادة بناء أنموذجين

الكثير من تفاصيل الحياة الصغيرة في إمبراطورية الإنكا مجهول إلى حد كبير، فعادات الأنديزيين القدماء عندما يستيقظون في الصباح، أو يذهبون للنوم، أو يزورون أماكنهم المقدسة، كلها أمور غير معروفة بأية درجة من درجات الدقة. بيد أنه يمكن إعادة بناء الروتين اليومي المحتمل على أساس (1) ما هو متوافر من إشارات قليلة ضمتها وثائق إسبانية، (2) وصف جماعات الأنديز المعاصرة التي تعيش حياة زراعية بسيطة يبدو أنها تشابه حياة الأقدمين في هذه المنطقة. إلاّ أن الخلل في استعمال هذا العنصر الأخير يتمثل في أن مثل تلك الجماعات غير ملزمة اليوم من جانب الدولة بتنفيذ أعمال معينة، كما كان حال رعايا الإمبراطورية الإنكية. هذا فضلاً عن عدم وجود شيء في يومنا هذا يقارب أسلوب حياة طبقة كبار الإنكيين، مما يجعل إعادة بناء روتين حياة عائلة من النبلاء أكثر افتراضاً. وإعادة البناء الآتية تحكي عن عائلة من باناكا panaca الملك باتشاكوتي Pachacuti مضت إلى ماتشو بيتشو لقضاء فصل الشتاء.

يوم من حياة عائلة إنكية في ماتشو بيتشو

يبتدئ اليوم عند بزوغ الشمس مع نهوض الزوجة الثانوية من نومها، تاركة ابنتها ذات الـ14 عاماً نائمة. الطقس هنا ألطف بكثير مما في كوزكو، إلاّ أن رطوبة باردة لا تزال محسوسة في الجو. تمضي الزوجة الثانوية لفتح البوابة للياناكونا yanacona لتدخل. وكالعادة، كانت هذه المرأة على الباب تنتظر أن يدخلوها، وكذلك تفعل الياناكونا الأخريات في المجمّع. تمشي الأثنتان إلى دار المرأة الرئيسة الواقعة في الباحة وتطرقان على بابها. فتدخلهما المرأة الرئيسة إلى دارها، ويشرع الخدم بإيقاد النار من جمر الليلة الفائتة. وتأخذ الزوجة الثانوية بإعداد وجبة من الذرة المطبوخة مع الفلفل الحار تحت عين الزوجة الرئيسة، التي تفكر في نفسها أن هذه المرأة لا تعرف الوسائل المناسبة لإعداد

الطعام، على الرغم من نشأتها في أسرة جيدة في كوزكو. لكنها بالتأكيد تسّهل عليها شؤون الحياة كثيراً.

في هذه الأثناء، كان الزوج وابنه قد نهضا من نومهما وأخذا يتداولان بما سيعملانه في يومهما. يُقدَّم الإفطار على أطباق فضية وضعت على قطعة قماش لطيفة على الأرض. تجلس الزوجة الرئيسة وظهرها إلى زوجها، قبالة موقد صغير حيث الطعام يغلي بهدوء. وتجلس الزوجة الثانوية إلى جانبها، ومعها ابنتها، التي انضمت إليهم قبل حين. ويجلس الابن بجوار والده. الجميع يتناولون إفطارهم بملاعق من الفضة.

اليوم يوم استثنائي، فقد أصدر الملك أوامره بالذهاب لصيد الأيائل في الغابات، تلك الرياضة التي يستمتع بها كثيراً. وبما أن أسرته المقربة، فالأب وابنه مدعوان للذهاب مع الملك، مع أنهما طبعاً سيكونان على مسافة وراء الملك. إلاّ أنها تبقى مثيرة ـ مطاردة الأيائل حيث يستثيرونها ليخرجوها من مخابئها، وينطلقوا محاولين قتلها بمقاليعهم ورماحهم. ولعل الحظ سيؤاتيهما ويصطادان أيّلا بعد أن يفعل الملك! لذا يتفحص الأب وابنه أسلحتهما ويغادران برفقة أقارب آخرين وخدمهم. وفي الطريق يتحدثون بحماسة عن مطاردة اليوم.

بعد تناول الإفطار، تنظف الزوجة الثانوية الصحون وتعيدها إلى كوة في الحائط. بعدها، ترجع وابنتها إلى المنزل، وتخرجان علبة كبيرة فيها صوف ألباكا ناعم. وتتناول كل منهما أدوات الغزل وتبدأان بغزل خيوط، إذ تدوّران فلكة المغزل بمهارة بيد واحدة فيما تجدلان الخيط باليد الأخرى. تتقن البنت هذا العمل منذ مدة طويلة وبإمكانها نسج خيوط جيدة. وفي وقت لاحق من اليوم، سيتوافر ما يكفي من خيوط للزوجة الثانوية كي تشرع بصناعة تُنِك يرتديه الابن. تحلم الزوجة الثانوية في أن يكون لديها ابن، الذي قد يحصل على ما يكفي من قبول لينال منصباً مهماً في الإمبراطورية، وربما صار حاكم إقليم في منطقة من المناطق المفتوحة.

تبقى الزوجة الرئيسة في المنزل تعمل على إعداد زي ابنها الذي سيرتديه في طقوس البلوغ. فالتُنك المصنوع من قماش الكومبي، الذي خاطته الألاكونا لطيف جداً، لكن الزوجة الرئيسة تضيف في أعلاه بعض الأقراص الذهبية، التي ستتلامع بالشمس عندما يرقص ابنها في الاحتفالات. وتذهب الزوجة الرئيسة إلى زيارة زوجة شقيق زوجها، التي

تقيم في منزل يقع عبر الباحة قبالة منزلهم في الكانتشا cancha. فقد أصبحن صديقتين حميمتين منذ مجيء زوجة شقيق زوجها قبل سنوات عدة، على الرغم من أنها أصغر من الزوجة الرئيسة بست سنوات. ولديهم طفل ثان على الطريق، وكان الأول قد توفي قبل عامين. وتشك العائلتان في أن الطفل قد مات بفعل السحر والشعوذة، لكن مَنْ هذا الذي من بين عائلتيهما قد يفعل مثل هذا الشيء؟ توقفت الزوجة الرئيسة فجأة: هل يمكن أن الزوجة الثانوية قد استخدمت ساحراً لفعل ذلك؟ في ذلك الوقت، كانت لمّا تزل غير راضية عن اتخاذ زوجها زوجة ثانوية. كلا ذلك غير ممكن، فكيف تمكنت الزوجة الثانوية أن تجد ساحراً مشعوذاً كهذا، وهي التي تراقب تحركاتها بنفسها وعن كثب؟

بعد منتصف النهار، تذهب زوجتا الشقيقين لتقديم قربان في معبد القمر، كي تحدث الولادة بسلام. إذ تمشيان مروراً بمساكن أقاربهما الآخرين، ووراء الصخرة المقدسة، ثم تنحدران نحو الجانب الآخر من اويانا بيتشو. وعلى ما يبدو فإن الكاهنة هناك واثقة من أن قربان خنزير غينيا وصوف من لاما بيضاء سوف يضمن ولادة ناجحة هذه المرة. وتتوقفان عند بيت إحدى الشقيقات في طريق عودتهما لمعرفة ما إذا كانت قد شفيت من سقطتها في اليوم السابق. وفي وقت غياب الزوجة الرئيسة، مضت الزوجة الثانوية لترتب أمر الحصول على بعض أوعية الطهي الجديدة لمنازلهن لأن وعاءين قد كسرا في اليوم السابق. ودائما ما يكون هذا الأمر مشكلة، على بعد المسافة عن كوزكو. لماذا لم يعمد الملك إلى جلب خزافين إلى هذا المكان؟ تصعد الدرج الرئيس بسرعة، متطلعة في المصاطب الرائعة حيث حُصدت الذرة مؤخراً. حيوانات الألباكا ترعى على جذامات الزروع المحصودة. الذرة تنمو بالتأكيد هنا أفضل مما في كوزكو نظراً لهطول الأمطار على نحو أفضل واعتدال درجات الحرارة. فتصعد الزوجة الثانوية إلى مخفر خارج البوابة الرئيسة لتخبر المسؤول عن القدور. وبعودتها من خلال البوابة، تتوقف متأملة بإعجاب جمال مشهد أويانا بيتشو والباب يؤطره.

تمرّ بسكن أسرة الملك، ناظرة إلى الأحجار المرصوفة بإحكام بديع. وتقول في نفسها كم هو رائع العيش في بيت كهذا. كما أن وجود الكثير من الياناكونا يقمن بأمورها من شأنه أن يجعل الحال أفضل! تتأمل هذه المرأة أن على الرغم من أن حياتها يسيرة نسبياً، فحياة سليلي الشمس أسهل! تغذّ الخطى مسرعة إلى البيت خلف النوافير حيث تغرب

الشمس، لتتأكد من حال ابنتها، وتذهب إلى منزل الزوجة الرئيسة.

بعودتها إلى البيت، تجد الزوجة الرئيسة وجبة العصر وقد هيأتها الزوجة الثانوية والخدم لجميع عائلاتهم. وتصدر الأوامر للخدم لإعداد بعض التشيتشا، فيمضون لينقعوا بعض الذرة. وبعد وقت قصير من وصولها، يعود زوجها وابنه، فيتوقفان لتقديم الشكر في معبد العائلة في المجمع على نجاح الصيد. تهيء الزوجة الثانوية يخنة من لحم لاما وبطاطا وكينوا لوجبة العشاء، بالإضافة إلى زلابية الذرة على الجانب. وتُقدَّم التشيتشا بكؤوس خشبية.

بعد الانتهاء من تناول العشاء، تنظف الزوجة الثانوية المائدة وترفع الأطباق، فيما تتحدث الزوجة الرئيسة مع زوجها وابنها عما جرى معها. جرى الصيد بنحو حسن فقد وجدوا عدداً لا بأس به من الأيائل. وقد جلب الملك أحدها معه، ثم فعل الآخرون. ولم يكن اثنان منهم موفقين لذا لم يأتيا بلحم أيل إلى بيتيهما. فقال أحد أصهارهما أنه سيشاركهما اللحم الذي جلبه، وهذه التفاتة لطيفة منه. وسيعطيهما ما قال في اليوم اللاحق، لذا على الزوجة الثانوية القبول بذلك. فهل كانت تعرف السلوك؟

تستعد الزوجة الرئيسة لتقديم القرابين لآلهة الجبال والسماء لضمان سير كل شيء على ما يرام في الأيام المقبلة. إذ أن إنتي رايمي Inti Raymi يقترب، وهو ما يعني العودة إلى كوزكو للمشاركة في المهرجان. وبعد غروب الشمس، تعود الأسر إلى منازلها وتذهب للفراش، فكل عائلة تتقاسم سريراً عليه أغطية مصنوعة من جلود الألباكا من أجل الاحتماء من برودة الليل.

يوم من حياة عائلة ياناكونا في ماتشو بيتشو

في بدايات وقت الفجر الخافت، يستقيظ أفراد الأسرة الخمسة بتمهل. سيكون اليوم طويلاً جداً بما أن على الزوج الذهاب والمساعدة في إخراج ايائل من الغابة لكي يصيدها الملك وأسرته. عليه المغادرة بسرعة ليكون في المكان قبل وصول جماعة الصيد. وكالمعتاد، تستيقظ الأم أولاً وتوقد النار، لكن في هذا اليوم، نهض الزوج من نومه معها في هذا الوقت ليهيء أموره. ويرسل الزوجان ابنتهما البكر، التي عمرها 12 عاماً، لتأتي ببعض الحطب الإضافي من التل الذي في أسفل الموقع. فتغادر الفتاة المنزل وتتجاوز البيوت

الثلاثة القريبة منهم، وتمر بالحقول وتصل إلى الوادي الصغير. وتبدأ بجمع بعض الخيزران والأغصان من تحت الأدغال الصغيرة والأشجار، ثم ترجع إلى البيت بخطى مسرعة، وفي أثناء مرورها من البيت المقابل لبيتهم ترى صديقتها، المتوجهة إلى الوادي للأمر نفسه، فتلقي عليها التحية. فجمع الحطب هنا أسهل بكثير مما كان عليه الحال في كوزكو بسبب صغر هذه المدينة وقربها من الغابات.

تنام الابنة الصغرى نوماً متقطعاً في مهدها الخشبي بجانب موقد النار. فعمر هذه البنت عامان ولا تزال الألواح المسطحة مربوطة على رأسها كي تتقولب جمجمتها بالشكل الجميل الذي يفضله مجتمعها. فبعد ولادة هذه الطفلة، حظي والدها بتكريم جديد من ربة القمر، التي أدخلها الإنكيون عليهم، لأنهما قد قنطا تقريباً من إنجاب طفل آخر. لا يزال ابنهما البالغ 18 عاماً هو أيضا نائماً لأنه عاد إلى البيت في وقت متأخر من مساء اليوم السابق من رحلته إلى كوزكو. فقد استغرقت رحلته وقتاً أطول من المعتاد لأن بعض الشبان لم يكونوا معتادين على سَوْق قافلة اللاما، لأن أصولهم من الساحل، مثل أصل أهله. كما أن إحدى حيوانات اللاما أصيبت بالعرج، فتوقفوا ليذبحوها. ومن المؤسف أنهم لم يتمكنوا من الحصول على بعض لحمها، لأن أكثره كان محجوزاً للعائلات الحاكمة. إلا أن في بعض الأحيان يعمد نبيل طيب القلب إلى اعطائهم بعضاً منه، على الرغم من أن الحيوانات المنحورة كانت في العادة من الحيوانات المسنّة، وعادة ما تكون قرابين مقدمة للموتى فقط!

فيما الطعام يطهى على النار، ترجع البنت حاملة الحطب. وتوقظ الأم ابنها، ويبدأ جميعهم بتناول إفطارهم سوية، جالسين على الأرض قبالة بعضهم بعضاً. ويتناقشون بما سوف يقوم به كل واحد منهم في ذلك اليوم. بعد تناولهم إفطارهم، تنظف الابنة الأطباق الفخارية البسيطة والملاعق التي يتناولون بها وجباتهم كلها. وترضع الأم طفلتها الصغيرة فيما الابن يعالج شبكة اصطياد الطيور والفيسكاتشا viscacha[1]. ويشعر بالانشراح لأنه غير ملزم بالقيام بالرحلة الطويلة التي تدوم بضعة أيام إلى كوزكو لأن الرحلة الأخيرة أتعبته كثيراً. ويفكر أحياناً بالتسلل من إحدى مناطق الاستراحة الموجودة على جانب الطريق ليزور الساحل وأقاربه هناك. لكنه يعرف أن المسؤولين الإنكيين يتتبعون كل شيء بالكيبو

(1) قوارض متعددة الأنواع تشابه الأرانب، تكثر في بيرو والأرجنتين (م).

quipus، من الناس إلى الذرة إلى القماش، وأنهم سيتفقدونه. وعقاب هذا الفعل شديد: يقتل إن مسكوه، أو تقتل عائلته لعصيانه ملك الإنكا. كلا، الأمر لا يستحق المخاطرة، مع أنه يفتقد أفراد أسرته التي تركها وراءه هناك، والسباحة في البحر. يودع الأب عائلته ويغادر للصيد. ويأخذ معه بعض الذرة المجففة وقارورة من التشيتشا ليتناولها في وقت لاحق، إنْ تأخر الصيد. وعليه المشي مع الآخرين على طول الطريق الرئيس المؤدي إلى كوزكو، ثم يتفرقون منتشرين في الغابة التي تحت إنتيبونكو Intipuncu. وبإشارة متفق عليها بينهم، يتجمعون ويسيرون معاً متجهين إلى البلدة، ويداهمون الأجمات مطلقين صيحات كي يسوقوا الغزلان باتجاه الصيادين المتربصين بها. ويرجو صاحبنا ألاّ يصطدم بأي ثعابين سامة كما حدث في المرة الأخيرة، أو تنكسر ساقه مثلما حدث مع جاره. فقد كان هذا الأمر يستحق تقديم خنزير غينيا قرباناً إلى باشاماما Pachamama لدفع مثل هذا البلاء.

تغادر الأم البيت في الوقت نفسه الذي يغادر فيه زوجها صاعدة التل متوجهة إلى العائلة الإنكية التي كانت الأم أعطتها ياناكونا yanacona. الزوجة الرئيسة في هذه العائلة، وهي من بنات الملك المهيب ومؤسس هذه البلدة، أَنوفة وغير ودودة، لكن الزوجة الثانوية أكثر لطفاً معها، حتى إنها اهدتها دبوس شال من الفضة عندما وضعت طفلتها الصغرى. جاءت الزوجة الثانوية لتفتح لها باب مجمّعهم. وتمضي لتساعد في تحضير وجبة الصباح قبل أن تتوجه لأمور أخرى تفعلها في نهار اليوم.

على ابنتها ذات الـ12 عاماً أن تعنى بالطفل وترتيب البيت وقت غياب أبويها. فأخوها الأكبر لا يساعد كثيراً في شؤون المنزل لأن عليه إنجاز عمل آخر. فتبدأ برفع صحون الفطور ووضعها في كوة في الحائط. وتعطي بعض بقايا الطعام إلى خنازير غينيا في زريبتها الموجودة في ركن البيت، وتكنس الغرفة. ثم تحمل أختها الصغيرة وتضعها على ظهرها في شالها، ثم تذهب لزيارة بيت عمها الواقع في أسفل الطريق. ومن حسن الحظ أنه بعد أن غزاهم الإنكيون، نقلوا بعض الناس من قريتهم إلى هنا، لذا فإن بعض أقاربهم يسكنون بجوارهم. إلاّ أن من المحزن أن الكثير منهم مات، ففي هذه البلدة الجبلية وغاباتها أرواح خطرة كثيرة. وتقع قبور الأقارب المتوفين بين الصخور على امتداد التلال، وليس في الرمال الناعمة في موطنهم الساحلي. كانت البنت تتساءل عن حال أراوحهم، هل انتقلت

إلى ديارهم على البحر. كما أنها تخشى أن دفنهم على الطريقة الإنكية، بدلاً من طريقتهم الخاصة بهم، قد يكدر الأسلاف، فكانت ترجو أن ينزل غضبهم على الإنكيين!

هناك قرويون من مناطق أخرى يسكنون في أجزاء أخرى من البلدة. كم كان لباسهم وكلامهم غريباً! لكن كانت هناك فتاة بعمرها من تلك المناطق بدت لطيفة، وكانتا أحياناً تلعبان معاً عندما لم يكن لديهما عمل تؤديانه، على أن ذلك كان نادراً. وكانتا تتقافزان وتلقيان الحصى، وفي موسم الجفاف ترافقان والدتيهما إلى النهر لجلب الماء على ظهورهن. كن يمشين طويلاً نزولاً إلى النهر ثم العودة، لكن هذا الأمر يبدو أسهل إلى حدّ ما بوجود صديقة.

في الطريق إلى البيت في تلك الليلة، تتوقف الوالدة عند منزل أخيها لتعرف ما إذا ولدت زوجته. وتحرق قرباناً من بعض أصداف السبونديلوس Spondylus الثمين من أجلها وطفلها الذي سيولد قبل عودتها إلى منزلها. عندما تصل إلى المنزل، تجد زوجها وقد وصل قبلها واغتسل. وقد سمع اليوم أنه بسبب أدائه الجيد في العثور على الغزلان، فلربما سيختارونه قائد الصيد عندما يتوفى القائد الحالي. فهذا القائد، وهو عمه، مريض ومسن. وفي الغد، سوف يذهب الأب لزيارته وسؤاله عن كيفية استعماله الطُعم الخاص الذي يتوافر عنده ليجتذب الغزلان إليه.

تجلس العائلة على الأرض لتتناول وجبة كينوا quinoa وحساء البطاطا، وفيها قطعة صغيرة من خنزير غينيا كمعاملة خاصة. ويحكون ما حدث مع كل واحد منهم خلال اليوم وما سيفعلون غداً. وكان حوارهم قصيراً كالعادة، فوقتهم المخصص لأنفسهم قليل.

سوف تعمل الأم مع الأسرة الإنكية، وستعتني الابنة بالطفلة الصغيرة، وسيساعد الابن أفراد الأسرة الآخرين في بناء قبر لجدته التي ماتت. وسيعمدون إلى قتل كلبها ليلحق بها إلى العالم الآخر، ويضعانهما في القبر. وسيعود الوالد إلى عمله مع عمال البرونز، حيث يتعلم كيفية مزج المعدنيْن بنحو مضبوط كي ينتج البرونز. ويذكر أن خبير المعادن الإنكي يستعمل نوعاً جديداً من المعدن يمزجه مع النحاس ليعرف ما إذا سيحسن هذا من متانة البرونز في أدوات صغيرة مثل الملاقط. ومع تزايد برودة المساء، يلتحف أفراد الأسرة ببطانيات من وبر اللاما الخشن ويذهبون إلى الفراش، سعداء بحياتهم معاً.

إقامة صلة بما مضى

1. استعمل نسخة من الخريطة (الواردة في الفصل الخامس)، وتتبع التنقلات اليومية التي تقوم بها الشخصيات المذكورة في الفصل السادس. استعمل أقلاماً ملونة أو حبراً لتأشير الأماكن التي كانوا يذهبون إليها. هل كانت هناك طرق مختلفة للوصول إلى مواقع معينة، أو هل كانت الطرق محدَّدة لا تتغير؟
2. أتعتقد أن أنموذجي إعادة بناء الحياة اليومية دقيقان؟ ما الذي تودُّ تغييره في كل منهما؟

الفصل السابع

إسهام الإنكيين
في ثقافة الأنديز الحديثة

فتح الإنكيين وما أعقبه

يمكن القول إن إمبراطورية الإنكا بلغت ذروتها أبان عهد الملك اوينا كاباك Huayna Capac، الذي انتهى بموته نحو سنة 1528 ب. م. فقد بلغت الإمبراطورية في زمانه أقصى حجمها، والتغيرات التنظيمية التي نفذها باتشاكوتي Pachacuti وتوبا إنكا Topa Inca الرامية إلى توحيد الجماعات العرقية المستعمره، كانت ماضية إلى التحقق. إذ أن اوينا كاباك، وريث توبا إنكا، حكم نحو 34 سنة، لكنه مات فجأة، ومات وريثه المختار أيضاً. وادعى ابنه البكر، أواسكار Huascar، الذي كان يعيش في كوزكو، المُلْك. على أن ابناً آخر له، أتاوالبا Atahuallpa، الذي كان يعيش مع والده في كيتو Quito، نودي به ملكاً على كيتو ونِدّاً لأواسكار. فجيّش المتنافسان الجيوش واندلعت حرب أهلية قطّعت أوصال الإمبراطورية إرباً إرباً. ونظراً لتمتع جيوش أتاوالبا بتدريب أفضل وخبرة، فضلاً عن تفوق قادته، فقد كان النصر حليفه. وقد سمع أتاوالبا بأخبار وصول الإسبان إلى شمال بيرو في الوقت نفسه تقريباً الذي سمع به بنبأ انتصار جيشه النهائي على أواسكار.

وصل المستكشف الإسباني بيذارو Pizarro إلى ساحل بيرو الشمالي في 1532 ب.م. وكان أتاوالبا يسير جنوباً إلى كوزكو لينصّب نفسه ملك الإنكا إثر هزيمة أواسكار. وافق أتاوالبا، من خلال مترجمين، على عقد اجتماع مع الإسبان قرب كاخاماركا Cajamarca، وهي مدينة تقع في مرتفعات بيرو الشمالية. فبيَّت الإسبان هجوماً مفاجئاً وألقوا القبض على أتاوالبا، واحتجزوه من أجل الحصول على فدية. وعلى الرغم من أن الإنكيين أعطوهم ما يكفي من الذهب والفضة لملء نصف غرفة ثلاثة أضعاف، إلا أن الإسبان قتلوا ملك الإنكا، ونصّبوا محلّه حاكماً يتلاعبون به بما يشاؤون، وتقدموا سائرين إلى كوزكو، حيث بسطوا سيطرتهم على الإمبراطورية.

كانت إمبراطورية الإنكا قد اتسعت إلى أقصى حدّ في مدة قصيرة جداً، لربما أقل

من قرن من الزمان. إلّا أنها فتحت بين العامين 1532 و1534 ب. م، بيد فرانسيسكو بيذارو و260 من الإسبان. فكيف كان هذا ممكناً؟ كان هناك عاملان لهما أهمية واضحة. أولهما تمثل بالحرب الأهلية بين أواسكار وأتاوالبا، التي انتهت قبيل وصول الإسبان بوقت قصير. فقد تصارعت في أتون هذه الحرب الجيوش الإنكية والايلو ayllus الملكي مع بعضها البعض. وبعد انكسار جيوش أواسكار نهائياً، استدار قادة أتاوالبا المنتصرون فاعتقلوا وأعدموا نبلاء كوزكو الإنكيين الموالين لأواسكار. وبالتالي فالوحدة التي جعلت من الإنكيين قوة عسكرية بذلك النحو قد تفكّكت قبل وصول الإسبان.

وأما العامل الثاني فكان انتشار الأمراض الأوروبية السريع في أنحاء منطقة الأنديز. فقد مات والد أتاوالبا وأواسكار، أوينا كاباك، فجأة ـ ويعتقد عدد من المؤرخين أن موته ربما كان بسبب مرض وبائي. وهذه الأوبئة، مثل الحصبة، والجدري، وحمى التيفوس، والأنفلونزا، نقلها الإسبان إلى المكسيك في أثناء فتوحاتهم في تلك المنطقة ابتداء من العام 1519 ب. م. وانتشرت هذه الأمراض جنوباً من خلال سكان أمريكا الوسطى الأصليين، وفي نهاية المطاف وصلت إلى بيرو. ولم تكن لدى شعوب العالم الجديد الأصلية مقاومة ضد هذه الأمراض، فعاثت بهم. ففي بعض المناطق، قضى ما يصل إلى 90٪ من السكان، فيما تركت الأمراض الناجين محطمين نفسياً (برنز Bruhns 1994: 375). ولأن الأوبئة تنتشر بوتيرة أسرع في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية، فقد تناقصت أعداد المجتمعات الساحلية بمستوى أكثر من مجتمعات المرتفعات. ولعل إسهام الخسائر الهائلة التي أوقعها المرض كانت أكبر من حصة خيول الإسبان وبنادقهم في غزو الإنكيين.

مع ذلك، لم يستسلم الإنكيون بسهولة بعد أن نصّب بيذارو نفسه على رأس كوزكو. فقد أدرك مانكو إنكا Manco Inca، الحاكم الدمية، أنه ألعوبة بأيديهم فهرب ليشكل مقاومة في أعماق غابات شرق كوزكو. وحشد جيشاً كبيراً وضرب حصاراً على كوزكو في العام 1536. وهاجم جيش آخر مدينة ليما Lima التي تأسست حديثاً في ذلك الحين. وبعد شهور من القتال، كُسر الحصار على كوزكو، ليس بتفوق سلاح أو استراتيجية، بل لأن الجيش الإنكي اضطر للعودة للقيام بأعمال الزراعة في مواطنه الأصلية. وانتهى حصار ليما بسرعة عندما قتل هجوم إسباني معظم القادة الإنكيين (دالتروي D' Altroy 2002 : 318). ومع أن ثورات أخرى اندلعت خلال السنوات الثلاثين اللاحقة، بيد أن

القليل منها كانت له آثار خطيرة، وقمعت غالبيتها في وقت قصير.

الإنكيون تحت حكم الإسبان

من المحال التوصل إلى فهم تام لطريقة حياة الإنكيين أو شعوبهم المستعمرة بسبب النقص الذي يعتور السجلين التاريخي والأركيولوجي. لذا، من الصعب تحديد القدر الذي تجد فيه طريقة الحياة الموجودة اليوم جذورها في الثقافات الإنكية وما قبل الإنكية. كما أن جزءاً من الصعوبة ينشأ من التغيرات الواسعة التي أدخلها الإسبان على الجماعات الأصلية بعد الفتح.

وقد ناقش كثير من الكتاب هذه التغيرات (وللاطلاع على مثال محكم، راجع عمل جورج كبلر George Kubler المنشور في 1946، الموسوم «الكيشوا في عالم المستعمرات»). وثمة نقطة أساس ينبغي فهمها بشأن الفتح الإسباني تتمثل باختلاف نهج الحياة الإسبانية التام عن نهج حياة شعب الأنديز. فعندما غزا الإنكيون معظم مناطق غرب أمريكا الجنوبية، عمدوا إلى فرض نظام كانت له جذوره في نهج حياة مشابه عموماً لنهج حياة الشعوب المستعمرة. وكما تكررت الإشارة، حاول الإنكيون تفكيك نسيج طريقة حياة رعاياهم بأقلّ قدر ممكن. فقد كانت نظرة الإنكيين للحكم هي التصرف مثل جماعة واسعة النطاق تربطها قرابة، فيفرضون الجزية والعمالة بنحو كان مفهوماً لدى الشعب المستعمر من خلال أنماط نشاطهم هم أنفسهم. لذا كان متاحاً لاولئك الناس الحفاظ على أجزاء من حقولهم، وزراعة محاصيلهم الخاصة بهم، وعبادة آلهتهم الخاصة بهم. فكانت الدولة الإنكية مثل أسرة على الفرد فيها توفير عمل وغذاء، وكانت هي بدورها تقدم الخدمات والأمن له ولأهله.

في مقابل ذلك، فرض الإسبان طريقة حياة مختلفة تماماً عما ألفه أهل الأنديز اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ودينياً (سلفربلات Silverblatt 1987). فقد كانت إسبانيا جزءاً من اقتصاد السوق الناشئ في أوروبا، الذي يستند إلى قوى العرض والطلب التجارية، وأهمية تراكم الثروة. وكان الفتح الإسباني بحد ذاته بدافع من الرغبة في الحصول على الثروات الهائلة التي لدى إمبراطورية الإنكا، والتي تقاس بالذهب والفضة. وهذه هي العملة نفسها المستعملة في أوروبا. فبعض أشد التغيرات الجوهرية التي تعرض لها عالم الأنديز

اتصل بمتطلبات الإسبان للأيدي العاملة في مناجم الذهب والفضة في بيرو (التي كانت تشمل معظم غرب أمريكا الجنوبية، كما حددها الغزاة الإسبان أصلاً).

بل والأكثر جوهرية تمثل باختلاف ما يمكن أن يسمى بنظرة الإسبان العالمية. فأنموذجهم في العلاقة مُستعمِر ـ مُستَعمَر كان أنموذج الهيمنة والاستغلال: الغنائم ملكية المنتصر. وعلى الرغم من أن السياسة الرسمية الإسبانية كانت تدّعي ترك الثقافة الوطنية على حالها، إلا إذا تعارضت مع القانون الإسباني، بيد أن هذا الأمر كان ممارسة نادرة الحدوث.

حقبة فتح الكيتشوا (1532–1572 ب. م)

ينقسم العهد الذي أعقب الغزو الإسباني لإمبراطورية الإنكا حقباً عدة متمايزة (كبلر Kubler 1946). خلال الحقبة الأولى، حقبة فتح الكيتشوا Quechua (1532–1572 ب. م)، عزّز الإسبان سيطرتهم على إمبراطورية الإنكا. واتسمت هذه الحقبة بوقت تحول حرج، عندما أُدخلت المؤسسات الإسبانية، لكن طريقة الحياة الأساس لم تتغير كثيراً لدى الكثير من أهل الأنديز البعيدين عن الاتصال الإسباني المباشر. إذ يلاحظ كبلر Kubler (1946: 341) وجود نمطيْ حياة متمايزيْن خلال هذه الحقبة: الكيتشوا المسالمة والكيتشوا الانفصالية. وهنا يُستعمل مصطلح كيتشوا ليعني أي فرد أصلي، إنكياً كان أم غير إنكي، ينطق بلغة الكيتشوا. أما الكيتشوا المسالمون فهم السكان الأصليون الذين رضخوا لغزو الإسبان لهم، واندمجوا بطريقة الحياة تلك. أما الانفصاليون فهم أولئك الذين حاولوا الحفاظ على نهج الإنكا القديم لتسيير أمورهم، ورفضوا التأثيرات الإسبانية وقاوموها. ومما يثير السخرية أن الانفصاليين قد غيروا في حقيقة الأمر من طريقتهم في الحياة كثيراً ذلك أنهم كانوا يعيشون في جوهر الأمر عيشة مخيم عسكري. وتدنت الاختلافات الطبقية بينهم لأن الجميع بات منغمساً في القتال. وتغير الاقتصاد بداع من ضرورة الحصول على مواد إسبانية للمقاومة، لا سيما الخيول والأسلحة. وأخيراً، كان الكيشوا الانفصاليون هدفاً للأنشطة التبشيرية الإسبانية النشطة، والغريب أن الأهالي أفسحوا لها المجال. لذا فقد تغيرت ثقافتهم بدرجة كبيرة (كبلر Kubler 1946: 343–45).

في المقابل، كانت الضغوط المباشرة والتأثيرات التي تعرض لها الكيشوا المسالمون، أقل

بكثير. فقد كان حجم التغير في هذه المجموعة يتناسب طردياً مع مدى قرب السكان الأصليين من المستوطنات الإسبانية. فكلما كانوا يعيشون أقرب من الإسبان، ازداد تغيرهم ـ طوعاً كان ذلك أم كرهاً. كما أثر في تحول ثقافة الإنكا السبل التي أُستوعبت بها طبقات المجتمع الإنكي في البنية الاستعمارية. إذ اعتمد الإسبان سياسة الإنكيين في استعمال الكوراكا curacas كرؤوساء في تفاعلهم مع العمال المحليين. وبالتالي فإن هؤلاء الإنكيين من طبقة البيروقراطيين متدنية المستوى في السابق، غدوا إسباناً متدني المستوى وسرعان ما استوعبهم نهج الإسبان الحياتي. في إزاء ذلك، حافظ الكثير من العمال على أسلوبهم الحياتي السابق، مكتفين بتوفير تلك السلع الجديدة التي يطلبها الإسبان منهم. علاوة على ذلك، تواصل وجود الميتا mit'a الإنكيين، فكان العمل الذي يقدمونه يستعمل لإدامة الأشغال العامة، كما كان عليه الحال في عهد الإنكيين.

على الرغم من أن المرء قد يتوقع أن الفتح الإسباني قلص الفوارق الطبقية بين الإنكيين وشعوبهم المستعمرة، إلاّ أن الواقع لا يقول ذلك. ذلك أن الإسبان منحوا طبقة النبلاء العليا في المجتمع الإنكي ـ بمَنْ فيهم طبقة الكوراكا الإنكيين وغير الإنكيين في المقاطعات ـ وضعاً خاصاً كملاك أراض. وكان هذا الأمر ممنوعاً على عمال الإمبراطورية الإنكية وأبناء الشعوب المستعمرة، الذين لم يكونوا كوراكا(سلفربلات Silverblatt 1987:112). فأباح هذا التميز لأولئك امتلاك أراض ومنع هذا الحق عن هؤلاء. على أن الأكثر أهمية هو أن هذا التميز استثنى النبلاء الإنكيين وغير الإنكيين من دفع الجزية ومقتضيات العمالة. ونجم عن ذلك أن أسهمت الطبقة العليا من المجتمع الإنكي في تراكم الأراضي على حساب شعبها نفسه. وبهذا النحو، استوعبت الطبقات العليا في المجتمع الاستعماري اللاإسباني بوصفها سواسية تقريباً مع الإسبان، في حين كانت الطبقة الدنيا تعد أقل شأناً اجتماعياً. وما زاد في هذا هو التزاوج بين الرجال الإسبان والنساء الإنكيات من بنات الطبقة العالية.

تمثّل الإسهام في تحول الثقافة الإنكية إلى ثقافة إسبانية كولونيالية بسياسة الإنكوميندا الإسبانية encomienda[1]. وكانت هذه السياسة عبارة عن تفويض [أو منحة] باستعمال

(1) سياسة التفويض الإسبانية، نظام عمالة كان التاج الإسباني يستعمله خلال الاستعمار الإسباني للأمريكيتين والفلبين. بموجب هذه السياسة، يمنح التاج الإسباني شخصاً معيناً عدداً محدداً من المواطنين الأصليين يضعهم بإمرته. وكان على الحائزين على هذا التفويض أن يعلّموا من هم بمعيتهم اللغة الإسبانية والعقيدة الكاثوليكية.

عمالة السكان الأصليين يقدمها التاج الإسباني للإسبان كمكافأة عن دورهم في غزو الإنكيين. ولم تكن هذه المكافأة تهب الأرض نفسها إلى الإسبان، بل فقط حقوق استعمال الشعوب الأصلية في العمل على إنتاج سلع معينة. على أن هناك عقبة: فإذا لم يستطع الأهالي الإيفاء بمتطلبات جزية الإنكومنديرو encomendero (أي الشخص الذي يتولى زمام الإنكوميندا encomienda)، قد تطرح أراضيهم للبيع لاسترداد المبالغ المفروضة عليهم. وأصبح هذا الحال ببساطة ممارسة لزيادة تكاليف الجزية كثيراً بحيث لم يكن السكان المحليون يقدرون على دفعها لهم، فيضطرون لبيع أراضيهم إلى الإسبان. وعليه فإن فقدان أراضي السكان الأصليين وتحولها إلى الغزاة بدأ خلال السنوات الأولى من الفتح الإسباني.

نتيجتان أخريان نتجتا عن نظام الإنكوميندا، إلى جانب فقدان أراضي السكان الأصليين. أما النتيجة الأولى فكانت إدخال المحاصيل والحيوانات الأوروبية على حياة سكان بيرو الأصليين ـ على أن معظم هذه المحاصيل والحيوانات جيء بها من أجل الجزية فحسب ـ وكان السكان المحليون يواصلون زراعة محاصيلهم الأنديزية لمعيشتهم. أما النتيجة الثانية فتمثلت بزيادة أعداد الناس الذين لا يملكون أرضاً نتيجة بيع أراضيهم بسبب رهنها. وبينما كان شراء الإسبان للأراضي يتزايد، كانت أعداد الناس الذين يتخلون عن أراضيهم في تزايد، ذاهبين للعمل كخَدَم لدى الإسبان (كبلر Kubler 1946: 341–43).

تتميز حقبة فتح الكيشوا أيضاً باندلاع ثورات، بخاصة خلال سنوات الفتح الأولى. وكانت أشدها وطأة ثورة العام 1536 بقيادة مانكو إنكا، التي نوقشت في المادة السابقة.

الحقبة الكولونيالية المبكرة (1572– 1650 ب. م)

خلال الحقبة التاريخية اللاحقة، الحقبة الكولونيالية المبكرة (1572 – 1650 ب. م)، تواصل تحول نمط حياة السكان الأصليين. بدأت هذه الحقبة مع فرض سياسة التخفيض

في المقابل، كان بإمكانهم أخذ جزية من السكان الأصليين بصيغة عمالة، أو ذهب، أو أشياء أخرى، مثل الذرة والقمح والدجاج. وكان الحاصلون على التفويض في العادة من الغزاة والجنود، وكان من بينهم أيضا نساء ووجهاء من طبقة نبلاء الشعوب الأصلية (م).

reducción، بيد حاكم بيرو، نائب الملك توليدو[1]. في إطار هذه السياسة، نُقل السكان الأصليون بعيدا عن مجتمعاتهم الأصلية الواقعة بين الحقول، وأُنزلوا في بلدات جديدة من تصميم الإسبان. ونمط هذه البلدات، الموجودة في الأنديز اليوم، بشوارعها التي تستدير بزاوية 90 درجة مع ميدان مركزي، حيث تقع الكاتدرائية الرئيسة، هو من نتاج هذه السياسة. وكان الغرض من ذلك تحسين تحصيل الجزية ومدفوعات العمالة، وزيادة وتيرة عملية تحويل السكان المحليين إلى المسيحية. وهذا ما كدّس على نحو فعال أفراد الأيلوات ayllus المختلفة معاً، وجعل من زراعة بعض الحقول السابقة أمراً غير عملي بازدياد وقت الوصول إليها. فحطم هذا الحال حسّ الشعب القديم بملكية الأرض وأدى إلى نشوب صراعات على استعمال الأراضي.

بالإضافة إلى سياسة التخفيض، كانت عملية تحويل الاقتصاد المحلي الأصلي خلال هذه الحقبة من محاصيل الأنديز إلى المحاصيل الأوروبية المستجلبة، جارية في طريقها. وكان الإسبان يوجبون أي شيء تقريباً من عمال الأنكوميندا، وكانوا يهتمون بأنواع المواد الغذائية الخاصة بهم اكثر من اهتمامهم بالأصناف المحلية. وبالتالي، أخذت مزروعات إسبانية نمطية (مثل القمح والشعير والتمور والزيتون) وحيوانات (مثل الأغنام والأبقار والخنازير والدجاج) تزرع وتربى بيد المواطنين الأصليين. ومع ذلك، كان لمعظم هذه الأمور أثر ضئيل في غذاء الأهالي، واستمروا في تناول طعامهم الخاص بهم. وأدى هذا إلى تمزيق الأنشطة الاقتصادية الأصلية لأن بعض الأغذية كان يجب أن يزرع من أجل الجزية، فيما تزرع أغذية أخرى لاستهلاكهم الخاص بهم. وبما أن متطلبات الجزية أصبحت أشد وطأة، صارت زراعة المحاصيل المحلية بيد عمال الأنكوميندا تقل تدريجياً.

على أية حال فإن إدخال محصول معين أو حيوان على الاقتصاد الأصلي، يتوقف على عوامل عدة من قبيل مدى ملائمته للبيئات المختلفة، وقدرته على التنافس مع الأغذية المحلية، واستعمالاته الجديدة، وما إذا يستدعي حجم عمالة إضافية أو موارد، أرضاً كانت أم رياً (كبلر 1946 Kubler: 355–57). وأصبحت بعض مصادر الأغذية الأوروبية، مثل قصب السكر والمواشي، تحظى بشعبية كبيرة بين الناس في منطقة الأنديز ـ قصب

---

(1) هو فرانشيسكو دي توليدو Francisco de Toledo (1515– 1584) كان نائب الملك الإسباني على بيرو من نوفمبر 1569 إلى سبتمبر 1581(م).

السكر بسبب توفيره الحلوى، والمواشي بسبب قابليتها للتكيف واستعمالاتها العديدة. لذا، وعلى الرغم من ميل الإنكيين لأغذيتهم، كان الاقتصاد المحلي يتحول من اقتصاد إنديزي خالص إلى اقتصاد مختلط من خلال زراعة محاصيل أوروبية وتربية حيوانات المزرعة.

تقلصت ممارسة تفويضات الإنكوميندا encomiendas للإسبان بنحو كبير خلال القرن السابع عشر. فلم تدم هذه المنح سوى مدة محددة من الوقت؛ وبمجرد أن انقضى وقتها، عادت الأرض والناس لتكون تحت إمرة التاج الإسباني. ونتيجة للانتهاكات التي ارتكبها نظام الإنكوميندا، أبدله التاج الإسباني بنظام الأقضية الإدارية corregimiento، الذي نصّب مسؤولاً حكومياً إسبانياً، أطلق عليه محافظ corregidor، يتولى مسؤولية الأراضي والناس التي كانت تحت نظام الإنكوميندا السابق. وأنقذ هذا الإجراء أراضي السكان الأصليين من البيع، وبالتالي حافظ على حقوق ملكية مجموعات عدة. لكن كان على أفراد القضاء توفير العمالة للمحافظ، كما كان عليه الحال إلى حد كبير في نظام الإنكوميندا السالف. وهذا ما وفر للإدارة الإسبانية كماً هائلاً من العمالة، التي وضعت للعمل في مناجم الذهب والفضة الحكومية (كبلر Kubler 1946: 346). ولقي الآف من رجال الأنديز حتفهم وهم يعملون في ظل ظروف المناجم المروعة. وهذا ما أدى إلى هجران الكثير من الأراضي الأصلية، في حين كان الناس يفرون من العمل المفروض في المناجم. زد على هذا، لم تكن الحكومة تدفع أجوراً للمحافظين، بل يحصلون على أجورهم من ناتج أقضيتهم corregimiento. ونجم عن ذلك أنهم أخذوا يسيئون استخدام سلطتهم كثيراً كما كان يفعل المفوضون encomenderos من قبلهم. وبقيت الحياة قاتمة بالنسبة للسكان المحليين، على الرغم من الجهود الطيبة لإجراء إصلاح على جزء من الحكومة الإسبانية. وكانت هذه التجاوزات هي التي حملت غوامان بوما Guaman Poma على كتابة رسالته إلى الملك.

كان ثمة تحول آخر يحدث خلال أواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، ألا وهو: اعتناق السكان الأصليين المسيحية. وكانت المسيحية تقضي بأن العالم منقسم إلى خير وشر: أي أولئك الذين يعبدون رب الكتاب المقدس، في مقابل أولئك الذين لا يعبدونه. فالمسيحية وفرت الأسس الأخلاقية لفتح إمبراطورية الإنكا، لأن هذه

الإمبراطورية كانت تُرى منغمسة في عبادة الشيطان. وبسبب الاضطرابات السياسية التي أعقبت الفتح الإسباني والافتقار النسبي للكهنة في بيرو، فقد كانت محاولات إدخالهم إلى المسيحية قليلة للغاية أو أن ما حققته كان قليلاً جداً خلال السنوات الأربعين الأولى من العصر الاستعماري. لكن بعد ذلك الوقت، بذلت جهود أكبر في ما سمي باستئصال الوثنية، بمعنى القضاء على الممارسات الدينية المحلية. إذ بذل الكهنة جهوداً متضافرة لإقناع السكان المحليين بسمو العقيدة الإسبانية، وملاحقة أشكال الممارسات العبادية الفردية الأصلية، في الوقت نفسه. فخلال هذا الوقت، نُبِشت مومياوات أسلاف الأيلو ayllus المحليين وحرقت، وعوقب كهنة الإنكيين وكاهناتهم.

من المفارقات أنه مع تصاعد حدة الهجوم على الدين الأصلي ، كانت أهمية المرأة في الحفاظ على ممارسات السكان الأصليين تتصاعد أيضاً (سلفربلات Silverblatt 1987: chap. 5). وفيما كان دور الرجل في الحياة السياسية والاجتماعية في العصر الاستعماري في تزايد، فقد انتشر صيتهم بين عموم الناس في بالمشاركة في ممارسة الشعائر الدينية القديمة سراً. لذلك فإن الأدوار المهمة التي نهضت بها النساء (وكانت في السابق مقتصرة على القيّمين على الديانة الإنكية)، نقلت أماكن هكذا نشاطات بعيداً عن البلدات والقرى إلى كهوف منطقة البونا puna العالية. وهناك، بعيداً عن أعين المتلصصين من الكهنة الإسبان ومسؤوليهم، كانت المعتقدات الدينية القديمة المرتبطة بالأجداد وعبادة الأواكا huaca، تواصل وجودها. ويعزى استمرار دور مثل هذه الممارسات القوي في ديانة العديد من المزارعين في قرى منعزلة اليوم (اليانAlien 1988) لقدرة المرأة في العصر الاستعماري في الحفاظ على هذه المعتقدات، وكذلك إلى سطوة هذه المعتقدات نفسها.

أدى نظام الأقضية الإدارية corregimiento، وعمل إرساليات الروم الكاثوليك التبشيرية، ونظام التخفيض reducción، وأنشطة التعدين المكثفة، إلى إحداث زيادة عامة في انتقال السكان الأصليين بعيداً عن ديار آبائهم وأجدادهم خلال هذه الحقبة. إذ انتقل بعض الناس إلى الأراضي الشرقية المنخفضة، حيث لم يكن النفوذ الإسباني ملحوظاً. وتخلى آخرون عن أراضيهم ببساطة، أو أجبروا على النزوح منها، ليصبحوا خدماً لدى الإسبان وطبقة الكوراكا الدنيا الأصلية الصاعدة التي تعمل في خدمة الإسبان. وكان اكثر الاقتصاد مدفوعاً بفعل الحاجة لإنتاج سلع للسوق، بدلاً من حاجات السكان الأصليين.

وهكذا كان أسلوب حياة الأنديز الأساس في تغير مستمر. وعلى الرغم من أن العديد من جوانب الحياة ظلت مشابهة لما كانت عليه، كبعض الممارسات الزراعية، إلاّ أن طريقة حياة الإنكا لم تعد قائمة؛ بل صارت حياة استعمار إسباني.

حثت تغيرات أخرى خلال القرون الثلاثة اللاحقة، بما فيها سلسلة من الثورات في الأعوام 1700 (فشلت جميعها)؛ وحروب الاستقلال عن إسبانيا في الأعوام 1800 (نجحت كلها)؛ والتطور التدريجي في المجتمعات الموجهة تكنولوجياً في القرن العشرين. فعندما ينظر المرء إلى مدينة ليما اليوم، بحافلاتها ومبانيها الحديثة، وزحامها وضجيجها، يصعب تصور بقاء شيء يذكر من طريقة حياة الإنكا. فلم يبق في مدن مثل ليما، سوى النزر القليل جداً منها. لكن لا حاجة إلى أن يسافر المرء بعيداً عن أية مدينة في بيرو، أو الإكوادور أو بوليفيا، ليصل إلى مناطق لا تزال التقاليد الإنكية فيها واضحة، لا سيما في المرتفعات. فكلما ابتعد المرء عن مناطق الحضارة الحديثة، كلما اقترب من نهج حياة يشابه كثيراً ما وُصِف في الفصول السابقة.

هناك تناقض واضح في بيرو الحديثة بين المجتمعات الساحلية ومجتمعات المرتفعات. إذ أن البلدات الساحلية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالاقتصاد الوطني، الذي هو بدوره جزء من الاقتصاد العالمي. فقوى العرض والطلب الخاصة بالسوق تسيطر على حياة الناس فيها، ومعظم النشاط الزراعي يجري من أجل الربح، وليس لاحتياجات المعاش. ولا تزال البلدات سائرة على نمط التخفيض القديم، لكنها حديثة في أسلوبها. وأما مواد البناء فأبرزها الخرسانة، لكن استعمال اللَّبِن شائع نظراً لانخفاض تكلفته، ولا يزال الكثير من الفقراء يبنون منازلهم من الكينتشا quincha، وهي عصي تغرس واحدة جنب الأخرى في الأرض وتغطى بالطين. أما وسائل الراحة الحديثة من كهرباء وأنابيب المياه فموجودة، وكذلك الطرق المعبَّدة والأرصفة. ويرتدي الناس ملابس غربية مثل الجينز والـ(تي شيرتات). ويلبس رجال الأعمال وسيداتها البزات. ويتحدث الناس الإسبانية، بل حتى لغة ثانية مثل الإنجليزية. والكاثوليكية الرومانية هي الدين الرئيس، على أن المذاهب البروتستانتية الحديثة أصبحت أكثر شعبية.

في المقابل، يظهر مجتمع المرتفعات أكثر تنوعاً. فالحياة في المدن الكبرى والبلدات تشبه إلى حدّ كبير الحياة في المراكز الساحلية، على الرغم من أنه ليس من غير المألوف رؤية

الناس يرتدون ملابس غير غربية: مئزر بونتشو poncho أو ثوب مطرّز ملّون مع قبعة لبّاد. ومعظم الناس لديهم وظائف يحصلون منها على رواتب، لكن في مناطق كثيرة لا يزال هناك أناس يملكون حقولاً ومزارع خاصة بهم لمعيشتهم الخاصة. وعلى الرغم من أن الإسبانية هي اللغة الأكثر شيوعاً، فمن الممكن أن نسمع منهم من ينطق بالكيشوا أو الأيمارا Aymara (لغة السكان الأصليين في منطقة بحيرة تيتيكاكا) في الشوارع والأسواق.

لا تزال بعض المجتمعات، التي ابتعدت عن الطرق الرئيسة والبلدات التي جاءت بها الحضارة الغربية للأنديز، مثل القرى التي وصفها الإخباريون الأوائل إلى حد كبير. فعلى سبيل المثال، نرى سونكو Sonqo المستوطنة المبعثرة من المزارعين الذين يعيشون بين حقولهم إلى الشرق من كوزكو، تنتمي إلى أيلو ayllus، وتتحدث لغة الكيتشوا، على الرغم من أن معظم أفرادها يعرفون الإسبانية أيضاً. وتختلط الكاثوليكية الرومية مع معتقدات دينية قديمة من قبيل العرافة، وأرباب الجبال ذوي السطوة (اليان Alien 1988).

لعله ينبغي الإشارة إلى أن نهج الحياة التقليدي الذي سبق وصفه آيل إلى الزوال بوتيرة متزايدة. فقد وضع ألبرتو فوخيموري Alberto Fujimori، رئيس بيرو في أوائل التسعينيات، سياسة لمد الكهرباء للريف، وبناء مدارس، فوصلت الكهرباء والتعليم الحديث لكثير من المجتمعات الريفية. كما وصلتها الهواتف، حتى إن المرء لا يرى الآن في مقهى إنترنت أمراً غير مألوف في بلدة كانت قبل بضع سنين فقط تستمد الإضاءة من مصابيح الكيروسين.

إسهامات الإنكيين في مجتمع الأنديز الحديث

يمكن مناقشة إسهامات الإنكا، وما قبل الإنكا، في ثقافة الأنديز الحديثة تحت أبواب الزراعة والهندسة وتنظيم المجتمع والديانة.

الزراعة

لعل المظهر الأكثر ديمومة من مظاهر الثقافة ما قبل الإسبانية هو الانتشار الواسع لاستعمال مزروعات وحيوانات أصلية معينة. فالذرة والفاصولياء والقرع والبطاطا والكينوا والأولوكا ullucu، والكوكا وحيوانات اللاما والألباكا وخنازير غينيا، جميعها

ما زالت تستعمل بنحو شائع، على الرغم من أن استعمالها أكثر بكثير في مجتمعات المرتفعات المحلية. ففي الواقع، لو لم يكن الإسبان يفرضون القمح والشعير والأرز والعنب والتفاح والخوخ والبقر والغنم، وغيرها من مصادر الغذاء التي يجب استعمالها كمدفوعات جزية، لكان استعمال الطعام الإسباني أدنى حجماً اليوم في هذه المنطقة.

أحد أكبر اسهامات الإنكا في الزراعة الحديثة تمثل بالتطور الكبير لنظم المصاطب الواسعة لزراعة المحاصيل. فقد أشارت دراسات في وادي كولكا Colca في جنوب بيرو إلى أن الزراعة اليوم جميعها قائمة في الواقع على نظم الحقول التي بناها الإنكيون أو وسعوها (مالباس Malpass 1987). وهناك دراسات مماثلة في مناطق أخرى تذكر الأمر نفسه. فقد كان الإنكيون مزارعين خبراء تعلموا كيف يستعملون بأكبر قدر من الفعالية المناطق المحلية لأغراض زراعية. وما نظامهم هذا الذي لا يزال يعمل في خدمة السكان اليوم، إلاّ شهادة على مهاراتهم في هذا المجال.

أساس صخري إنكي لبناية حديثة في كوزكو

الهندسة

بالإضافة إلى النظم الزراعية، التي تعكس المهارات الهندسية كما المهارات الزراعية، بقيت مظاهر أخرى من الهندسة الإنكية في ثقافة الأنديز الحديثة. ولا تزال أمثلة كثيرة عن المباني الإنكية قائمة ومستعملة، على الرغم من انقضاء ما يزيد عن 400 سنة تخللتها هزات أرضية وغيرها من الاضطرابات الزلزالية. وتقوم أسس كنيسة سانتو دومينغو Santo Domingo في كوزكو على الكوريكانتشا Coricancha الأصلية، التي تعرض تصميمها الداخلي في القرن الماضي لأضرار بفعل زلزال. كما أن العديد من المباني الأخرى الرئيسة في كوزكو أيضاً قائمة على أسس وضعها الإنكيون.

بقيت الجسور الإنكية تستعمل على مدى قرون عدة على بعض الأنهار الكبيرة في جبال الأنديز الوسطى. وكان أحدها قيد الاستعمال، وقد رسمه الرحالة الأمريكي جورج سكوير George Squier عندما مر ببيرو في الأعوام 1870 (سكوير Squier 1877). على أن من المشكوك فيه بقاء أي جسر على حاله الأول كما أقامه الإنكيون، ذلك أن العديد منها كان يخضع لإعادة بناء وصيانة بيد قرويين محليين وبالطريقة نفسها التي كانت تستعمل في زمان الإنكيين.

على الرغم من أنه قد يبدو أن كل آثار أنماط الاستيطان الإنكية الأصلية مُحقت بفعل سياسة التخفيض، لا تزال هناك قرى متناثرة بين الحقول تشير إلى عائديتها للإنكيين أو ما قبل الإنكيين (مشكن Mishkin 1946: 439). وهذا أمر معقول تماماً، ذلك أن سياسة التخفيض ركزت على المناطق ذات الأهمية القصوى للإسبان. إذ أن بيوت الأسر الريفية في منطقة كوزكو اليوم تشبه كثيراً بيوت الإنكيين الأصلية، لكونه مستطيل الشكل وبغرفة واحدة وسقف جملوني (اليان Alien 1988: 68). وكما كان الحال في عهود الإنكيين وما قبلهم، تعيش الأسر حالياً قريبة من بعضها بعض، وليس من غير المألوف بالنسبة للمتزوجين حديثاً أن يقيموا في بيوت أحد والديهم لبعض الوقت.

تنظيم الجماعة

فيما لا يزال نمط القرية في بعض التجمعات يعكس التدبير الإنكي، كذلك الأمر مع

التنظيم الاجتماعي. فلا يزال الأيلو ayllu هو الوحدة الأساس في مجتمع الأنديز خارج المراكز التجارية. وعلى الرغم من أن الأيلو ليس هو نفسه كما كان قبل الفتح الإسباني، لكنه بقي يحتفظ بالعديد من وظائفه الأصلية في تنظيم استعمال الأراضي وأنماط الزواج. وللأيلو مرعاه وحقوله لاستعمال أفراده، إلى جانب نظم الري، حيثما دعت الحاجة. ويعمل أفراد الأيلو سوية في صيانة نظم الري.

ولا تزال تجمعات كثيرة تتوافر على تقسيمات شِعَب الأنانسايا Hanansaya والأورينسايا Hurinsaya التي أدخلها الإنكيون. ففي بلدة وادي كولكا الواقعة في مدينة كوبوراك Coporaque، ويشترك الشِعْبان سنوياً في تنظيف خزان الماء الرئيس الخاص بحقولهم. ويحتوي الخزان على قناة ري تقسمه جزئين، وكل شِعْب ينظف الجزء الذي يخصه من الحشائش والفضلات.

تتبع القرابة وحقوق الملكية أيضا الأنماط السائدة في عهود ما قبل الإسبان. فكل من الرجال والنساء يحوزون ملكاً ويورثونه إلى ذراريهم. والمفردات التي يستعملها الناس للإشارة إلى أقاربهم هي من مفاهيم لغة الكيتشوا، وليس من الإسبانية. والحال هذه، يعدّ تواصل استعمال لغة الكيتشوا مؤشراً على مدى استمرار أسلوب حياة الإنكيين في كثير من المجالات.

الديانة

عادة ما توصف الديانة بين الناس الناطقين بالكيتشوا في الأنديز بأنها مزيج من الكاثوليكية الرومانية التي أدخلها الإسبان ومعتقدات ما قبل الإسبان، لكن من الصعب تحديد أي من المعتقدات تنتمي إلى هذا المصدر أو ذاك. ذلك لأن الدين الكاثوليكي الروماني الذي أدخله الإسبان لم يكن الدين الخالص الذي يمارس في الكاتدرائيات الكبرى في أوروبا، إنما هو بالأحرى خليط من معتقدات مسيحية ومعتقدات إسبانيا الوثنية التي أدخلها الغزاة الإسبان، الذين لم يكونوا رجالاً نبلاء يتوافرون على مستوى جيد من التعليم والإيمان. فقد كانوا إلى حد كبير فقراء أميين يتمثل تراثهم الديني بشكل خاص من المسيحية التي استوعبت كائنات خارقة وقوى أخرى غير قوى الآلهة والقديسين المسيحيين. وبالتالي فإن فرض الكاثوليكية الرومانية تلائم مع معتقدات الأنديز المحلية

لأن الأخيرة تتحمل أوجه التشابه مع معتقدات الغزاة. على أن هذا الأمر يصعّب كثيراً تمييز التأثيرات الإسبانية عن التأثيرات الإنكية، من منظور حديث.

زد على ذلك، تعلم أهل الأنديز المحليون خلال العملية الكبيرة التي جرت في القرن السابع عشر لاستئصال الوثنية، حجب طقوسهم الخاصة واحتفالات أعيادهم داخل طقوس الكاثوليكية الرومانية وأعيادها. فالاحتفالات الإسبانية بعيد الميلاد، على سبيل المثال، تتوافق تقريباً مع عيد كاباك رايمي Capac Raymi الإنكي (انظر الفصل الرابع)؛ وهكذا فالاحتفال بالأول أصبح احتفالاً بالثاني. وفي بعض المناطق يتشابه الرب ويسوع المسيح مع الشمس، أي الإله إنتي Inti (اليان Alien 1988: 52؛ مشكن Mishkin 1946: 463). لذا لا يقام من العبادات أو الطقوس لهذه الرموز على وجه التحديد إلاّ القليل، بخلاف الشعائر المسيحية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. فأحد أكثر الطقوس قداسة في يومنا هذا في منطقة كوزكو هو الرحلة إلى جبل كويلور ريتي Qoyllur Rit'i، الذي يقام للاحتفال بظهور المسيح الطفل لراعٍ هناك في العام 1785. ويحدث هذا الاحتفال خلال مهرجان كوربوس كريستي Corpus Christi، أحد أعظم أعياد الكاثوليكية الرومانية. وتقام الرحلة لزيارة المقام المقدس في المكان الذي ظهر فيه المسيح الطفل، كما أن هذا العيد يعد أكثر أهمية لدى السكان المحليين مثلما هو وقت زيارة منزل أرواح الثلوج والجبال (اليان Alien 1988:190). ويحمل المهرجان بجملته العديد من المظاهر السائدة قبل العهد الإسباني.

للأرواح المحلية في مناطق بجوار كوزكو (وفي مناطق أخرى من أراضي الإمبراطورية السابقة أيضاً)، أهمية أكبر مما لدى سكان الريف الحديث، المتحدرين من الإنكيين، لأنهم يعدونها أكثر اهتماماً بحياة البشر. وتختلف أسماء الأرواح باختلاف المناطق لكنها تشترك في حقيقة أن وجودها مرتبط بمكان معين. وهذا ما يعدل الأواكا huacas لدى الإنكيين. فالأواكا الجبلية لها سطوة كبيرة، كما كان الأمر لدى الإنكيين، وهناك أيضا نوع من التراتبية في الأرواح (اليان Alien 1988: chap. 1). وهناك اعتقاد شديد بفكرة الباتشاماما Pachamama، «أمنا الأرض»، التي هي بلا ريب قديمة؛ وعلى هذا يعد تأثيرها عميقاً.

ينظر إلى أماكن الموتى وأرواحهم نظرة مهمة أيضاً، فهناك علاقة بين بنى الدفن الإنكية

القديمة (chullpas) وأرواح هؤلاء الناس (اليان Alien 1988: 54–59). وتعد الأرواح خطراً على الناس لكنها نافعة لجني محصول البطاطا. وتعد الأشياء أيضاً قوى خارقة للطبيعة، تشبه إلى حد كبير ما كان لدى الإنكيين.

كما كان الحال مع الإنكيين، لدى شعب الأنديز الحديث اعتقاد شديد بالسحر والعرافة، والسحرة يثيرون الخشية عندهم ـ ويستعملون في ذلك طائفة متنوعة من المواد، لكن الكوكا فوقها كلها ـ وكثيراً ما تستعمل التشيتشا أيضاً. وتجري العرافة بالاستعانة بأوراق نبات الكوكا. وتستعمل التشيتشا وغيرها من المشروبات المسكرة، قرابين لأرواح الأماكن وللباتشاماما، من جانب السحرة والعوام على حد سواء، سيراً على نمط ما قبل إسباني وصفه الإخباريون الإسبان الأوائل.

باختصار، يمكن القول إن طريقة حياة التجمعات الأنديزية الريفية تدين لموروثها السابق على الإسبان وموروثها الاستعماري على حدّ سواء. فلا يشمل ذلك العديد من المحاصيل الأصلية فحسب، بل حتى نظم الحقول والتقنيات الزراعية والتنظيم الاجتماعي والممارسات الدينية. ومع وضوح يد الإسبان في إحداث تغيرات كبيرة في أسلوب حياة الإنكا، واضح أيضاً أن أسلوب حياة ما قبل الإسبان كان مرناً بما فيه الكفاية للحفاظ على الكثير مما يحمله، على الرغم من التغيرات.

ما دُمِّر على نحو تام ومطلق هو المؤسسات السياسية التي كانت تعرِّف إمبراطورية الإنكا. ومع ذلك، يمكن القول إن طريقة حياة الإنكا لا تزال حاضرة (وإنْ في شكل معدَّل للغاية)، ومعظمها في مناطق المرتفعات. فلا تزال أساليب الأنديز في تسيير أمورهم قائمة؛ وقد دمجوا معها ببساطة مظاهر الثقافة الأوروبية تلك التي إما وجدوها نافعة وإما فرضت عليهم. وفي كثير من المناطق، يعرف الناس أنفسهم على أنهم من أرومة الإنكيين الأقحاح، ويفخرون بما أنجزه أجدادهم القدماء. وهو مدعاة للفخر بحق.

إسهامات الأنديز في العالم الحديث

كان أثر منطقة الأنديز في تطور مجتمعات راهنة ذا وقع هائل. فتعال وانظر إلى بعض الأطعمة التي تزرع أصلاً في هذه المنطقة. فقد وُطِّنت الذرة في كل من الأنديز والمكسيك، وصارت واحدة من من أهم خمسة محاصيل غذائية في العالم. والبطاطا محصول مهم هو

الآخر، ويطلق عليها في الولايات المتحدة البطاطا «الأيرلندية» وفي الواقع، أُدخلت إلى ايرلندا من بيرو. ويرتكز الطعام الايطالي والإسباني على الطماطم، التي هي في الأصل محصول أمريكي جنوبي. والفول [السوداني]، وأنواع عدة من الفاصولياء والفلفل الحار، والسكواش squash، والأناناس، والمنيهوت، والبطاطا الحلوة، والكاجو، من أمريكا الجنوبية أيضاً (برنز Bruhns 1994: 378–80). ومحاصيل أخرى كان لها أثر هائل في ثقافات العالم كلها تقريباً ـ لكن شيئاً واحداً لم يكن له الأثر الإيجابي ـ ألا وهو التبغ، الذي هو أيضاً من أصل أمريكي جنوبي.

وفوق ذلك، هناك نتيجة أخرى لفتح الإنكيين (والأزتيك Aztecs في المكسيك) تمثلت باتساع التضخم في أوروبا، وذلك بسبب تدفق كميات هائلة من الذهب والفضة إلى إسبانيا. لكن كان لهذا المال آثار إيجابية أيضاً، بما في ذلك تمويل الكثير من الأعمال الفنية إبان عصر النهضة في إسبانيا وأجزاء أخرى من أوروبا.

في استعراض موجز بارع لأثر الغزو الأوروبي للأمريكيتين، يلاحظ برنز (1994: chap. 19 (Bruhns أن تطور الرّق ارتبط أيضاً بصعود الزراعة التجارية في العالم الجديد. فقد كان الطلب على السكر كبيراً في أوروبا، لذا فقد نشأت مزارعه في منطقة البحر الكاريبي. وقد استُعمِلَ سكان هذه المنطقة الأمريكيون الأصليون كأول عبيد في هذه المزارع، لكن لأنهم كانوا يموتون سريعاً، جرى التحول إلى الأفارقة ليقوموا بهذا العمل. ومع تطور محاصيل أخرى وازدياد التعدين، اتسعت الحاجة إلى مزيد من العبيد، مما أدى إلى جلب المزيد والمزيد من الأفارقة. والواقع أن التنوع الإثني والبيولوجي في جميع بلدان العالم الجديد، من كندا إلى الأرجنتين، يدين بالكثير لهذه النتيجة.

استنتاجاً، كان للإنكيين أثر عميق في العالم الذي عاشوا فيه، ويمكن رؤية الكثير من هذا التأثير في مجتمعات الأنديز اليوم. ولا يسع المرء إلا أن يتساءل كيف ربما سيكون تاريخ الحضارة العالمية مختلفاً لو لم يعتقل أتاوالبا Atahuallpa بيد بيذارو في العام 1532 ب. م.

إقامة صلة بما مضى

1. أتعتقد أن الإسبان كانوا محقين في قتل أتاوالبا بعد أن أعطاهم الإنكيون الفدية التي اتفقوا عليها؟
2. فكّر في روتين حياتك اليومي، من ساعة نهوضك من الفراش حتى عودتك إليه. ما الأشياء والأغذية التي مصدرها الأنديز وتستعملها أنت؟

الخاتمة:

الحفاظ على الماضي

لا ينظر إلى الماضي من خلال أشيائه فحسب. فليست الثقافات مجرد أشياء معروضة في صناديق زجاجية. إنها تحتل سياقاً معيناً وتحيل إلى آخر، إنها ترتبط بعهود وأصول.

لتفاك كنغ Litvak King (1990: 206)

ناقشت مقدمة هذا الكتاب مسألة كيف يتاح لنا معرفة ما حدث في الماضي. لدينا ثلاثة مصادر مختلفة للحصول على معلومات عن الإنكيين: سجلات تاريخية وضعها إسبان متقدمون، وبحوث أركيولوجية، ودراسات عن الناس المعاصرين الذين يعيشون في الأنديز. ومن خلال هذه المصادر، تتضح صورة إجمالية عن نهج حياة الإنكيين، هذا على الرغم من أن تفاصيل كثيرة فيها لا تزال مجهولة. فكيف يمكن معرفة المزيد عن الإنكيين؟ فقط من خلال إيجاد المزيد من الوثائق في المحفوظات في إسبانيا وأمريكا الجنوبية، ومن خلال تحديد المزيد من المواقع التي يرجع تاريخها إلى عصر الإنكا والقيام بحفريات فيها، وإجراء مزيد من الدراسات عن المزارعين المعاصرين. إلاّ أن ما يؤسف له هو أن كل واحدة من هذه الإمكانيات تحمل في ثناياها جوانب قصورها.

ونظراً إلى التحول السريع لمجتمع الأنديز الحديث، فمن غير المرجح معرفة الكثير عن نهج حياة الإنكيين بدراسة الناس المعاصرين. ذلك أنه حتى حياة المزارعين النائين جداً مسّتها رياح العالم الحديث، كما ذُكر في الفصل السابق. إذ تأتي الإذاعة والتلفزيون والطرق الحديثة بتغيرات سريعة لشعب الأنديز كله. ومع ذلك، يدرس باحثون هذه المجتمعات المعزولة ليعرفوا حياة هؤلاء الناس، وبهذا النحو ليحدّدوا أياً من الأنماط القديمة لا تزال قائمة. وما دراسة كاترين ألين Catherine Alien في 1988 عن سونكو Sonqo إلاّ مثالاً دقيقاً عن ذلك.

من الجائز أيضاً أن يظهر المزيد من الوثائق في محفوظات إسبانيا وأمريكا الجنوبية.

وعلى الرغم من العثور على العديد من الوثائق في وقت مبكر في إسبانيا، لكن المكتشفات الأخيرة في أرشيفات محلية في بيرو كانت ذاتِ أن مهم. على سبيل المثال، وفّرت تقارير وضعها مسؤولون إسبان في القرنين السادس عشر والسابع عشر عن وادي كولكا Colca، الموجودة في محفوظات كنيسة في يانك Yanque، وهي قرية صغيرة في هذا الوادي، معلومات كثيرة عن سكان هذا الوادي الأصليين وعلاقاتهم مع الناس في المناطق المحيطة بهم (بيز Pease 1977).

ومن أسف أن استعمال الوثائق الإسبانية المبكرة ينطوي على عوائق عدة. فأساساً، إن التوصيفات الإسبانية متفاوتة الدقة، مركِّزة بتفصيل كبير على بعض الأشياء، فيما تتجاهل أخرى. لذا فإن استعمال السجل الأركيولوجي من أجل توسيع مساحة الوثائق التاريخية أمر جوهري.

يتمتع السجل الأركيولوجي بفرادة في نواحٍ معينة. ففي حين يمكن إعادة قراءة وثيقة ما قديمة مرات عدة، ويمكن للمرء أن يتصل بأناس معاصرين ويستطرد بأسئلته لهم، إلا أنه لا يمكن إعادة حفر المواقع الأركيولوجية من أجل معرفة المزيد. فأعمال الحفر، بغض النظر عن مدى العناية بها، تدمر بينما تمضي قدماً. فما إن تُحفَر منطقة معينة، حتى لا يعود من سبيل لاستعادة قطع الماضي؛ إذ إنها تمضي إلى غير رجعة. وعليه، من المهم جمع كل قطعة من المعلومات وحفظها، مهما كانت صغيرة أو بدت لا قيمة لها.

لهذا السبب تجد الأركيولوجيين لا يعمدون إطلاقاً إلى حفر موقع بأكمله في وقت واحد. بل يجري الحفر فقط بقدر ما تقتضيه حاجة الإجابة عن أسئلة بحثية. وبهذا النحو، قد يرجع آخرون للموقع نفسه في ما بعد حاملين أسئلة أخرى ليجدوا أمامهم مناطق يمكنهم عبر الحفريات الحصول منها على أجوبة. كما من المهم ترك جزء غير محفور في أي موقع لسبب آخر، ألا وهو: إن تقنيات تفسير جديدة أو تحديد تواريخ المواقع تكتشف في كل حين، لذا من النافع ترك منطقة ليمكن تقييمها من خلال التقنيات الجديدة مستقبلاً. ويكفيك تأمل أن اكتشاف «التأريخ بالكربون المشع» صار من الوسائل الرئيسة التي بها يُعيِّن أركيولوجيون تقويم تواريخ المواقع. وكان الأركيولوجيون قبل عقد الأربعينيات من القرن الماضي، عندما يحفرون مواقد قديمة، يعمدون ببساطة إلى رمي الفحم، ظانين أن لا جدوى منه. بيد أن الفيزيائيين اكتشفوا أن بالإمكان استعمال الفحم لتأريخ عصر

موقع معين. وأتيح لباحثين الرجوع إلى مواقع عدة ليجدوا مواقد أخرى (لأنهم لم يحفروا الموقع بأكمله)، وعليه فقد حصلوا على تواريخ كثيرة لهذه الثقافات القديمة. ولو كانت تلك المواقع قد حفرت كلياً، لما كان هناك سبيل للرجوع إليها ومعرفة قِدَم زمانها.

معضلة أركيولوجية

تعرض العديد من المواقع الإنكية وما قبل الإنكية، للأسف، للتدمير حتى قبل أن يتمكن الأركيولوجيون من حفرها. وثمة سببان رئيسان وراء هذا الدمار. أولهما هو التطور، بما فيه من نمو بلدات ومدن كما فعاليات صناعية. ومع نمو عدد سكان أقطار الأنديز، تزايد تشييد البيوت والمصانع، والمباني المحلية، وأحياناً في الأماكن نفسها التي كانت تقوم عليها في السابق مواقع إنكية. إذ يبلغ حالياً عدد سكان كوزكو، عاصمة الإنكا، عدة مئات من الآلاف، وهذا يزيد على حجمها في عهود الإنكيين بعشرة أضعاف أو 20 ضعفاً. أما كوزكو الإنكيين فتمتد مدفونة تحت كوزكو الحديثة، أو أن توسعها الحضري حطمها كلياً. والاستثناءات الوحيدة قلة من هياكل مباني الإنكيين التي استعملت أساسات لمباني المستعمرين.

أما السبب الثاني في دمار مواقع إنكية، وهو في مناح كثيرة أكثر خطورة من الأول، فيتمثل بعمليات السلب أو النهب. فقد حدثت عمليات نهب منذ الأيام الأولى من الغزو الإسباني، عندما كان الأوروبيون يحفرون أي شيء يبدو لهم أنه يضم كنوزاً إنكية أو ما قبل إنكية. وفي الواقع، لحق الدمار بثلاثة أرباع أواكا ديل سول Huaca del Sol، وهو أكبر هرم بقي من حضارة الموتش Moche، عندما عمد الإسبان إلى تحويل مجرى نهر الموتش لتقويض أساسات الهرم من أجل استخراج ما قد يحتويه من كنوز.

ومع ذلك كله، هناك مواقع إنكية وما قبل إنكية تتعرض للتهديد اليوم ليس من عمليات نهب واسعة النطاق، إنما تقوم بها جماعات صغيرة من أفراد يعملون في الليل في حفر مستوطنات قديمة ومقابر ليخرجوا الأواني والقطع الذهبية والفضية بغية بيعها. إذ يبحث هؤلاء النهابون huaqueros عن أي شيء ذي قيمة ولا يهمهم ما الوسائل التي يستعملونها للحصول عليه. بل إنهم في بعض الأحيان مسلحون. ويمكن مشاهدة أفعال النهابين في أي موقع في بيرو. فهناك حفر عميقة تتناثر كالبثور على وجه الأرض، كما لو أن وابلاً

من القنابل ضرب المنطقة؛ وتتناثر حولها العظام وقطع القماش وشظايا الفخار، وغيرها من المواد، حتى يتراءى هذا التدمير الوحشي مشهداً محزناً حقاً.

إن الخسارة التي تسبب بها النهابون في فهمنا للماضي لا حدّ لها، بل إن إدراك دواعي سبب عد النهب مأساة بهذا النحو، يستدعي فهم كيفية تنفيذ العمل الأركيولوجي بنحو جيد. ثم إن الأركيولوجيا علم يتطلب الكثير من الدقة. فأولاً، على الباحثين التنقيب في موقع معين بعناية شديدة، مستعملين أحياناً أدوات صغيرة مثل الملاقط وفرش الأسنان لإزالة الأوساخ بعناية عن بوتقة هشة، أو نسيج، أو هيكل عظمي. وينبغي تسجيل المعلومات عن كل قطعة أو شيء بخصوص المكان الذي عثر عليها فيه، وما عثر عليه بالقرب منه، وما إذا كان في مبنى أو كان مطروحاً في العراء، وما إلى ذلك. كما ينبغي وضع مخططات والتقاط صور فوتوغرافية لذلك الشيء في المكان الذي وجد فيه قبل أن ينقل بأي شكل من الأشكال. بعد ذلك، يصار إلى تنظيف المادة وقياس أبعادها. فهذا يتيح إجراء مقارنات لها بمواد أخرى من الموقع نفسه مواقع أو من مواقع مختلفة. وبعدها تحلل

البيانات ويصار إلى تصنيفها. ويتطلب الأمر في أحيان كثيرة إرسال المواد إلى مختبرات لإجراء تحليل خاص لها من قبيل تحديد عمر ذلك الشيء أو نوع المواد التي صنع منها. وبعد اتمام هذا العمل كله، بوسع الأركيولوجي فقط محاولة ما تعنيه المواد المستخرجة وما تخبر عن ثقافة الماضي.

إن السياق Context مفهوم في غاية الأهمية يستعمله الأركيولوجيون في وصف وشرح ما يجدونه. والسياق هو المعلومات المتصلة بالشيء الذي عُثر عليه. على سبيل المثال، استُخرجَت قِدْرٌ ما من موقع معين. فسياق القِدْر يشمل أشياء أخرى وجدت معها أو على مقربة منها، وما مدى قربها من بعضها، وما نوع التربة التي وجِدَت القِدْر فيها، عما إذا كان بداخلها شيء ما، وما إذا كانت في بيت أو ما شابه أو في مبنى من نوع آخر، وما إلى ذلك. والسياق أمر لا مناص منه لتفسير أصل استعمال ذاك الشيء. فإذا ما عُثِرَ على قِدْرٍ في منزل صغير، بجوار موقد، وحولها بقايا حيوانات ونباتات، فبالإمكان تفسير أنها آنية طهي. ولربما تفسر القِدْرُ عينها، إن وُجدت مدفونة بعناية تحت أرضية معبد، على أنها قربان للآلهة. وأخيراً، يمكن تفسير القدر نفسها، عندما تكتشف في موقع دفن، بأنها قد وضعت مع الميت بوصفه ملكاً سيستعملها في الحياة الآخرة.

لنعد قراءة هذا الاقتباس الوارد في مطلع هذا الفصل. ولينظر المرء إلى قِدْر موضوعة على عباءة شخص ما، فما بوسعه القول ما إذا كانت هذه القِدْر تستعمل لأغراض طهي، كقربان، أو كحيازة شخصية. فإذا ما أراد المرء فهم كيف عاشت ثقافات ماضية، فمن الضروري أن يعرف سياق سجل تلك الثقافة الأركيولوجي. وهنا تكمن مأساة السلب والنهب. والنهابون لا يكترثون لسياق الأشياء؛ فاهتمامهم الوحيد هو الشيء نفسه والمال الذي يمكن أن يأتي به لهم. ففي عجالتهم بالحفر عن كنوز، يدمرون السياق الذي يتيح للأركيولوجي فهم أهمية الشيء للناس الذين صنعوه واستعملوه.

مَنْ يشتري الأشياء المنهوبة؟ أناس كثر، لا سيما المتاحف وجامعو التحف. ومَنْ هم جامعو التحف هؤلاء؟ هم في الغالب من الأثرياء الذين يريدون الحصول على قطع فنية جميلة من ثقافات قديمة. وقد اتسعت السوق الفنية منذ الأربعينيات من القرن الماضي بنحو ملحوظ. والتكلفة ليست شأناً. فليس من غير المألوف بالنسبة لأشياء من ذهب وفضة من ثقافات الأنديز القديمة أن يطلب لها ثمناً يبلغ عشرات الآلاف من الدولارات

في مزاد علني (غيلمور Gilmore 1990). ومن سوء حظ النهابين أنهم لا يحصلون إلا على جزء يسير من السعر النهائي للشيء. إذ أن سلسلتين من ذهب وخرز أرجواني نُهبتا من مدفن ملكلي ينتمي للموتش Moche باعهما نهابون بـ 30 دولاراً، وباعها التاجر في كاليفورنيا في نهاية المطاف بسعر 1,500 دولار (كيركباتريك Kirkpatrick 1992:125).

يضاف إلى ذلك قضية أخلاقية تتصل بالثقافات القديمة تتمثل في أن بيرو، على غرار بلدان عدة، تحظر بيع القطع الأثرية ونقلها من البلاد على حدٍ سواء. إذ يحظر القانون البيروفي بصرامة تصدير أي من الأشياء التي تُعدّ جزءاً من التراث الوطني. ويعد تصدير هذه الأشياء تهريباً. ومع ذلك، عادة ما تُتَجاهَل مثل هذه القوانين من جانب المتاجرين بها وجامعي التحف الساعين وراء جني الأرباح الضخمة التي يمكن لهذه الأشياء أن تدرها عليهم. وهذه المعضلة من الجسامة إلى درجة أنه بحلول العام 1981، بلغ تهريب القطع الآثارية المرتبة الثانية بعد المخدرات في كمية الأموال التي جُنيت بطريق غير مشروعة (ناجن Nagin 1981: 61). ويرجح أن هذا الأمر يصح على يومنا هذا.

ثمة مسألة رئيسة تتعلق ببيع القطع الآثارية تزايدت منذ صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب وهي بروز مبيعات كهذه عبر الإنترنت (باركر Barker 2000). ففي حين كان على شخص ما، في السابق، أن يعثر على أشخاص ومنظمات تبيع التحف (قانونياً أم بخلافه) من خلال صحف ومجلات، وكلمة يطلقها، صارت دور المزادات الآن على الإنترنت تستطيع أن تأتي بسلع إلى كومبيوتر الشخص وهو في منزله. إذ يمكن لأي واحد في أي مكان العثور على الأشياء التي تهمه، بأي سعر يتصوره. علاوة على ذلك، وبسبب طريقة التعاملات الاقتصادية التي تعمل بها تلك المصادر على الإنترنت، فإن في كثير من الأحيان قد يحمل بحث أمين أجراه كتاب يخوض في موضوع أركيولوجي صفحة تعرض أيضاً للقارئ فرصة لشراء أشياء من تلك الثقافة التي يعالجها الكتاب (باركر Barker 2000). ولحين التوصل إلى سن لوائح ونظم تحكم مثل هذه المبيعات، سوف تتضخم هذه المشكلات. ونظراً لتعقيد هذه القضايا المطروحة، بما فيها إيجاد جملة من الاتفاقيات المحلية والدولية والوطنية، بل حتى في التجارة العالمية واتفاقيات المبيعات، فسيكون من الصعب جداً السيطرة على بيع الأشياء، التي حيزت بطريقة غير مشروعة، عبر الإنترنت.

هناك علاقة مباشرة بين تنامي سوق القطع الأثرية وتدمير المواقع الأركيولوجية، ليس في بيرو وحسب، بل في أي مكان في العالم. فبداعٍ من أسعار القطع الأثرية الضخمة، بوسع هواة جمع الآثار دفع مبالغ عالية للوسطاء، الذين يستطيعون حينئذ أن يدفعوا للنهابين مبالغ مقابل تلك الأشياء. وبداع من أن معظم حضارات العالم القديم الرفيعة، التي أوجدت تلك الأشياء التي تلقى طلباً كبيراً اليوم، تقع في بلدان فقيرة نسبياً الآن ومتخلفة، مثل بيرو، فليس من النادر أن يتمكن النهابون من الحصول على مال يكفيهم شهرين أو ثلاثة من بيع آنية آثارية واحدة. ذلك أن دوافع عمليات النهب قاهرة ومفهومة تماماً بالنسبة إلى شخص فقير يعاني من متاعب في توفير الغذاء لأسرته.

ثمة مناقشة جادة للعلاقة بين سوق الآثار وعمليات نهب المواقع الأركيولوجية قام بها سيدني ـكيرك باتريك (Sidney Kirk– Patrick)[1] 1992) في مؤلفه الموسوم «سادة سيبان: حكاية من مقابر ثقافات ما قبل الإنكا، والأركيولوجيا، والجريمة». إذ يوثّق هذا الكتاب كيف اكتشف النهابون قبراً ملكياً نادراً يعود لإله من الموتش وسلبوه، وكيف وجدت القطع المنهوبة طريقها في نهاية المطاف إلى السوق الفني بولاية كاليفورنيا الجنوبية. كما يصف الكتاب الجهود التي تبذلها الحكومة البيروفية لاسترجاعها والصعوبات القانونية التي تنطوي عليها مسألة تحديد الطرف المالك لهذه الأشياء.

ليس هواة جمع القطع الآثارية والتجار هم وحدهم من يقع عليهم اللوم. ذلك أن المتاحف أيضاً في كثير من الأحيان أقل حذراً في التحقق من مشروعية الأشياء التي تشتريها. فهناك جملة من التقارير الإخبارية، التي ظهرت حديثاً، تحدثت عن تورط بعض أكثر متاحف العالم شهرة في اقتناء أشياء مشكوك فيها. عليه، لا يتحمل النهابون في نهاية المطاف اللوم على تدمير موارد العالم الأركيولوجية؛ بل يتحمله في الواقع من يطلب هذه الأشياء، في القطاعين الخاص والعام على حد سواء.

ما الذي يمكن فعله؟

نتيجة للمشكلات المرتبطة بنهب المواقع وعلاقتها بتجارة الآثار، أبرمت اتفاقيات

(1) سيدني د. كيركباترك Sidney D. Kirkpatrick (ولد في العام 1955، الولايات المتحدة) حائز على جائزة صناعة الفيلم الوثائقي، وأحد أفضل المؤلفين التاريخيين مبيعاً. من أبرز أعماله الوثائقية: «والدي الرئيس» (1982)، تروي فيه ابنة الرئيس الأمريكي روزفلت، إيثل ديربي، طفولتها. فضلاً عن تأليفه كتباً تاريخية (م).

للسيطرة على الاتجار بالآثار. لكن للأسف إن تباين تفسيرات الاتفاقيات في بلدان معينة قد قلل من فائدتها. فعلى سبيل المثال، قضت اتفاقية منظمة الثقافة والعلوم والتربية في الأمم المتحدة في 1970 المتعلقة بالتدابير الواجب اتخاذها لحظر ووقف الانشطة غير المشروعة في استيراد وتصدير ونقل ملكية الممتلكات الثقافية، أن يُحظر على البلدان استيراد القطع المسروقة من الدول الأخرى التي وقعت على المعاهدة. ومع ذلك، فإن تشريعات الولايات المتحدة صاغت في الواقع من مبادئ الاتفاقية قانوناً ينص على وجوب تقديم إثبات على أن الشيء «المسروق» كان ملكاً لمتحف محدد، أو وكالة حكومية، أو كنيسة (فيتيلي Vitelli 1984:151). وتفسير هذا القانون يلغي غطاء المطالبة التي تتقدم بها العديد من بلدان أمريكا اللاتينية، بما فيها بيرو، بكل المواد المأخوذة من بلدانها. وبموجب هذا التفسير، لم تُرجع العديد من الأشياء المنهوبة من المقابر الملكية في موقع سيبان Sipán[1] إلى بيرو، بل أعيدت إلى تاجر ولاية كاليفورنيا، الذي باعها في ما بعد كما يحلو له (كيركباتريك Kirkpatrick 1992: 193).

لكن المتاحف أصبحت الآن أكثر صرامة في التحقق من أن الأشياء التي ترغب في شرائها مشروعة وليست منهوبة. فهي تراجع سياساتها في اقتناء الآثار، وتتفحص بدقة المصادر التي تحصل منها على القطع الفنية. ولهذه التدابير أثر طيب في إثارة السؤال عن متى، وكيف، وعلى يد مَنْ تدخل القطع الأثرية سوق الفن.

وفيما يبدو أن القضايا القانونية معقدة، كانت استجابة الجمعيات الأركيولوجية المهنية في الولايات المتحدة واضحة: على الأركيولوجيين جميعاً أن يدعموا ويمتثلوا للاتفاقية بصيغتها المعتمدة في العام 1970، وليس بالصيغة التي شرعها الكونغرس الأمريكي في 1983 (جمعية الأركيولوجيين المهنية Society of Professional Archaeologists 1984: 22–24).

إن الإجابة عن معضلة تدمير المواقع الأثرية بوساطة النهب ينبغي أن تقلل في نهاية المطاف من مستوى الطلب على القطع الأثرية (كوتشكا Koczka 1990: 191). لكن يبدو أن هذا الأمر غير محتمل. ففي الحقيقة، استمر تزايد الطلب على الآثار، وتزايدت معه

(1) سيبان Sipán موقع أركيولوجي ينتمي إلى ثقافة الموتش Moche في شمال بيرو يشتهر بضمه قبر إيل سينيور دي سيبان El Señor de Sipán (سيد سيبان)، حفره والتر ألفا Walter Alva. ويعد الموقع من أكثر المكتشفات الأركيولوجية في السنوات الثلاثين الأخيرة، لأن القبر الرئيس وجد سليماً لم تخربه أيدي السراق (م).

الأسعار المدفوعة ثمناً لها. كما لا يظهر أن زيادة إنفاذ القانون للحيلولة دون عمليات النهب خيار قابل للتطبيق، بسبب من أن: أعداد أفراد الشرطة المطلوبين لتنفيذ دوريات في أية منطقة من مناطق بيرو بنحو فعال، مثلاً، ستكون هائلة، وتتجاوز بكثير قدرة البلد على دفع أجور هذه الحماية.

لذا فالإجابة عن قضية النهب تتمثل في أن على كل فرد أن يكون مسؤولاً عن حماية المواقع الأثرية. فلا يكفي أن نلقي بجهد حماية موارد العالم الأركيولوجية على عاتق وكالات الشرطة وحدها. فمن واجب الجميع أن يفعلوا كل ما في وسعهم للمساعدة في توفير الحماية. وكما ذكر خايمي ليتفاك كنغ Jaime Litvak King ((1990: 199، عالم الآثار المكسيكي، إن «الممتلكات الثقافية ليست ملكاً مطلقاً لبلد معين، أي بلد كان بعينه، ولا يمكن أن يُزعَم بأنها كذلك. إنما هي ملك للبشرية جمعاء لأنها تمثل إنجاز مجموعة من البشر لا يمكن عزله عن إنجازات بشر آخرين، في أماكن جغرافية أخرى». فإذا كان الحال كذلك، فمن مسؤوليتنا أيضاً الحفاظ على ما خلفه البشر جميعاً من أزمنة خلت.

كيف يمكن القيام بذلك؟ ماذا يمكن للمواطن العادي أن يفعله للحيلولة دون نهب المواقع الآثارية وتدميرها؟ الشيء الأول هو الامتثال لقوانين البلد الذي يعيش فيه أو يزوره. ففي الولايات المتحدة، القانون الرئيس الساري هو قانون حماية الموارد الأركيولوجية للعام 1979. وهذا القانون يحظر نقل أي مصدر أركيولوجي (مثل موقع آثاري أو أشياء آثارية من موقع معين)، أو إحداث ضرر فيه، من دون الحصول على تصريح، سواء أكان الموقع على أراض عامة أم على أراضي الأمريكيين الأصليين. كما يحظر هذا القانون بيع أو شراء أو تبادل أي من تلك المواد الأثرية، إذا استحصلت على نحو غير مشروع. وتشمل عقوبات خرق هذا القانون غرامات تصل إلى 10,000 دولار و/ أو السجن لمدد تصل إلى عام واحد، أو أكثر، إذا كان الشخص المدان قد ارتكب الجريمة نفسها أكثر من مرة. وتشمل هذه العقوبات، بطبيعة الحال، المواد الأثرية التي تعرض للبيع عبر الإنترنت. لذا ينبغي من المرء أن يتحرى مصادر المواد (من أين أتت) قبل شرائها، وإذا لم يتمكن البائع من التحقق من أن المادة الأثرية قد حيزت بنحو شرعي، فعلى المشتري أن يحجم عن شرائها.

هناك قوانين أخرى سارية في بلدان أجنبية، ينبغي أيضاً الامتثال لها. ففي بلدان

المكسيك وبيرو والإكوادور وغواتيمالا، حيث تعد جميع القطع الأثرية ممتلكات حكومية، من غير القانوني إخراج أية قطعة آثارية من البلاد. وغالباً ما يأتي سكان محليون من تلك البلدان إلى سياح يسألونهم عما إذا كانوا يودون شراء أواكا huaca؛ وعلى الرغم من أن الأشياء الأثرية جميلة وأسعارها معقولة لديهم، إلا أن شراءها وإخراجها من البلد مخالف للقانون. وعلى المرء أن يتذكر سبب ذلك الحظر: إذ عندما يباع شيء أثري، فهذا يشجع النّهاب على المضي والحفر بحثاً عن المزيد، مما يؤدي إلى مزيد من دمار المواقع الأركيولوجية. ثم أن في بلدان عدة، غالباً ما يمكن شراء نسخ جميلة كما الأصلية، وهذا يدعم الحرفيين المحليين، لا اللصوص.

هناك أشياء اخرى يمكن لأي شخص القيام بها فضلاً عن عدم شراء القطع الأثرية. ذلك أن أحد أكبر المشكلات التي تواجه العديد من الحدائق الوطنية في الولايات المتحدة هي حدوث ضرر عرضي أو غير مقصود في المواقع يسببه سياح يمشون في أماكن يفترض ألا يمشوا فيها، أو يتسلقون معالم أثرية (هايد Hyde 1992). على الرغم من أن الصعود إلى قمة سد ترابي في ساحة معركة تعدّ أمراً مغرياً، لكن لو حدث وفعل الجميع هذا لزال السد بسهولة ولم يعد شيئاً يذكر تقريباً. وبالمثل، ينبغي على المرء ألا يأخذ أبداً أي شيء من حديقة وطنية أو موقع أركيولوجي. فلربما يبدو أخذ شيء أثري صغير كتذكار، من قبيل رصاصة بندقية قديمة أو قطعة فخارية، شيئاً غير ضار، لكن عندما يأخذ أناس كثيرون الشيء نفسه، ستتناقص كمية ما يبقى ليتاح لآخرين تقييمها ومن ثم فرصة دراستها على أيدي أركيولوجيين لمصلحة الجميع.

يتضمن الأمر الأخير ما يسمى بفعل جمع رؤوس السهام غير الضار. فعلى الرغم مما ينطوي عليه فعل العثور على رؤوس سهام من إثارة (وكذلك جمع سنان رماح، وفخاريات، وتقريباً أي شيء آخر قديم)، على المرء أن يتذكر أن أية قطعة معلومات، من أي موقع أثري، لها قيمة معينة، وأن سياق القطعة الأثرية يعدل قيمتها نفسها. وأن نزعه من مكانه يتسبب بخسارة صغيرة لكنها مهمة في فهم مجتمع ذلك الموقع. لذا من الأفضل أن نتذكر ببساطة موضع الموقع وإبلاغ أي أركيولوجي بذلك. ويوجد في العادة أركيولوجي في معظم الكليات والجامعات المحلية.

ثمة شيء آخر بإمكان أي أحد القيام به وهو الانضمام لجمعية تدعم المواقع الأركيولوجية

وتحافظ عليها. ولدى كل ولاية أمريكية تقريباً جمعية أركيولوجية قد تتوافر على فروع محلية في عموم بلدات الولاية. وغالباً ما تجتمع الفروع المحلية مرة في الشهر أو نحو ذلك لتوفير محاضرين بشأن موضوعات في دائرة اهتمام أعضائها. زد على ذلك، ترعى فروع عدة حفريات أركيولوجية في شهور الصيف تتيح فرصاً لتعلم كيفية الحفر الأثري بصورة سليمة ومدروسة. كما توفر الحفريات فرص العثور على قطع أثرية، وهذه من أكثر مراحل الأركيولوجيا إثارة!

علاوة على ذلك، هناك منظمات وطنية تعزز قيمة الأركيولوجيا. وأكبر تلك المنظمات في الولايات المتحدة هي الجمعية الأركيولوجية الأمريكية والمعهد الأركيولوجي الأمريكي. وكلتاهما تستثمران اشتراكات العضوية في نشر مجلات علمية (مثل العصور الأمريكية القديمة American Antiquity، وعصور أمريكا اللاتينية القديمة Latin American Antiquity، وكلتاهما تصدران عن الجمعية الأولى، و الأركيولوجيا Archaeology، التي تصدر عن المعهد)، كما تدعم المنظمتان المشاريع والتشريعات التي تحمي الموارد الأركيولوجية، في أمريكا وجميع أنحاء العالم. ويتاح لأي شخص الانضمام لأي منهما. وعنوان الجمعية الأركيولوجية الأمريكية هو:

Second Street NE #12, Washington, DC 20002-3560 (telephone: (202) 900
.(789-8200; Web: http://www.saa.org; e-mail: membership@saa.org

وعنوان المعهد الأمريكي الأركيولوجي هو:

(617) :telephone) 2006—02215 6th Floor، Boston، MA ،Beacon Street 656
Web: http://www.archaeological.org; e—mail: ;6550—353 (617) :fax ;9361—353
.)aia@aia.bu.edu or membership® aia.bu.org

النتائج المترتبة على التقاعس في قضية الآثار

ما النتائج المترتبة على عدم فعل شيء؟ هناك نتيجة واحدة هي تدمير معظم، إن لم يكن كل، المواقع الأثرية في العالم، وربما حتى في حياتنا، أو بالتأكيد في حياة أبنائنا. إذ أشارت دراسة أجريت في العام 1975 إلى أن من 80 إلى 90٪ من المواقع في ولاية يوتا Utah

بمقاطعة سان خوان San Juan لم يلحق بها ضرر جوهري، لكن بحلول العام 1985، لم يبق منها سليماً سوى 10 إلى 20٪ (ذكره كوتشكا Koczka 1990: 187). أما عمليات النهب في منطقة المايا Maya في أمريكا الوسطى فمن السوء لدرجة أن جورج ستيوارت George Stuart، وهو متخصص في حضارة المايا يعمل لحساب الجمعية الجغرافية الوطنية National Geographic Society، يشك في وجود موقع مايا لم يتعرض للنهب بنحو ما (غيلمور Gilmore 1990). ويمكن سماع مثل هذا القصص من أي أركيولوجيين يعملون في أي بلد في العالم تقريباً.

يعتور السجل الأركيولوجي نقص كبير: ذلك أن نزراً قليلاً من القطع الأثرية التي كانت تستعملها مجتمعات قديمة، حفظت لأركيولوجيين ليدرسوها. بالإضافة إلى ذلك، تدمر قوى الطبيعية، مثل الأنهار والجداول والسواحل، المواقع التي كانت بقربها. فقد دفنت مواقع عدة بفعل ترسبات التربة أو الصخور، وبالتالي اختفت. ثم إن حجم المواد الأثرية الموجودة حالياً التي خلفتها ثقافات الماضين لتخضع للدرس تدنى إلى نسبة ضئيلة. وهذا ما يجعل أي جزء منها قيماً.

ماذا لو لم يكن هناك مواقع أثرية؟ لعلنا لم نكن لنعرف ما قد عرفناه أصلاً، على ضآلته. ولو تدمر ما بقي من مواقع الإنكا الأثرية، لما بدت حاجة كبيرة لتحديث هذا الكتاب في المستقبل، لأنه لن تكون هناك أية معلومات أركيولوجية جديدة يوفرها. لكننا لا نعرف إلاّ الشيء الضئيل من التاريخ البشري، وأقل منه عن الثقافات الغريبة المبهرة، التي سبقتنا ومنها تطور مجتمعنا في نهاية المطاف.

ليس عمر نظم الكتابة سوى قرابة خمسة آلاف عام. لذا فإن ما يزيد عن 99٪ من التطور الثقافي قد حدث قبل أن يجد البشر وسيلة لتدوين التاريخ من أجل المستقبل. ومن دون علم الأركيولوجيا والمواقع الأركيولوجية، التي يركز هذا العلم عنايته عليها، لكانت معرفتنا بتطور ماضينا قليلة. وفيما يتعلق بهذا الكتاب، فإننا نود معرفة شيء ما عن الإنكيين من السجلات الإسبانية المبكرة، لكننا لم نكن نريد معرفة ما إذا كانت تلك السجلات دقيقة. وبودنا معرفة شيء عن الثقافات المذهلة التي وجدت قبل عهد الإنكيين: الموتش Moche، والأواري Huari، والنازكا Nazca، والتشيمو Chimu، على سبيل المثال لا الحصر.

إن إحدى خصائص جنسنا البشري تتمثل بالفضول لمعرفة العالم. وأحد الأمور التي نجدها جميعاً مدهشة حقاً هو تاريخنا: من أين أتينا؟ لكن الماضي هش رقيق، وعلينا جميعاً أن نعمل للحفاظ عليه. وبالتالي، فإن عاقبة عدم فعلنا شيء للحفاظ عليه هي غياب التراث الغني بما يعنيه في أن يكون نتاجاً بشرياً.

إقامة صلة بما مضى

1. ماذا كنت ستفعل لو رأيت تحفاً في أكوام تراب حفرت لإقامة مبنى جديد؟
2. اكتب مقالاً عما تود أن يحدث، لو كنت رئيساً، لحماية مواقع أركيولوجية.

مسرد

الأكونا acllaconas النساء المنتخبات، طبقة خاصة من العاملات اللواتي كن يصنعن القماش والجعة، وغيرها من المنتجات للإمبراطورية في أقسام خاصة من المراكز الإدارية الإنكية.

اللّبن adobe طابوق طيني.

الألباكا alpaca حيوان داجن من عائلة الجمليات يعيش في أمريكا الجنوبية، مع حيوان اللاما، يربى لصوفه الناعم، الذي يستعمل في نسج القماش.

التيبلانو Altiplano أراض مرتفعة ومنبسطة تقع حول بحيرة تيتيكاكا في جنوب شرق بيرو وشمال غرب بوليفيا.

أموتا amautas معلمون في المدرسة الإنكية للشبان في كوزكو. كما أنه مصطلح يستعمل للإشارة إلى أي رجل حكيم.

أمازونيا Amazonia المنطقة الواسعة المنخفضة، التي تشكل حوض نهر الأمازون. وتغطي جزءاً كبيراً من شمال ووسط أمريكا الجنوبية، من جبال الأنديز غرباً إلى المحيط الأطلسي شرقاً.

أنتيسويو Antisuyu الجزء الشرقي من إمبراطورية الإنكا.

أبّو apo الشخص المسؤول عن أحد أحياء إمبراطورية الإنكا. وكان في العادة من أقارب الملك المقربين.

الأركيولوجيا archaeology [علم الآثار] جملة تقنيات وإجراءات تستعمل لإعادة بناء الثقافات الماضية من بقاياها.

أدوات بشرية artifact [من صنع البشر] أية قطعة صنعها البشر أو حوّرها لتكون في خدمته.

أريبالو aryballo وعاء خزن كبير مسنن القاعدة وله عنق طويل مشرئب.

أيلو ayllu مجموعة من أفراد أقارب وأُسر يتناوبون في العمل ويتعاونون في معاشهم وأنشطتهم الطقسية.

أيمارا Aymara مصطلح يشير إلى كل من اللغة والثقافة والسكان الأصليين في منطقة بحيرة

تيتيكاكا.

أيموراي Aymoray الاحتفال بحصاد محول الذرة، يعقد في شهر يتوافق مع مايو.

جسر بيرنغ البري Bering land bridge مساحة مضيق بيرنغ الحالي، الذي يفصل شرق روسيا عن آلاسكا. وكانت هذه المنطقة، خلال العصر الجليدي الأخير، سهلاً معشوشباً لأن مستويات سطح البحر كانت أدنى مما عليه الآن.

كالانكا callanca بناية إنكية طويلة مستطيلة الشكل، لها أبواب متعددة في كثير من الأحيان.

كامايوك camayoc شخص متخصص ببعض النشاط، من قبيل قراءة الكيبو أو صناعة حرفيات معينة.

كانتشا cancha مجمع إنكي يتكون من ثلاثة مبانٍ أو أكثر مستطيلة الشكل حول فناء مفتوح، وكلها محاطة بسور.

كاباك أوتشا Capac Hucha احتفال إنكي مهيب يشتمل على أنشطة مرتبطة بعقيدة الإنكا وإمبرياليتهم.

كاباك رايمي Capac Raymi سلسلة من الطقوس المهمة التي تقام في وقت يوافق شهر ديسمبر، بما فيها طقوس بلوغ الذكور.

سيخا دي لا مونتانيا Ceja de la Montaña [حاجب (عين) الجبل] التلال السفحية الشرقية من الأنديز في الإكوادور وبيرو، حيث تنحدر الجبال إلى الأمازونيا. وبيئتها حارة رطبة تملؤها أحراش كثيفة.

نظام السيك ceque system مجموعة من خطوط مستقيمة وهمية تبدأ من كوريكانتشا في كوزكو على طول مواضع كانت فيها أواكا مهمة تستعمل في التقويم الليلي الذي يتكون من 328 يوماً.

ساحة احتفالات ceremonial center مكان يتجمع فيه الناس من منطقة واسعة في أيام مقدسة معينة يتعبدون فيها، لكن يحضرها عدد قليل من سكانها المقيمين فيها من الكهنة ومساعديهم.

تشان تشان Chan Chan عاصمة مجتمع تشيمو، وتقع بالقرب من تروخيو الحديثة.

تشاركي charqui لحم مجفف مجمد.

تشاسكي chasqui رسول نظام الطرق الإنكي.

تشافن Chavin تسمية تطلق على أسلوب فني وعقيدة دينية تتعرف بهذا الأسلوب الفني. يعود تاريخها إلى حقبة الأفق المبكر.

تشيتشا chicha جعة، تصنع في العادة من الذرة، لكن بالإمكان استعمال حبوب أخرى أو فاكهة في صنعها.

تشيمو Chimu ثقافة ذات سطوة وجدت في ساحل بيرو الشمالي خلال الحقبة الانتقالية المتأخرة. كانت تشتهر بمجمعاتها التي تحيط بها أسوار ضخمة، وكانت تستعمل كمراكز إدارية ومقرات لملوكهم على حد سواء، كما تشتهر بفخارياتها سوداء اللون.

تشينتشايسويو Chinchaysuyu الجزء الشمالي من إمبراطورية الإنكا. وكان هو وكولاسويو Collasuyu اكبر أجزاء الإمبراطورية، في مستوى المساحة وعدد السكان.

النساء المنتخبات (الأكلاكونا acllaconas) طبقة خاصة من العاملات اللواتي كن يصنعن القماش، والجعة، وغيرها من المنتجات للإمبراطورية في أقسام خاصة من المراكز الإدارية الإنكية.

تشولبا chullpas مباني دفن، عادة ما تكون على شكل برج في طابقين.

تشونيو Chuño بطاطا مجففة مجمدة.

شيوداديلاس ciudadelas المجمعات الكبيرة المحاطة بأسوار التي يسكنها حكام التشيمو Chimu في تشان تشان Chan Chan.

كوكا coca نبات موطّن يزرع لأوراقه، التي تُمضَغ مع الليمون لتخفيف الإحساس بالتعب والجوع والعطش.

كولاسويو Collasuyu الجزء الجنوبي من إمبراطورية الإنكا. وكان هو وتشينتشايسويو Chinchaysuyu أكبر أجزاء الإمبراطورية، في مستوى المساحة وعدد السكان.

حقبة فتح الكيتشوا Conquest Quechua Period المدة الزمنية بين العام 1532 إلى العام 1572 ب. م بوصفها وقت تحول بعد الفتح الإسباني، الذي نجم عن فرض السياسات الكولونيالية وممارساتها.

فاتحون [غزاة] conquistadores كلمة اسبانية. وتشير هنا إلى الإسبان [الشعب الاسباني] في عهد فرانسيسكو بيذارو Francisco Pizarro، الذي هزم الإنكيين.

سياق context المعلومات التي تقترن بشيء أثري ما خلال عملية الحفر، ويشمل أشياء أثرية أخرى، وخصائص التربة، وبقايا المباني.

كوريكانتشا Coricancha أكثر معبد أهمية في كوزكو. وكان يدعى «معبد الشمس» ويضم أيضاً صوراً أخرى عن آلهة أخرى.

كوريجيدور corregidor شخص مسؤول عن الكوريجيمينتو corregimiento [قضاء إداري].

كوريجيمينتو corregimiento سياسة استعمارية اسبانية أُعتمدت في القرنين السادس عشر والسابع عشر بدلاً عن نظام الانكوميندا encomienda. وضعت هذه السياسة عمالة السكان الأصليين بأيدي سلطات التاج الإسباني، بدلاً من سلطة الأفراد الخاصة.

كويا coya زوجة ملك الإنكا. وفي سنوات الإمبراطورية الأخيرة، كان يقتضى أن تكون أختاً شقيقة له.

تخصص حرفي craft specialization صناعة حرفيات ـ فخاريات، مجوهرات، أقمشة، زينة، أدوات حجرية، وما شابه ـ بيد متخصصين متفرغين تماماً لصناعة الحرفيات.

كومبي cumbi أرقى أنواع القماش.

كونتيسويو Cuntisuyu الجزء الغربي من إمبراطورية الإنكا.

كوراكا curaca منصب إداري مع مسؤولية من اجل السيطرة على عدد معين من الأسر. وكان هناك كوراكا لمجموعات تتكون من 10,000، و5,000، و1,000، و500، و100 أسرة.

كوراكا (مقام اجتماعي) curaca (status) المنزلة الاجتماعية الوسطى في إمبراطورية الإنكا، التي تتألف من الكوراكا وأسرهم.

معالجون curers أفراد كانوا يزعمون أنهم يتصلون بالأرواح وتخبرهم بكيفية معالجة العلل.

آلهات deities أرباب.

كهانة divination محاولة للتنبؤ بما سيحدث في المستقبل.

تقسيم العمل division of labor النحو الذي به يقسم مجتمع ما أنشطة أفراده، مثلاً، حسب العمر أو الجنس أو المهنة.

موطَّن domesticated [أو مدجَّن] مصطلح يستعمل لوصف أي حيوان أو نبات يسيطر البشر على إنتاجه.

الحقبة الكولونيالية المبكرة Early Colonial Period الحقبة الزمنية الواقعة بين 1572 و 1650 ب. م عندما نُظِّم شعب الأنديز بنحو كبير تحت السيادة الإسبانية.

حقبة الأفق المبكر Early Horizon الحقبة الزمنية الواقعة بين 900 و 200 ق. م في الأنديز الوسطى البيروفية، عندما وجد نفوذ التشافن Chavin في مواقع في المرتفعات الشمالية وعلى طول الساحل.

الحقبة الانتقالية المبكرة Early Intermediate Period الحقبة الواقعة بين 200 ق. م و600 ب. م في الأنديز الوسطى البيروفية، عندما تباينت المجتمعات اثر اختفاء عبادة التشافن.

اقتصاد economy إدارة موارد مجتمع ما، بما في ذلك أسلوب أفراده في إنتاج وتوزيع الغذاء، والمواد الخام، والسلع المصنعة.

النخب elites أفراد من مقام اجتماعي عال في مجتمع معين.

إنكومينديرو encomendero فرد مسؤول عن منح إكوميندا encomienda.

إنكوميندا encomienda سياسة إسبانية كولونيالية اعتمدت في القرن السادس عشر. كانت تتمثل بمنح عُمّال من السكان الأصليين إلى مستعمر إسباني.

عقارات estate أراض ومبان متصلة بها كان يملكها شخص إنكي معين أو مؤسسة إنكية.

إيستادو estado وحدة قياس مساحة تعدل خمسة أقدام ونصف تقريباً.

القضاء على الوثنية extirpation of idolatry سياسة كولونيالية إسبانية في القرن السابع عشر كان غرضها القضاء على الممارسات الدينية المحلية جميعاً.

جيوغليف geoglyph رسم محفور على سطح الأرض.

غران تشاكو Gran Chaco منطقة مسطحة منخفضة تقع إلى الشرق من جبال الأنديز في بوليفيا وباراغواي والأرجنتين، جافة شتاءً، تغمرها المياه صيفاً.

أنانسايا Hanansaya الشِعْب الأعلى من الإنكيين.

مُصْطَلى hearth موقد.

الحقبة التاريخية Historical Period المدة الزمنية التي تبدأ من العام 1532 ب. م إلى وقتنا الحالي، عندما وصل الأوربيون إلى الأنديز وبدأ تدوين السجلات [التاريخية].

الأفق horizon اصطلاح أركيولوجي يشير إلى مدة من الزمن عندما توحدت مناطق معينة بسرعة نسبية بفعل تأثير ثقافي مشترك. ويتحدد الأفق بوجود مواد ثقافية متماثلة، من قبيل مصنوعات معينة أو رموز على فخاريات أو مبان، في مناطق مختلفة يعود تاريخها كلها إلى العصر نفسه تقريباً.

أواكا huaca مكان أو شيء ينطوي على قوى خارقة للطبيعة.

أواكيرو huaquero نهّاب [أو سارق] قطع آثارية.

اواري Huari ثقافة ذات سطوة بسطت سلطتها على الكثير من مناطق الأنديز البيروفية خلال الأفق الأوسط.

اورينسايا Hurinsaya الشِعْب الأدنى من الإنكيين.

اللابا Illapa إله الرعد، أو الطقس، لدى الإنكيين.

إنكا Inca مصطلح يشير عموماً إلى المجموعة الإثنية التي عاشت بالقرب من كوزكو، أصبحت القوة السياسية المهيمنة في الأنديز خلال حقبة الأفق المتأخر. ويمكن أن يشير أيضاً إلى الملك (الإنكا) أو الإمبراطورية التي أقامتها هذه المجموعة الإثنية.

الإنكيون دماً Inca by Blood مصطلح يشير إلى المجموعة الإنكية الأصلية التي أسست كوزكو.

الإنكيون امتيازاً Inca by Privilege مصطلح يشير إلى الجماعات الإثنية من غير الإنكيين التي عاشت بالقرب من كوزكو، وحصلت على امتيازات معينة بكونها إنكية، كمقابل لخدماتها الموالية للإمبراطورية.

إنكا (مقام اجتماعي) Inca (status) أعلى مرتبة اجتماعية في إمبراطورية الإنكا تشمل الإنكيين دماً والإنكيين امتيازاً.

الحقبة الأولية Initial Period المدة الواقعة بين 1800 و 900 ق. م في الأنديز البيروفية. تتميز بظهور الفخار.

سياسة المعاملة بالمثل المأسسة institutionalized reciprocity سياسة الإنكيين التي تتوقع من الشعوب المستعمرة العمل لديهم، لكن في مقابل تزويدهم بالخدمات والسلع والمواد الغذائية والملابس والجعة والكوكا وحتى الترفيه.

إنتي Inti إله الشمس لدى الإنكيين.

إنتي رايمي Inti Raymi مهرجان إله الشمس، كان يعقد في وقت يتوافق مع شهر يونيو.

إيتو Itu مراسم إنكية تقام لاسترضاء الأرباب إثر نزول كارثة طبيعية.

كاولين kaolin طين نقي أبيض، كانت ثقافة ريكواي Recuay تستعمله في صناعة الفخاريات خلال الحقبة الوسيطة المبكرة.

تقاليد كوتوش الدينية Kotosh Religious Tradition نسق معتقدات دينية في الحقبة ما قبل الفخارية والحقبة الأولية، ممثل بالغرف المغلقة مع فتحات تهوية تحت الأرض تؤدي إلى موقد في الوسط، حيث تحرق القرابين.

عامل (مقام اجتماعي) laborer (status) أدنى المراتب الاجتماعية في إمبراطورية الإنكا، وتشمل أفراد الشعوب المفتوحة الذين يوفرون الأيدي العاملة للإنكيين.

الأفق المتأخر Late Horizon الحقبة الواقعة بين 1438 و 1532 ب. م في الأنديز الوسطى البيروفية، عندما أقام الإنكيون إمبراطوريتهم.

الحقبة الانتقالية المتأخرة Late Intermediate Period الزمن الواقع بين 1000 و 1438 ب. م في الأنديز الوسطى البيروفية. وتتصف بأنها حقبة التمايز الثقافي بعد تدهور ثقافتي الأواري Huari وتياواناكو Tiahuanaco.

اللاما llama من الحيوانات الداجنة من عائلة الجمليات تعيش في أمريكا الجنوبية، مع حيوان اللاما. يستعمل كحيوان حمل.

لانوس دي موخوس Llanos de Mojos منطقة مسطحة منخفضة تقع إلى الشرق من جبال الأنديز في بوليفيا، جافة شتاءً، تغمرها المياه صيفاً.

لوكرو locro يخنة من لحم وبطاطا، وتشونيو Chuño، وخضراوات وفلفل حار.
لوماس lomas مروج يغطيها الضباب تمتد على طول ساحل بيرو وشيلي.
ماما ـ كوتشا Mama–Cocha (أو Mamacocha) آلهة البحر والماء لدى الإنكيين.
ماما كونا mamaconas نساء مكرسات يخدمن في المعابد الإنكية، وكذلك معلمات للاكونا acllncona.
ماما ـ كيلا Mama–Quilla آلهة القمر لدى الإنكيين.
ماما ذارا Mamazara آلهة الذرة.
مانكو كاباك Manco Capac مؤسس الشعب الإنكي وأول ملك عليه.
حقبة الأفق الأوسط Middle Horizon المدة الزمنية بين 600 و 1000 ب. م في الأنديز الوسطى البيروفية، التي تميزت بتوسع الأواري Huari والتياواناكو Tiahuanaco كقوى سياسية.
ميتا mit'a ضريبة العمالة الإنكية؛ الوقت المطلوب من جميع الناس المستعمرين للعمل في بعض الحرف لصالح الإمبراطورية.
ميتيما mitima الناس الذين يعيشون بعيداً عن مكان ولادتهم؛ الناس الذين نقلهم الإنكيون إلى منطقة أخرى لأسباب اقتصادية أو سياسية.
موتش Moche مجتمع قوي استوطن طول ساحل بيرو الشمالي في وقت مبكر خلال الحقبة الوسيطة المبكرة، اشتهروا بحرفهم الرائعة وديانتهم القائمة على أساس التضحية، وبشرب كهنة الموتش المحاربين دماء أسراهم في الحرب.
شِعْب moiety تقسيم مجتمع إلى جزأين. وكان الأيلو ayllus الإنكي ينقسم إلى شِعْب علوي وآخر سفلي.
موتيباتاسكا motepatasca يخنة تُعمل من ذرة وأعشاب وفلفل حار.
أساطير myths قصص أو خرافات تتعلق بأناس أو أحداث في الماضي، لا سيما تلك التي تحاول تفسير سبب وجود العالم أو الناس.
ناسكا Nasca مجتمع عاش على الساحل الأوسط الجنوبي خلال الحقبة الوسيطة المبكرة. وهم معروفون بفخارياتهم متعددة الألوان ورسومهم المحفورة geoglyphs على سطح الأرض (خطوط نازكا).

نازكا Nazca الوادي والمنطقة حيث قامت ثقافة ناسكا Nasca.

رُحَّل nomadic ــــــ مصطلح يشير إلى أية مجموعة تتنقل كثيرا من مكان لآخر خلال العام.

وسيط الوحي oracle ــــ شخص خارق يمكنه الإجابة عن أسئلة تطرح عن المستقبل.

باتشا ـــ ماما Pacha–Mama (أو باتشماما Pachamama) ـــ آلهة الأرض لدى الإنكيين.

بامبا pampa ــــ أية مروج متموجة واسعة.

باناكا panaca ــــ مجموعة من الإنكيين يعيشون متحدين مع بعضهم، يتكونون من زوجات ملك سابق، وأنسبائه، وذريته، باستثناء ولي عهده.

حقبة ما قبل الفخار Preceramic Period ـــــ المدة الزمنية من دخول البشر الى أمريكا الجنوبية حتى حوالي العام 1800 ق. م. وتتميز بالاستعمال الحصري للحجر، والخشب، والأدوات العظامية، وتطور توطين نباتات وتدجين حيوانات. ونحو نهاية هذه الحقبة، بدأ بناء معابد في مناطق معينة من بيرو.

مقاطعة province ـــــ وحدة إدارية في إمبراطورية الإنكا، عادة ما كانت تتطابق مع المنطقة التي تشغلها مجموعة أثنية مفتوحة.

بونا puna ـــــ المنطقة البيئية الواقعة على ارتفاع يزيد عن 3,500 متر (11,500 قدم). وهي منطقة زراعة محاصيل درنية ورعي.

كيرو qero ــــ كأس خشبية أو طاسة.

كيتشوا quechua ـــــ المنطقة البيئية الواقعة بين ارتفاع 1,500 و 3,500 متر (11,500 قدم). وهي منطقة معتدلة حيث تزرع العديد من المحاصيل الغذائية الرئيسة.

كيتشوا Quechua ــــ يستعمل هذا المصطلح للإشارة إلى لغة الإنكيين. وينطبق أيضا على جماعة أثنية عاشت شمال الإنكيين قبل يقيموا إمبراطوريتهم.

كيبو quipu ـــــ أداة من خيوط معقودة كان الإنكيون يستعملونها للحساب.

حقل مرفوع raised field ـــــ تقنية لزيادة الإنتاج الزراعي في مناطق التربة السبخة، أو في المستنقعات. فيها يحفرون خندقاً ويخرجون ترابه ويراكمونه على سطح التربة المجاور، فتتشكل مساحة عالية (هي الحقل) ومساحة سفلى (تستعمل

كقناة) بجوارها.

تخفيض Reduction ـــــــ سياسة إسبانية كولونيالية في القرن السادس عشر، بموجبها كان السكان الأصليون ينقلون من قراهم التقليدية المتناثرة بين الحقول، ويوضعون في مستوطنات من تصميم إسباني.

ساكتشاوامان Sacsahuaman ـــــ المجمع المعماري الهائل الواقع على تل ضخم إلى الشمال من كوزكو.

سايا saya ـــــ وحدة إدارية في إمبراطورية الإنكا، تتكون من 10,000 أسرة.

شيكرا shicra ـــــ كيس منسوج من شبكة فضفاضة، كانت تستعمل في حقبة ما قبل الفخار لنقل مواد البناء.

تنظيم اجتماعي social organization ـــــ مصطلح يشير إلى أنماط السلوك التي تحكم التفاعلات بين الأفراد، بما فيها تحديد الشخص المؤهل للزواج، ومكان عيش الأزواج الجدد، وتعريف العائلة، والسلوك المناسب مع النسيب أو الصهر، وما إلى ذلك.

سحرة sorcerers ـــــ أفراد كانوا يدّعون القدرة على التحدث مع الأرواح، لذا كانوا موضع استشارة عن وقت حاجة شخص معين إلى مساعدة خارقة.

تاوانتينسويو Tahuantinsuyu ـــــ مصطلح كان الإنكيون يستعملونه للإشارة إلى إمبراطوريتهم، ويعني «أرض المناطق الأربع.»

تامبو tambo ـــــ مستوطنة صغيرة تقع على طول طريق الإنكيين الرئيس، كانت تستعمل كمأوى للمسافرين ولأغراض أخرى.

مصطبة terrace ـــــ حقل يُسّوى صناعيا يستعمل لزيادة مساحة الأراضي الزراعية في مناطق شديدة الانحدار. وتبنى المصطبة بتشييد جدار إسنادي عبر منحدر التل، ثم تملأ المنطقة المائلة العليا بالتراب حتى يكون مستوى سطحها بمستوى أعلى الجدار.

نسيج textile ـــــ خيوط محبوكة.

تياواناكو Tiahuanaco ـــــ ثقافة ظهرت في الحقبة الانتقالية المبكرة وحقبة الافق الأوسط، كانت تستوطن بوليفيا، جنوب بحيرة تيتيكاكا. تشتهر بعاصمتها،

التي كانت تسمى ايضا تياواناكو، حيث وجدت العديد من النصب الحجرية والبوابات. وتطورت على أساس زراعة الحقول العالية والتجارة مع المناطق المحيطة بها.

توبو topo ـــــــ وحدة إنكية لقياس المساحة تتطابق تقريباً مع 0,8 من الفدان. كما كانت تستعمل كمقياس خطي يتطابق مع مسافة 4,5 ميل.

فتح جمجمة trepanation ـــــــ ممارسة إنكية وما قبل إنكية في فتح جمجمة مصاب لكشف دماغه. ومن المرجح أن الغرض من ورائها كان إخراج الأرواح الشريرة التي كانوا يعتقدون بدخولها في الجمجمة.

درنة tuber ـــــــ جزء من نبات يتكثف أو يتضخم تحت التربة، مثل البطاطا والبطاطا الحلوة.

توبو tupu ـــــــ دبوس معدني كبير تستعمله النساء الإنكيات لعقد العباءة حول أكتافهنّ.

اوشنو ushnu ـــــــ منصة مركزية في ميدان إنكي تستعمل في احتفالات، كمنصة استعراض، أو كموضع اجتماع.

فالديفيا Valdivia ـــــــ أولى الفخاريات التي استعملتها ثقافة في أمريكا الجنوبية، يعود تاريخها الى حوالي 3000 ق. م. عاشت على ساحل المحيط الهادئ والمناطق الداخلية من شبه جزيرة سانتا إيلينا Santa Elena في الإكوادور.

فيراكوتشا Viracocha ـــــــ أكبر أرباب الإنكيين وأكثرهم أهمية. وكانوا يظنون انه هو خالق العالم.

ياناكونا yanacona ـــــــ خدم وكادر وصيفات الطبقة النبيلة.

يونغا yunga ـــــــ المنطقة البيئية الواقعة على ارتفاع أدنى من 1,500 متر. وهي منطقة حارة وجافة، حيث تتطلب ريها كي تزرع.

ببليوغرافيا مختارة

PRINT SOURCES AND ONLINE ARTICLES

Allen, Catherine. 1988. *The Hold Life Has.* Washington, DC: Smithsonian Institution Press.

Alva, Walter. 1988. Discovering the New World's richest unlooted tomb. *National Geographic Magazine* 174(4): 510–49.

Alva, Walter. 1990. New tomb of royal splendor. *National Geographic Magazine* 177(6): 2–15.

Ascher, Marcia, and Robert Ascher. 1981. *Code of the Quipu.* Ann Arbor: University of Michigan Press.

Aveni, Anthony. 1997. *Stairways to the Stars: Skywatching in Three Great Ancient Cultures.* New York: John Wiley.

Aveni, Anthony. 2001. *Skywatchers.* Austin: University of Texas Press.

Aveni, Anthony, and Gary Urton. 1982. *Ethnoastronomy and Archaeoastronomy in the American Tropics.* New York: New York Academy of Sciences.

Barker, Alex. 2000. Ethics, e-commerce and the future of the past. *SAA Bulletin* 18(1): 13.

Bauer, Brian. 1992. *The Development of the Inca State.* Austin: University of Texas Press.

Bauer, Brian. 1998. *The Sacred Landscape of the Inca: The Cuzco Ceque System.* Austin: University of Texas Press.

Bauer, Brian, and David Dearborn. 1995. *Astronomy and Empire in the Ancient Andes: The Cultural Origins of Inca Skywatching.* Austin: University of Texas Press.

Bauer, Brian, and R. Alan Covey. 2002. Processes of state formation in the Inca heartland (Cuzco, Peru). *American Anthropologist* 104(3): 846–64.

BBC News. 2008. Machu Picchu ruin "found earlier." http://news.bbc.co.uk/go/pr/fr/-/2/hi/americas/7439397.stm.

Bensongyles, Anna, producer. 1979. *The Incas*. Odyssey Series. VHS. Washington, DC: PBS Video.

Betanzos, Juan de. 1996. *Narrative of the Incas*. Translated and edited by Roland Hamilton and Dana Buchanan from the Palma de Mallorca manuscript. Austin: University of Texas Press.

Bingham, Hiram, III. 1913. The discovery of Machu Picchu. *Harper's Magazine* 127: 700–19.

Bingham, Hiram, III. 1915. The story of Machu Picchu. *National Geographic* 27: 172–217.

Bingham, Hiram, III. 1930. *Machu Picchu, a Citadel of the Incas*. New Haven: Yale University Press.

Bingham, Hiram. 1948. *Lost City of the Incas: The Story of Machu Picchu and Its Builders*. New York: Hawthorne Books.

Bruhns, Karen O. 1994. *Ancient South America*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brush, Stephen. 1977. *Mountain, Field, and Family: The Economy and Human Ecology of an Andean Valley*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Burger, Richard L. 1988. Unity and heterogeneity within the Chavin horizon. In *Peruvian Prehistory*, edited by Richard Keatinge, 99–144. Cambridge: Cambridge University Press.

Burger, Richard L. 1992. *Chavin and the Origins of Andean Civilization*. New York: Thames and Hudson.

Burger, Richard L. 2004. *Machu Picchu: Unveiling the Mystery of the Incas*. New Haven, CT: Yale University Press.

Burger, Richard L. 2004. Scientific insights into daily life at Machu Picchu. In *Machu Picchu: Unveiling the Mystery of the Incas*, edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 84–106. New Haven, CT: Yale University Press.

Burger, Richard L. 2007. The archaeology of Inka power: Concluding thoughts. In *Variations in the Expression of Inka Power*, edited by Richard Burger, Craig Morris, and Ramiro Matos Mendieta, 423–35. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Burger, Richard L., and Lucy Salazar, eds. 2003. *The 1912 Yale Peruvian Expedition Collections from Machu Picchu: Human and Animal Remains*. Yale University Publications in Anthropology 85. New Haven, CT: Department of Anthropology, Yale University and the Division of Anthropology, Peabody Museum of Natural History.

Burger, Richard L., and Lucy Salazar-Burger. 1980. Ritual and religion at Huaricoto. *Archaeology* 33(6): 26–32.

Cieza de León, Pedro de. 1967 [1551]. *El Senorio de los Incas; 2a.parte de la Crónica del Peru*. Lima: Instituto de Estudios Peruanos.

Cieza de León, Pedro de. 1984 [1553]. *Crónica del Peru: primera parte*. Lima: Fondo Editorial de la Pontificia Universidad Católica del Peru, Academia Nacional de la Historia.

Cieza de León, Pedro de. 1987 [1551]. *Crónica del Peru: tercera parte*. Lima: Fondo Editorial de la Pontificia Universidad Católica del Peru, Academia Nacional de la Historia.

Cleere, Henry F., ed. 1989. *Archaeological Heritage Management in the Modern World*. London: Unwin Hyman.

Cobo, Bernabé. 1890–1895 [1653]. *Historia del Nuevo Mundo*. 4 vols. Published for the first time with notes and other illustrations by Don Marcos Jiménez de la Espada. Seville, Spain: Sociedad de Bibliófilos.

Cobo, Bernabé. 1979 [1653]. *History of the Inca Empire*. Translated and edited by Roland Hamilton. Austin: University of Texas Press.

Cobo, Bernabé. 1990. *Inca Religion and Customs*. Translated and edited by Roland Hamilton. Austin: University of Texas Press.

Conrad, Geoffrey, and Arthur Demarest. 1984. *Religion and Empire: The Dynamics of Aztec and Inca Expansion*. New York: Cambridge University Press.

Cook, David Noble. 1981. *Demographic Collapse: Peru, 1520–1620*. Cambridge: Cambridge University Press.

D'Altroy, Terence. 1992. *Provincial Power in the Inka Empire*. Washington, DC: Smithsonian Institution Press.

D'Altroy, Terence. 2002. *The Incas*. Malden, MA: Blackwell.

D'Altroy, Terence, Veronica Williams, and Ana Maria Lorandi. 2007. The Inkas in the southland. In *Variations in the Expression of Inka Power*, edited by Richard L. Burger, Craig Morris, and Ramiro Matos Mendieta, 85–134. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Day, Kent C. 1982. Ciudadelas: Their form and function. In *Chan Chan: Andean Desert City*, edited by Michael E. Moseley and Kent C. Day, 55–66. Albuquerque: University of New Mexico Press, School of American Research.

Dearborn, David S. P., and Katharina J. Schreiber. 1989. Houses of the rising sun. In *Time and Calendars in the Inca Empire*, edited by Mariusz S. Ziolkowski and Robert M. Sadowski, 49–74. International Series 479. Oxford: British Archaeological Reports.

Dearborn, David S. P., Katharina J. Schreiber, and Raymond E. White. 1987. Intimachay: A December solstice observatory at Machu Picchu. *American Antiquity* 52(2): 346–52.

Dearborn, David S. P., and Raymond White. 1982. Archaeoastronomy at Machu Picchu. In *Ethnoastronomy and Archaeoastronomy in the American Tropics*, edited by Anthony Aveni and Gary Urton, 249–60. New York: New York Academy of Sciences.

Denevan, William. 1987. Terrace abandonment in the Colca Valley, Peru. In *Pre-Hispanic Agricultural Fields in the Andean Region*, edited by William M. Denevan, Kent Mathewson, and Gregory Knapp, 1–44. International Series 359(i). Oxford: British Archaeological Reports.

Denevan, William M., Kent Mathewson, and Gregory Knapp, eds. 1987. *Pre-Hispanic Agricultural Fields in the Andean Region*. International Series 359. Oxford: British Archaeological Reports.

Donnan, Christopher, ed. 1985. *Early Ceremonial Architecture in the Andes*. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Donnan, Christopher. 1988. Unraveling the mystery of the Warrior Priest. *National Geographic Magazine* 174(4): 550–55.

Donnan, Christopher. 1990. Masterworks of art reveal a remarkable pre-Inca world. *National Geographic Magazine* 177(6): 16–33.

Earle, Timothy, Terence D'Altroy, Christine Hastorf, Catherine Scott, Cathy Costin, Glen Russell, and Elsie Sandefur. 1987. *Archaeological Field Research in the Upper Mantaro, Peru, 1982–1983: Investigations of Inka Expansion and*

Exchange. Monograph XXVIII. Los Angeles: University of California, Los Angeles, Institute of Archaeology.
Eaton, George. 1916. *The Collection of Osteological Material from Machu Picchu*. Memoirs of the Connecticut Academy of Arts and Sciences 5. New Haven, CT: Yale University Press.
Erickson, Clark. 1988. Raised field agriculture in the Lake Titicaca basin. *Expedition* 30(3): 8–16.
Feldman, Robert. 1987. Architectural evidence for the development of nonegalitarian social systems in coastal Peru. In *The Origins and Development of the Andean State*, edited by Jonathan Haas, Sheila Pozorski, and Thomas Pozorski, 9–14. Cambridge: Cambridge University Press.
Flores Ochoa, Jorge. 2004. Contemporary significance of Machu Picchu. In *Machu Picchu: Unveiling the Mystery of the Incas*, edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 108–23. New Haven, CT: Yale University Press.
Garcilaso de la Vega, El Inga. 1966 [1609]. *Royal Commentaries of the Incas and General History of Peru, Parts 1 and 2*. Translated by Harold V. Livermore. Austin: University of Texas Press.
Gasparini, Graziano, and Luise Margolis. 1980. *Inca Architecture*. Bloomington: Indiana University Press.
Gilmore, Jim, producer and director. 1990. *Plunder!* VHS. ABC News Frontline Series. Washington, DC: PBS Video.
Gose, Peter. 1993. Segmentary state formation and the ritual control of water under the Incas. *Comparative Studies in Society and History* 35(3): 480–514.
Green, Ernestene L., ed. 1984. *Ethics and Values in Archaeology*. New York: Free Press.
Grosboll, Sue. 1987. Ethnic boundaries within the Inca Empire. In *Ethnicity in Complex Societies*, edited by Reginald Auger, Margaret F. Glass, Scott MacEachern, and Peter H. McCartney, 115–25. Calgary: Archaeological Association of the University of Calgary, Alberta.
Grosboll, Sue. 1993. . . . And he said in the time of the Ynga, they paid tribute and served the Ynga. In *Provincial Inca : Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State*, edited by Michael A. Malpass, 44–76. Iowa City: University of Iowa Press.
Guaman Poma de Ayala, Felipe. 1936. *Nueva Corónica y Buen Gobierno (Codex Péruvien illustré)*. Travaux et Mémoires 23. Paris: Institut d'Ethnologie.
Guaman Poma de Ayala, Felipe. 1980. *El Primer Nueva Corónica y Buen Gobierno [1584–1615]*, edited by John V. Murra and Rolena Adorno. Translated by Jorge I. Urioste. 3 vols. Mexico City: Siglo Ventiuno.
Hanna, Joel. 1976. Drug use. In *Man in the Andes: A Multidisciplinary Study of the High-Altitude Quechua*, edited by Paul Baker and Michael Little, 363–78. Stroudsburg, PA: Dowden, Hutchinson, and Ross.
Hyde, Jim, producer and director. 1992. *Assault on Time*. VHS. Capitol Heights, MD: National Audiovisual Center.
Hyslop, John. 1984. *The Inka Road System*. New York: Academic Press.
Hyslop, John. 1990. *Inka Settlement Planning*. Austin: University of Texas Press.
Isbell, William H. 1993. Huari administration and the orthogonal cellular architecture horizon. In *Huari Administrative Structure*, edited by William H. Isbell and Gordon F. McEwan, 293–316. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Isbell, William H., and Alexei Vranich. 2004. Experiencing the cities of Wari and Tiwanaku. In *Andean Archaeology*, edited by Helaine Silverman, 167–82. Malden, MA: Blackwell.

Isbell, William H., and Gordon F. McEwan, eds. 1993. *Huari Administrative Structure*. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Jennings, Jesse, ed. 1983. *Ancient South Americans*. San Francisco: W. H. Freeman.

Julien, Catherine. 1982. Inca decimal administration in the Lake Titicaca region. In *The Inca and Aztec States, 1400–1800: Anthropology and History*, edited by George A. Collier, Renato I. Rosaldo, and John D. Wirth, 119–51. New York: Academic Press.

Julien, Catherine. 1988. How Inca decimal administration worked. *Ethnohistory* 35(3): 257–97.

Julien, Catherine. 1993. Finding a fit: Archaeology and ethnohistory of the Incas. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State*, edited by Michael A. Malpass, 177–233. Iowa City: University of Iowa Press.

Julien, Catherine. 1998. *Daily Life in the Inca Empire*—book review. *Journal of Social History* 31(3): 744–46.

Keatinge, Richard, ed. 1988. *Peruvian Prehistory*. Cambridge: Cambridge University Press.

Kembel, Silvia Rodriguez. 2001. Architectural sequence and chronology at Chavín de Huantar, Peru. Ph.D. dissertation, Department of Anthropological Sciences, Stanford University.

Kendall, Ann. 1973. *Everyday Life of the Incas*. New York: G. P. Putnam and Sons.

Kirkpatrick, Sidney D. 1992. *Lords of Sipán: A Tale of Pre-Inca Tombs, Archaeology, and Crime*. New York: William Morrow.

Klymyshyn, Ulana. 1982. Elite compounds in Chan Chan. In *Chan Chan: Andean Desert City*, edited by Michael E. Moseley and Kent C. Day, 119–44. Albuquerque: University of New Mexico Press, School of American Research.

Koczka, Charles. 1990. The need for enforcing regulations on the international art trade. In *The Ethics of Collecting Cultural Property*, edited by Phyllis Mauch Messenger, 185–98. Albuquerque: University of New Mexico Press.

Kolata, Alan L. 1993. *The Tiwanaku: Portrait of an Andean Civilization*. Malden, MA: Blackwell.

Kubler, George. 1946. The Quechua in the colonial world. In *Handbook of South American Indians*. Vol. 2, *The Andean Civilizations*, edited by Julian H. Steward, 331–410. Washington, DC: Bureau of American Ethnology.

Lathrap, Donald. 1977. Our father the cayman, our mother the gourd: Spinden revisited, or a unitary model for the emergence of agriculture in the New World. In *Origins of Agriculture*, edited by Charles A. Reed, 713–52. The Hague: Mouton.

Lettau, Heinz, and Katharina Lettau, eds. 1978. *Exploring the World's Driest Climate*. Madison: University of Wisconsin-Madison, Institute for Environmental Studies.

Litvak King, Jaime. 1990. Cultural property and national sovereignty. In *The Ethics of Collecting Cultural Property*, edited b y Phyllis Mauch Messenger, 199–208. Albuquerque: University of New Mexico Press.

Lubow, Arthur. 2007. The possessed. *New York Times Magazine*, June 24.

Lynch, Thomas F. 1980. *Guitarrero Cave: Early Man in the Andes.* New York: Academic Press.

Lynch, Thomas F. 1993. The identification of Inca posts and roads from Catarpe to Río Frío, Chile. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State,* edited by Michael A. Malpass, 117–44. Iowa City: University of Iowa Press.

Malpass, Michael A. 1987. Prehistoric agricultural terracing at Chijra in the Colca Valley, Peru: Preliminary report II. In *Pre-Hispanic Agricultural Fields in the Andean Region,* edited by William M. Denevan, Kent Mathewson, and Gregory Knapp, 45–66. International Series 359(i). Oxford: British Archaeological Reports.

Malpass, Michael A. 1993a. Provincial Inca archaeology and ethnohistory: An introduction. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State,* edited by Michael A. Malpass, 1–16. Iowa City: University of Iowa Press.

Malpass, Michael A, ed. 1993b. *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State,* Iowa City: University of Iowa Press.

McGimsey, Charles R., III. 1972. *Public Archeology.* New York: Seminar Press.

Messenger, Phyllis Mauch, ed. 1989. *The Ethics of Collecting Cultural Property.* Albuquerque: University of New Mexico Press.

Meyer, Karl. 1973. *The Plundered Past.* New York: Atheneum.

Miller, George. 2003. Food for the dead, tools for the afterlife: Zooarchaeology at Machu Picchu. In *The 1912 Yale Peruvian Expedition Collections from Machu Picchu: Human and Animal Remains,* edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 1–64. New Haven, CT: Department of Anthropology, Yale University and the Division of Anthropology, Peabody Museum of Natural History.

Minelli, Laura Laurencich. 1999. The Inca "quipu." In *The Inca World: The Development of Pre-Columbian Peru, A.D. 1000–1534,* edited by Laura Laurencich Minelli, 189–92. Norman: University of Oklahoma Press.

Mishkin, Bernard. 1946. The contemporary Quechua. In *Handbook of South American Indians.* Vol. 2, *The Andean Civilizations,* edited by Julian H. Steward, 411–500. Washington, DC: Bureau of American Ethnology.

Molina, Cristóbal de. 1988 [1575]. Relación de la fábulas y ritos de las Incas. In *Fábulas y Ritos de los Incas,* edited by Henrique Urbano and Pierre Duviols, 47–134. Madrid: Historia 16.

Morris, Craig. 1978. The archaeological study of Andean exchange systems. In *Social Archaeology: Beyond Subsistence and Dating,* edited by Charles Redman, Marc J. Bermann, E. V. Curtin, William T. Langhorne, Nina M. Versaggi, and J. C. Wagner, 315–27. New York: Academic Press.

Morris, Craig, and Donald E. Thompson. 1985. *Huánuco Pampa: An Inca City and Its Hinterland.* New York: Thames and Hudson.

Morris, Craig, and Adriana von Hagen. 1993. *The Inka Empire and Its Andean Origins.* New York: American Museum of Natural History and Abbeville Press.

Morúa, Martín de. 1922–1925. *Historia del Orígen y Genealogía de los Reyes Incas del Perú, de sus Hechos, Costumbres, Trajes y Manera de Gobierno,* vol. 4, edited by H. H. Urteaga and C. A. Romero, 1–253. Lima: Colección de Libros y Documentos Referentes a la Historia del Perú.

Morúa, Martín de.1922–1925. *Historia del Orígen y Genealogía de los Reyes Incas del Perú, de sus Hechos, Costumbres, Trajes y Manera de Gobierno*, vol. 5, edited by H. H. Urteaga and C. A. Romero, 1–72. Lima: Colección de Libros y Documentos Referentes a la Historia del Perú.

Moseley, Michael E. 1975. *Maritime Foundations of Andean Civilization*. Menlo Park, CA: Cummings.

Moseley, Michael E. 1992. *The Incas and Their Ancestors*. New York: Thames and Hudson.

Murra, John V. 1962. Cloth and its functions in the Inca state. *American Anthropologist* 64: 710–28.

Murra, John V. 1972. El "control vertical" de un máximo de pisos ecológicos en la economía de las sociedades Andinas. In *Visita de la provincia de León de Huánuco*, vol. 2, edited by Iñigo Ortíz de Zúñiga, 429–76. Huánuco, Peru: Universidad Nacional Hermilio Valizán.

Murra, John V. 1975. *Formaciones Económicas y Políticas del Mundo Andino*. Lima: Instituto de Estudios Peruanos.

Nagin, C. 1981. First, the "hot pot"—Now, the "uncup." *New York*, December 7, pp. 61–74.

Needham, Paul. 2008. Peru memo: Artifact dispute continues after discussions stall. *Yale Daily News*. http://www.yaledailynews.com/articles/printarticle/24899.

Niles, Susan. 1987. *Callachaca: Style and Status in an Inca Community*. Iowa City: University of Iowa Press.

Niles, Susan. 1993. The provinces in the heartland: Stylistic variation and architectural innovation near Inca Cuzco. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State*, edited by Michael A. Malpass, 145–76. Iowa City: University of Iowa Press.

Niles, Susan. 2004. The nature of Inca royal estates. In *Machu Picchu: Unveiling the Mystery of the Incas*, edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 49–70. New Haven, CT: Yale University Press.

Niles, Susan, and Robert Batson. 2007. Sculpting the Yucay valley: Power and style in late Inka architecture. In *Variations in the Expression of Inka Power*, edited by Richard Burger, Craig Morris, and Ramiro Matos Mendieta, 185–222. Washington, DC: Dumbarton Oaks.

Parsinnen, Martti. *Tawantinsuyu: The Inka State and Its Political Organization*. Helsinki: Societas Historica Finlandiae.

Pease, Franklin G. Y., ed. 1977. *Collaguas I*. Lima: Pontificia Universidad Católica del Peru.

Pozorski, Sheila, and Thomas Pozorski. 1987. *Early Settlement and Subsistence in the Casma Valley, Peru*. Iowa City: University of Iowa Press.

Pringle, Heather. 1998. The slow birth of agriculture. *Science* 280: 1446–50.

Protzen, Jean-Pierre. 1980. Inca stonemasonry. *Scientific American* 254(2): 94–103.

Protzen, Jean-Pierre. 1982. Inca quarrying and stonecutting. *Ñawpa Pacha* 21: 183–219.

Protzen, Jean-Pierre. 1999. Inca architecture. In *The Inca World: The Development of Pre-Columbian Peru, A.D. 1000–1534*, edited by Laura Laurencich Minelli, 193–222. Norman: University of Oklahoma Press.

Reinhard, Johan. 1992. Sacred peaks of the Andes. *National Geographic Magazine* 181(3): 86–111.

Reinhard, Johan. 1996. Peru's ice maidens: Unwrapping the secrets. *National Geographic Magazine* 189(6): 62–81.

Reinhard, Johan. 1999. At 22,000 feet, children of Inca sacrifice found frozen in time. *National Geographic Magazine* 196(5): 36–55.

Reinhard, Johan. 2007. *Machu Picchu: Exploring an Ancient Sacred Center.* Los Angeles: Cotsen Institute of Archaeology, University of California, Los Angeles.

Rick, John. 2005. The evolution of authority and power at Chavín de Huántar, Peru. *Archaeological Papers of the American Anthropological Association* 14: 71–89.

Root, William C. 1949. Metallurgy. In *Handbook of South American Indians.* Vol. 5, *Comparative Ethnology of South American Indians,* edited by Julian H. Steward, 205–26. Washington, DC: Bureau of American Ethnology.

Rowe, John H. 1946. Inca culture at the time of the Spanish conquest. In *Handbook of South American Indians.* Vol. 2, *The Andean Civilizations,* edited by Julian H. Steward, 183–330. Washington, DC: Bureau of American Ethnology.

Rowe, John H. 1967. What kind of a settlement was Inca Cuzco? *Ñawpa Pacha* 5: 59–76.

Rowe, John H. 1982. Inca policies and institutions relating to the unification of the empire. In *The Inca and Aztec States, 1400–1800: Anthropology and History,* edited by George A. Collier, Renato I. Rosaldo, and John D. Wirth, 93–118. New York: Academic Press.

Rowe, John H. 1987. Machu Picchu a la luz de los documentos del siglo XVI. *Kuntur* 4: 12–20.

Sadowski, Robert M. 1989. A few remarks on the astronomy of R. T. Zuidema's "quipu-calendar." In *Time and Calendars in the Inca Empire,* edited by Mariusz S. Ziolkowski and Robert M. Sadowski, 209–13. International Series 479. Oxford: British Archaeological Reports.

Salazar, Lucy. 2004. Machu Picchu, mysterious royal estate in the cloud forest. In *Machu Picchu: Unveiling the Mystery of the Incas,* edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 21–48. New Haven, CT: Yale University Press.

Salazar, Lucy. 2007. Machu Picchu's silent majority: A consideration of the Inca cemeteries. In *Variations in the Expression of Inka Power,* edited by Richard Burger, Craig Morris, and Ramiro Matos Mendieta, 165–83. Washington, DC: Dumbarton Oaks Research Library and Collection.

Salomon, Frank. 1986. *Native Lords of Quito in the Age of the Incas.* Cambridge: Cambridge University Press.

Sandweiss, Daniel, J. B. Richardson III, E. J. Reitz, J. Hsu, and R. Feldman. 1989. Early maritime adaptations in the Andes: Preliminary studies at the Ring site, Peru. In *Ecology, Settlement and History in the Osmore Drainage, Peru,* edited by Don S. Rice, Charles Stanish, and Phillip R. Scarr, 35–84. International Series 545. Oxford: British Archaeological Reports.

Sandweiss, Daniel, J. B. Richardson III, E. J. Reitz, H. B. Rollins, and K. A. Maasch. 1996. Geoarchaeological evidence from Peru for a 5000 years BP onset of El Niño. *Science* 273: 1531–1533.

Schreiber, Katharina. 1992. *Wari Imperialism in Middle Horizon Peru.* Anthropological Paper 87. Ann Arbor: University of Michigan Museum of Anthropology.

Schreiber, Katharina. 1993. The Inca occupation of the province of Andamarca Lucanas, Peru. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State,* edited by Michael A. Malpass, 77–116. Iowa City: University of Iowa Press.

Schreiber, Katharina, and Josué Lamuho Rojas. 1995. The puquois of Nasca. *Latin American Antiquity* 6(3): 229–54.
Shady Solís, Ruth. 2006. America's first city? The case of Late Archaic Caral. In *Andean Archaeology III: North and South*, edited by William Isbell and Helaine Silverman, 28–66. New York: Springer.
Shimada, Izumi. 2000. Late Prehispanic coastal states. In *The Inca World: The Development of Pre-Columbian Peru, A.D. 1000–1534*, edited by Laurencich Minelli, 49–110. Norman: University of Oklahoma Press.
Silverblatt, Irene. 1987. *Moon, Sun, and Witches*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
Silverman, Helaine. 1990. The early Nasca pilgrimage center of Cahuachi and the Nazca lines: Anthropological and archaeological perspectives. In *The Lines of Nazca*, edited by Anthony Aveni, 209–304. Philadelphia: American Philosophical Society.
Smith, Bruce D. 1994–1995. The origins of agriculture in the Americas. *Evolutionary Anthropology* 3(5): 174–84.
Society of Professional Archaeologists. 1984. Code of Ethics. In *Ethics and Values in Archaeology*, edited by Ernestene L. Green, 22–24. New York: The Free Press.
Squier, E. George. 1877. *Peru: Incidents of Travel and Exploration in the Land of the Incas*. New York: Harper.
Stothert, Karen. 1988. *La Prehistoria Temprana de la Peninsula de Santa Elena: Cultura Las Vegas*. Miscelánea Antropológica Ecuatoriana Serie Monográfica 10. Guayaquil, Ecuador: Banco Central de Ecuador.
Topic, John R. 1982. Lower-class social and economic organization at Chan Chan. In Chan Chan: Andean Desert City, edited by Michael E. Moseley and Kent C. Day, 145–75. Albuquerque: University of New Mexico Press, School of American Research.
Topic, John R., and Theresa Lange Topic. 1993. A summary of the Inca occupation of Huamachuco. In *Provincial Inca: Archaeological and Ethnohistorical Assessment of the Impact of the Inca State*, edited by Michael A. Malpass, 17–43. Iowa City: University of Iowa Press.
Ulloa Mogollón, Juan de. 1965 [1586]. Relación de la provincia de los Collaguas. In *Relaciones Geográficas de Indias (Peru)*, vol. 183, edited by Don Marcos Jiménez de la Espada, 326–33. Madrid: Ediciones Atlas, Biblioteca de Autores Españoles.
Urton, Gary. 1990. *The History of a Myth*. Austin: University of Texas Press.
Urton, Gary. 1995. New twist on in old yarn: Variation in knot directionality in the Inka khipus. *Baessler-Archiv n.F.* 42: 271–305.
Urton, Gary. 2001. A calendrical and demographic tomb text from northern Peru. *Latin American Antiquity* 12(2): 127–48.
Verano, John. 2003. Human skeletal remains from Machu Picchu: A reexamination of the Yale Peabody's collections. In *The 1912 Yale Peruvian Scientific Expedition Collections from Machu Picchu: Human and Animal Remains*, edited by Richard Burger and Lucy Salazar, 65–118. Yale University Publications in Anthropology 85. New Haven, CT: Peabody Museum, Yale University.
Vitelli, Karen D. 1984. The international traffic in antiquities: Archaeological ethics and the archaeologist's responsibility. In *Ethics and Values in Archaeology*, edited by Ernestene L. Green, 143–55. New York: The Free Press.

Wright, Kenneth. 2006. *Tipón: Water Engineering Masterpiece of the Inca Empire.* Reston, VA: American Society of Civil Engineers Press.

Wright, Kenneth, and Alfredo Valencia Zegarra. 2000. *Machu Picchu: A Civil Engineering Marvel.* Reston, VA: American Society of Civil Engineers Press.

Zeigler, Gary. 2008. The story of Llactapata: Machu Picchu's observatory. http://www.adventurespecialists.org/llacta2.html.

Ziolkowsi, Mariusz S. 1989. Knots and kinks: The quipu-calendar or supposed Cuzco luni-sidereal calendar. In *Time and Calendars in the Inca Empire,* edited by Mariusz S. Ziolkowski and Robert M. Sadowski, 197–208. International Series 479. Oxford: British Archaeological Reports.

Ziolkowsi, Mariusz S., and Robert M. Sadowski, eds. 1989. *Time and Calendars in the Inca Empire.* International Series 479. Oxford: British Archaeological Reports.

Zuidema, R. Thomas. 1964. *The Ceque System of Cuzco: The Social Organization of the Capital of the Inca.* Leiden, Netherlands: E. J. Brill.

Zuidema, R. Thomas. 1982a. Myth and history in ancient Peru. In *The Logic of Culture,* edited by I. Rossi, 150–75. South Hadley, MA: Bergin.

Zuidema, R. Thomas. 1982b. The sidereal lunar calendar of the Incas. In *Archaeoastronomy in the New World,* edited by Anthony Aveni, 59–107. Cambridge: Cambridge University Press.

Zuidema, R. Thomas. 1983. Hierarchy and space in incaic social organization. *Ethnology* 30(2): 49–75.

Zuidema, R. Thomas. 1990. *Inca Civilization in Cuzco.* Translated by Jean-Jacques Decoster. Austin: University of Texas Press.

RESOURCE CENTER

DVDs and Videocassettes about the Incas

The Incas. VHS. Public Broadcasting Associates, Inc. Washington, DC: PBS Video, 1980. An old recording, but still has a lot of useful information, especially about *how* archaeologists know about the Incas, not just what we know.

Incas: Secrets of the Ancestors. VHS. Time-Life Video and Television. Produced, directed, and written by Tom Simon. Alexandria, VA: Time-Life Video and Television, 1995.

Secrets of Lost Empires—Inca. VHS. NOVA Series. Washington, DC: PBS Video, 1997. Another source of information on how the Incas did things, like their stone working and suspension bridge building.

In Search of History: Lost City of the Incas. DVD. History Channel. New York,: A&E Home Video, 2005.

MUSIC CDS ABOUT ANDEAN MUSIC

There are so many groups who play Andean folk music that it is impossible to recommend one or even a few over others. Any Internet search of "Inca music" or "Andean folk music" will bring up a huge selection, often with free downloads.

In addition, most major record or bookstores (Borders, Waldenbooks, or Barnes and Noble, to name a few) have a section called "World Music," organized by country or region, that would have Andean music. Often these stores also have a machine that allows you to listen to a selection of the music before buying.

If you have never heard Andean folk music, I would recommend Inti Illimani, one of the oldest and most respected groups, as a good place to start. Their Web site is http://www.inti-illimani.cl/.

The music on the videocassettes and DVDs listed in this resource section will also have a nice example of music.

A general Web page from AOL, http://music.aol.com/artists/andean-folk/, lists groups that play traditional folk music, and it includes a large selection of artists.

Museums

Most major museums will have a section on South American archaeology, but the following have permanent displays. In addition, many other museums, especially at large universities, have collections of objects that could be viewed by making special arrangements.

American Museum of Natural History, Central Park West at 79th Street, New York, NY 10024.

Field Museum, 1400 Lakeshore Drive, Chicago, IL 60605.

Natural History Museum of Los Angeles County, 900 Exposition Boulevard, Los Angeles, CA 90007.

National Museum of Natural History, 10th Street and Constitution Avenue, Smithsonian Institution, Washington, DC 20560.

Internet Sources

Like music CDs, there are a host of good sources on the Incas available, of which a small representative sample is given here.

An account of Johan Reinhard's 1995 expedition to the summit of Mt. Ampato in southern Peru, where he discovered the remains of "Juanita," an Inca sacrificial victim: http://www.nationalgeographic.com/mummy/index.html

A presentation of Johan Reinhard's 1996 expedition to the summit of Mt. Sara Sara in southern Peru to discover another Inca high-altitude shrine: http://www.pbs.org/wgbh/nova/peru/

An MIT professor gives a 40-minute audio presentation on the history and design of Andean suspension bridges: http://www.loc.gov/today/cyberlc/feature_wdesc.php?rec=3839

A high-quality digital image of Guaman Poma's famous letter to the king of Spain, made from the original manuscript in a library in Denmark; difficult to read because of its seventeenth-century Spanish spellings and grammar, but the illustrations are great: http://www.kb.dk/permalink/2006/poma/info/es/frontpage.htm

A Web site from the Center for the Traditional Textiles of Cuzco, showing traditional weaving techniques: http://www.incas.org/

نبذة عن المؤلف:

مايكل مالباس أستاذ أنثروبولوجيا وشاغل كرسي دانا في العلوم الاجتماعية بكلية إيثاكا، الولايات المتحدة الأمريكية. كتب وشارك في كتابة كتب عدة، وساهم في تحرير مجلات، وأعمال أخرى. يتضمن اهتمامه البحثي أركيولوجيا أمريكا الجنوبية وتاريخها الإثنولوجي، وبروز المجتمعات المعقدة، والنظم الزراعية في مراحل ما قبل التاريخ.

يتركز نشاطه البحثي على الدراسات الأركيولوجية والتاريخية العرقية (الإثنوتاريخية) في أميركا الجنوبية، فضلاً عن الدراسات الإنكية، وأنشطة أقلمة الصيد وجني المحاصيل على طول ساحل بيرو، وبروز المجتمعات المعقدة، والنظم الزراعية وتغير المناخ في ما قبل التاريخ، وتدريس التقنيات في مجال الأنثروبولوجيا.

وضع مؤلفات، وشارك في أخرى، وكتب عشرات الدراسات في مجالات اختصاصه، وحصل على منح بحثية، كما نفذ إرساليات تنقيب آثاري ودراسات في مناطق أميركا اللاتينية. هذا ويعمل مستشاراً ومحللاً لمواد آثارية. حقق كتابه الذي تقدم «كلمة» ترجمته، أفضل المبيعات في الولايات المتحدة في العام 2009.

نبذة عن المترجم:

فالح حسن فزع، حاصل على شهادة الماجستير في الفرنسية وآدابها، ودبلوم في الإنكليزية. عمل في التدريس وحقق المرتبة الأولى في تعليم الفرنسية في العراق وحصل على تقدير وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في العام الدراسي 1997 - 1998. كتب وترجم، منذ العام 1990، دراسات ومقالات في النقد الأدبي، والدراسات الثقافية، والسياسية. ترجم بتكليف من دار أوراق عربية، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، عن الفرنسية كتاب «الإسلام» لدومينيك سورديل، و«سليمان القانوني»، و«صناعة المشاريع» عن الإنكليزية. كما ترجم، بالمشاركة، كتاب «العالم بعد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر والحرب على العراق.» ليفغيني بريماكوف، وصدر عن دار المدى، دمشق، وكتاب «إيران بعد ربع قرن.. من الجمهورية الأولى إلى الثالثة»، بتكليف من معهد الدراسات الإستراتيجية، بيروت.

عصر الإنكا

يشكل هذا الكتاب مقاربة أنثروبولوجية تطبيقية لحضارة الإنكا، التي تعد من الحضارات ما قبل الكولومبية أو العهد ما قبل الكولومبي، بمعنى أنها من الحضارات التي قامت في القارة الأمريكية قبل وصول كريستوفر كولومبس إليها أو ما قبل عصر رحلاته (1492 - 1502). ومن خصوصية هذه الحضارات أنها نشأت وتطورت على مدى آلاف السنين بنحو مستقل من دون تأثير حضارات باقي مناطق العالم. والإنكيون من المجموعات الاجتماعية التي عاشت في مرتفعات الأنديز، وأصحاب إحدى تلك الحضارات. ولهذا الكتاب أهمية في مستويين اثنين: مقاربة تطبيقية لإعادة فحص وتحديث حضارة من حضارات العالم في أواخر العصر الوسيط الغربي وفجر العصور الحديثة أو النهضة (من القرن الخامس عشر حتى القرن السادس عشر)، وتعريف بتفاصيل حياة جماعة اجتماعية أسست اكبر إمبراطورية في نصف الكرة الغربي قبل الاستعمار الأوروبي لأمريكا. فقد طوّع الإنكيون الثقافات كلها التي عاشت في غرب أمريكا الجنوبية ما أدى إلى تكوينهم جعبة مكتنزة من الخبرات في القيادة العسكرية والحكم وإدارة البلاد التي فتحوها وشعوبها ومواردها.